الجمهورية الجزائرية الدّيمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المدرسة العليا للأساتذة
بوزريعة - الجزائر

مخبر الدراسات التاريخية المعاصرة

قضايا تاريخية

- مجلة فصلية أكاديمية محكّمة تعنى بالدّراسات التّاريخية
تصدر عن مخبر الدّراسات التّاريخية المعاصرة ، بوزريعة - الجزائر -

ر.د.م.د : 2507-718X

العدد الثالث ذو القعدة 1437هـ / سبتمبر 2016

الإيداع القانوني: 367 - 2016

بسم الله الرحمن الرحيم

قضايا تاريخية

مجلة فصلية أكاديمية محكمة تصدر عن

مخبر الدراسات التاريخية المعاصرة

Laboratoire des Etudes Historiques Contemporaines

(LEHC)

العدد الثالث

ذو القعدة 1437هـ / سبتمبر 2016م

اللجنة العلمية

أ.د/ ناصر الدين سعيدوني	جامعة الجزائر 2
أ.د/ جمال قنان	جامعة الجزائر 2
أ.د/ محمد العربي الزبيري	جامعة الجزائر 2
أ.د/ بوعزة بوضرساية	جامعة الجزائر 2
أ.د/ دحو وفغرور	جامعة وهران
أ.د/ حباسي شاوش	جامعة الجزائر 2
أ.د/ شويتام أرزقي	جامعة الجزائر 2
أ.د/ بوطارن مبارك	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
أ.د/ برقوق سالم	جامعة الجزائر 3
أ.د/ مصطفى سايح	جامعة الجزائر 3
أ.د/ علي تابليت	جامعة الجزائر 1
د/ بن موسى جميلة	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
د/ ديب صفية	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
د/ نايت قاسي إلياس	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
د/ دويدة نفيسة	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
د/ بوعباش مراد	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
د/ بية نجاة	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
أ / أمير يوسف	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
أ / حسين عبد الستار	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

اللجنة الاستشارية:

أ.د/ مارتن إفنس (Martin EVANS)	(SUSSEX UNIVERSITY) أنجلترا
أ.د/ أدريان ليتس (Adrien LEITES)	جامعة السربون (la Sorbonne) فرنسا
أ.د/ صالح العلواني	خبير في علوم التربية تونس
أ.د/ ولد الطيب العروسي	معهد العالم العربي بباريس فرنسا
أ.د/ عبد الرحيم وازين	جامعة محمد الخامس الرباط المملكة المغربية
أ.د/ عمار جيدل	جامعة الجزائر 1

أمانة المجلة:

أ / أوفة سلم	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
أ / بزدور رضا	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

الرئيس الشرفي للمجلة

أ.د/ عليش لعموري

مدير المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

مدير المجلة

د/ سعيدي مزيان

مدير مخبر الدراسات التاريخية المعاصرة

رئيس التحرير

د. نوار نسيم

قسم التاريخ والجغرافيا

التدقيق اللغوي

لجنة من الخبراء

التصميم والتنفيذ

TIDIKELT

03، شارع العربي تبسي برج الكيفان
16120 الجزائر

الهاتف /الفاكس : 36 02 80 023
contact@dartidikelt.com

عنوان المراسلة :

93، شارع علي رملي
بوزريعة 16340، الجزائر

الهاتف :021.94.18.19 (00213)
05.57.59.16.06 (00213)

الفاكس : 021.94.18.67 (00213)

الموقع الالكتروني للمخبر :

www.lehc.dz

البريد الالكتروني للمجلة:

revue_dz@lehc.dz

بطاقة تعريف بمخبر الدّرسات التّاريخية المعاصرة

تبلورت فكرة إنشاء مخبر الدّراسات التاريخية المعاصرة بعد استشارات مستفيضة مع عدد من الأساتذة المتخصّصين في التاريخ الحديث والمعاصر على مستوى المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، رغبة منا جميعا في تطوير آليات البحث العلمي الجاد وفتح آفاق علمية أكاديمية واسعة، بايجاد فضاء علمي يجتمع حوله الجميع وعدم الاكتفاء بالتّدريس والإشراف على مذكرات التّخرج والدّراسات العليا.... فكان من أسمى أهدافه:

- إعداد دراسات أكاديمية متخصّصة في تاريخ الجزائر المعاصر تعمر بها المكتبة التاريخية الجزائرية. - معالجة قضايا تاريخية معاصرة تخصّ التاريخ الأروبي من خلال تشجيع **الاستغراب** بعد تبحّر الغربيين في مجال **الاستشراق** . **فنحن بحاجة إلى مؤرخين جزائريين ضليعين في دراسة التاريخ الأروبي وفق نظرة سكان الظّفة الجنوبية للبحر المتوسط** .

- توجيه الأساتذة و طلبة الدّراسات العليا نحو **دراسة التاريخ الأمريكي** علما أنّ منظومة التكوين الجامعية الجزائرية تشهد نقصا معتبرا في مجال التاريخ الأمريكي وحتّى **تاريخ الأمريكيتن** وكذا الشأن **بالنسبة للتاريخ الآسيوي** .

- توفير فضاء البحث الأكاديمي لأساتذة جزائريين امتكلوا ناصيته ومصاحبة أساتذة يحضّرون أطروحاتهم للدّكتوراه وكذا طلبة الدّراسات العليا بشكل عام.

- تنظيم ملتقيات علمية وطنية وإن أمكن دولية تخصّ الجوانب التّاريخية والحضارية بشكل عام للجزائر وتاريخ العالم المعاصر **باستضافة أساتذة جزائريين وأجانب** قصد تبادل الرؤى والوقوف على حصيلة التجارب العلمية والحصيلة المعرفية لأساتذتنا مقارنة بقرنائهم من العالم العربي الاسلامي والأروبي وحتّى الأمريكي.

- احتضان المخبر لمدارس الّدكتوراه التّي من شأنها أن تعمر بها المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة كبقية الجامعات الوطنية والمدارس الوطنية الأخرى وتبادل الخبرات باستضافة بعض أساتذتها المشهود لهم بالانتاج الفكري والمعرفي والتخصّص في مجالات نشاط المخبر .

- **إصدار مجلة أكاديمية خاصة بالمخبر**، تعنى بالدّراسات التاريخية المعاصرة، بهيئة علمية تتكوّن من رؤساء فرق البحث وبعض الأعضاء المثبتين لمؤهلات علمية في مجال التّحرير والنشر والارتقاء بها إلى مصاف المجلاّت المحكمة وطنيا وحتّى دوليا بإشراك أساتذة باحثين في تخصّصات قريبة ومكمّلة للدّراسات التاريخية (العلوم السياسية، الأنثروبواوجيا، الاثنولوجيا، علم الاجتماع، علم النفس، الدراسات العقدية وأصول الدين، علوم الاعلام والاتصال وغيرها) داخل الوطن وخارجه بحكم علاقات علمية أكاديمية تجمعنا بالعديد منهم بحكم زياراتنا لمختلف مراكز البحث خارج الوطن....

د.سعيدي مزيان
مدير المخبر

فهرس المحتويات

تصدير العدد الثّالث من مجلة قضايا تاريخية	بقلم أ.د/ جمال قنان	7
كلمة العدد	د/ سعيدي مزيان مدير المجلة	8
البحوث والدّراسات		
1 - الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد عُمان عند الرحالة والجغرافيين المسلمين خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي	د/ طه حسين عوض هُديل كلية التربية جامعة عدن - الأردن -	10
2 - الطائفة المارونية في لبنان منذ النشأة الى نهاية الحملات الصليبية (398 - 1292م)	د/ علي عبيد شكري الريكاني فاكولتي العلوم والتربية جامعة دهوك - العراق -	36
3 - علم الأسلحة خلال العصر السّعدي من خلال مخطوط العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع	أ.د/ أمبارك بوعصب المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين القنيطرة – المملكة المغربية -	50
4 - الرحلات الاستكشافية: مقاربة فكرية وحضارية «الرحلات الأوربية في الجزائر أنموذجا»	أ.د/ ناصر الدّين سعيدوني جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر2	64
5 - مساهمة الأمير خالد في بناء الحياة السياسية في الجزائر (1919 - 1924م)	أ/ غانم بودن جامعة بن خلدون تيارت - الجزائر-	74
6 - الانعكاسات الاجتماعية للاستيطان الأوربي في المغرب على عهد الحماية الفرنسية	د/ جلال زين العابدين كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس – المملكة المغربية -	90
7 - الثورة الجزائرية في الضمير العربي الهادي إبراهيم المشيرقي أنموذجا	أ/ بوركنة علي جامعة عمار ثليجي الاغواط - الجزائر	101
8 - دور الشيخ البشير الإبراهيمي في التعريف بالقضية الجزائرية خلال رحلته المشرقية: العراق أنموذجا	أ/ آمال سالم عطية جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر - الجزائر	112
9 - النشاط الثوري في الجنوب الجزائري من خلال جريدتي (Oran républicain) و(L'écho d'Oran) 1960-1962م	أ/ مولاي حليمة المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية - الجزائر	120
10 - فرانتز فانون والثورة الجزائرية من مجال التأثر إلى نطاق الممارسة	د/ قْوعيش جمال الدين المدرسة الوطنية العليا للصحافة وعلوم الإعلام - الجزائر	130
11 - العلاقات المباشرة بين الجزائر والولايات المتحدة في الستينات	أ.د/ علي تابليت كليّة الترجمة جامعة الجزائر - 1 -	144
ملف : مناقشات أطروحات الدكتوراه		
12 - إستراتيجية الثّورة الجزائرية في التّصدي للمصالح الإدارية المتخصصة 1955م - 1962م	إعداد أ. أمير يوسف المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر	162
إسهام المرأة في الحياة العلمية بالمشرق الإسلامي خلال القرنين 6 - 7 هـ / 13-14 م :	إعداد أ. أمير يوسف المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر-	166

المراسلات:

توجه المراسلات والاقتراحات والمقالات الموجهة للنشر باسم مدير المجلة
الدكتور: سعيدي مزيان على البريد الإلكتروني:

smeziane68@yahoo.fr

Tarikh_meziane6822@yahoo.fr

أوعلى العنوان التالي: 93 شارع علي رملي - بوزريعة (الجزائر) ص.ب 16340
على أن ترفق المقالات المرسلة بملخصين باللغة العربية واللغة الفرنسية أوالإنـجليزية
في حدود 250 - 300 كلمة وبالسيرة الذاتية لصاحب المقال

المواد المنشورة في المجلة لا تعبر إلا عن آراء أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مجلة قضايا تاريخية
ولا تلزم بأي حال من الأحوال القائمين عليها

تصدير العدد الثالث من مجلة قضايا تاريخية

بقلم : المؤرخ القطب الأستاذ الدّكتور جمال قنان

شهدت الدّراسات التاريخية في الجزائر انطلاقة نسبية منذ أكثر من ربع قرن وترتكز اهتماماتها أساسا بالموضوعات التي تتلعق بالتاريخ الوطني . والواقع أنّ الوقت قد حان لإقاء نظرة نقدية على هذه الأعمال خاصة وأنّ بعضها يحمل تأثيرات مدرسة التاريخ الاستعماري الفرنسية ومتأثرة بالقوالب والصّيغ والاتجاهات التّي أعطتها للدّراسات التّاريخية في بلادنا، للتّعرف فيما إذا كانت الأسس التّي وضعتها للدّراسات التّاريخية هي اسس صالحة يمكن اعتمادها والبناء عليها وتوسعيها بتطويرها ... .هذه الحوصلة أضحت من الضروريات القصوى في المرحلة الراهنة وعليها يتوقف توظيف جهود البحث في الحاضر والمستقبل توظيفا ايجابيا مفيدا يساهم في حركة التّطور العامّة للمجتمع .

إنّه إذا نظرنا إلى هذه المسألة من الزّاوية الاحصائية ومن جانبها البشري ، فإننا نجد أنّ الجامعات الوطنية تتوفر اليوم على بضع مئات من الباحثين في مختلف درجات التأهل والخبرة ، هم قادرون موضوعيا ، على تحمل هذا العبء والبدأ في تحقيق هذه الغاية . ومن ناحية الامكانيات والوسائل ، فإنّ العقبة الكبيرة التّي تجابه الباحث وتشلّ نسبة عالية من قدراته وإمكانياته تتمثل في التوثيق ، وهي صعوبة تبدو في الفترة الراهنة عسيرة الحلّ ومرتفعة التكاليف . والحلول الوسطى المقترحة لتذليلها أثّرت وستأثّر بدون شك في نوعية ومستوى الدّراسات التّي تنجز. وبالرّغم من هذا فإنّنا نعتقد أنّ الباحثين الجزائريين قادرون على تخطي القوالب وآفاق مدرسة التاريخ الاستعماري على الأقلّ ، بنبذ وصايتها الضمنية على الدراسات التاريخية في البلاد وفتح آفاق جديدة أمام البحث التاريخي لم تطرقها ولم تكن تدخل ضمن محاور اهتماماتها. ومن المفيد بهذا الصدد ، أنّ التعاون في هذا الميدان (الدّراسات التاريخية) خاصة في جانبه المعنوي والتوجيهي لن يكون ذا جدوى إن لم يؤد إلى عرقلة جهود الباحثين المحليين في سعيهم نحو هاته الآفاق الجديدة .

قد يبدو للقارىء أنّ مهمة التصدي لمدرسة التاريخ الاستعماري واتجاهاتها المختلفة وكيفية تعاملها مع تاريخنا الوطني أمرا سهلا ميسورا مادامت الموانع السياسية قد زالت بزوال الاستعمار ولكنه سوف يشعر بثقل المهمة وضخامتها عندما يدرك أنّ ذلك يستلزم توفر شرطين أساسين :

أوّلهما : وجود المادة الأولية المتمثّلة في المصادر ـ أي المحفوظات ـ وليس المؤلفات

ثانيهما : توفّر ذهنية ناضجة تملك ناصية البحث العلمي في ميدان التاريخ وأساليبه وتتحلّى بروح نقدية حادة للتفاعل مع هاته المادة الأولية واستخراج الحقيقة منها ، وهي مهمّة لا تقع على عاتق باحث واحد أو مجموعة أفراد بقدر ما تقع على عاتق المدرسة التاريخية الجزائرية التي نأمل أن تفرض نفسها في مواجهة المدرسة التاريخية الاستعمارية ، بالبحث الجاد والنزاهة العلمية في معالجتها لتاريخنا الوطني . فالجهد التّحريبي الذّي وجّه أعمال هذه المدرسة منذ عدّة أجيال والذي لا يزال يمارس حتّى اليوم ، لا يمكن تصفيته إلا بجهد مقابل يتحلّى بنفس الإصرار وروح المتابعة يندرج ضمن مهام البناء الوطني وأولوياته في منظور البناء القومي الواسع وتكامله معه للتخلّص من التعبية الذّهنية التي أخطر من كلّ تبعية .

أ.د جمال قنان

كلمة مدير المجلة

د . سعيدي مزيان

سررنا بصدور العدد الثالث من مجلّة « **قضايا تاريخية** » والذي تضمّن دراسات تاريخية متميزة أعدّها أساتذة أخيار يمتلكون ناصية البحث ، فأثروا بذلك المكتبة التاريخية وزادوا بفعلهم ذلك من الأهلية الأكاديمية للمجلّة اليافعة خاصة وأنّنا تشرّفنا بتصدير المؤرخ القطب الأستاذ الدّكتور ناصر الدّين سعيدوني في عددها السابق حيث أشاد بالقول :إنّ مجلة قضايا تاريخية بهيأتها العلمية و غنى مادتها و انضباط أسلوبها وطريقة إخراجها، لها من المواصفات ما يجعلها تفرض نفسها في مجال البحث، وتفتح آفاق مستقبل واعد للنهوض بالبحث في العلوم الإنسانية بالمدرسة العليا للأساتذة، فهي بحق منصة أكاديمية للنشر ومجال تفاعل فكري في حقول البحث التاريخي، يبشّر بثمار يانعة قطوفها دانية .

إنّ قناعتنا أكيدة أنّ المجلة فتحت بابا واسعا لمعشر الأساتذة الباحثين وطلبة الدراسات العليا حتّى يساهموا بأبحاثهم ودراساتهم في ترقية البحث التاريخي الأكاديمي الجاد لينهل منه أولو النهم والشغف بالتاريخ وتفاعلات أحداثه . فالتاريخ ليس قصص تروى أو بطولات تحكى أو أساطير تتلى بل هو **تعين أوقات وقوع الحوادث وبيان أسبابها،فيعرف منه سبب ارتقاء الانسان وانحطاطه وعلل سعادته وشقائه على توالي الأيام والسّنين** . ولذلك تجد في كلام أهل العلم كثيرًا من المدائح المنظومة والمنثورة للتاريخ ، فقد ذكر ابن سينا في كتاب السياسة قائلا:

« إن أنفع الأمور التي يسلكها المرءُ في استجلاب علم السياسة وغيره من العلوم أن يتأمل أحوال الناس وأعمالهم ومتصرفاتهم؛ ما شهدها وما غاب عنها مما سمعه وتناهى إليه منها، وأن يمعن النظر فيها، ويميز بين محاسنها ومساوئها، وبين النافع والضار لهم منها، ثم ليجتهد في التمسك بمحاسنها؛ لينال من منافعها مثل ما نالوا ، وفي التحرّز والاجتناب من مساوئها ، ليأمن من مضارها ويسلم من غوائلها مثل ما سلموا».

والتاريخ – بأي معنى من معانيه– مرتبط بالزّمن، فالمقصود من التاريخ في جميع معانيه بيانُ شيء متعلّق بالماضي، وكلمة الماضي هنا معناها كلّ ما سبق اللّحظة الحالية « .ولعمري أنّ هذا الأمر نجده مجسّدا عمليا من خلال التّطور الحاصل في تدريس التاريخ في المستوى العالي الأكاديمي حيث برعت المدرستان التاريختيان الأمريكية والألمانية في التأصيل لفرع جديد من الدّراسات التاريخية سمي ب« **تاريخ الحاضر** » .

أملنا معقود على بروز أقلام علمية نابغة في التاريخ من داخل الجزائر الحبيبة وخارجها وسعينا سيظلّ ظافرا بحول الله تعالى بشرط تظافر الجهود وتوحد الرؤى وإخلاص العمل وإتقانه حتّى نرفع من القيمة العلمية لدراساتنا وليكون لها موقع قدم في معين البحث التاريخي المعترف بجودته وأصالته والظّافر بالإكبار والإشادة .

وفّقنا الله لما فيه الخير والسّداد

آمين يا رب العالمين

د. سعيدي مزيان

مجلة قضايا تاريخية - العدد الثالث
ذو القعدة 1437هـ / سبتمبر 2016م
ردمد - ISSN: 2507_718X
رقم الإيداع القانوني: 367 - 2016

قواعد النشر:

قضايا تاريخية مجلة فصلية أكاديمية محكمة تعنى بنشر المقالات العلمية والأعمال الأكاديمية في مجال الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة، وتشترط المجلة على من يرغب بنشر أبحاثه فيها التقييد بما يلي:

1 – أن يكون الموضوع المطروق متميزا بالجدة والأصالة والموضوعية والإثراء المعرفي، ولم يسبق نشره من قبل.

2 – تقبل المقالات باللغة العربية والفرنسية والإنجليزية، على أن لا يقل عدد صفحات المقال عن 12 صفحات ولا يزيد عن 20 صفحة، وأن لا يزيد عدد الأشكال والرسوم والملاحق عن 15 بالمائة من حجم المقال.

3 – أن تكون الكتابة على ورق (A4) 21-29.7 مع مراعاة التقييد بنوع الخط، فالمقالات المكتوبة باللغة العربية يجب أن تكتب بـ: (Traditionnel Arabic) حجم 16 بالنسبة للمتن وحجم 12 بالنسبة للهامش أما المقالات المكتوبة باللغة الأجنبية فيجب أن تكتب بـ: (Roman New Times) حجم 12 بالنسبة للمتن وحجم 10 بالنسبة للهامش.

4 – يجب إدراج هوامش المقال على شكل أرقام متسلسلة في نهاية المقال بصيغة أوتوماتيكية.

5 – يجب أن تكون الحواشي (Mise en page – Marges) من كل الجهات 2.5 سم.

6 – يجب أن يكون المقال سليما من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع مراعاة علامات الوقف المتعارف عليها في الأسلوب العربي، وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

7 – ضرورة اتباع القواعد العلمية المتعارف عليها في الإحالة والتوثيق والاعتماد على المصادر والمراجع (لقب واسم المؤلف، عنوان المصدر أوالمرجع، دار النشر، مكان النشر، سنة النشر، الطبعة، الجزء، الصفحة).

8 – يكتب عنوان المقال في أعلى الصفحة الأولى وسط السطر ويكون بالبنط العريض، وأسفل منه على جهة اليسار من العنوان **يكتب الاسم الكامل لصاحب المقال مسبوقا بدرجته العلمية وأسفل منه المؤسسة التي ينتمي إليها مع صورة لصاحب المقال بخلفية بيضاء.**

9 – **يقدم المقال إلى مكتب أمانة المجلة (مخبر الدراسات التاريخية المعاصرة) في نسختين ورقيتين وقرص مضغوط قابل للفتح أوبإرساله مرفقا بملخصين باللغة العربية واللغة الفرنسية أوالإنجليزية في حدود 250 – 300 كلمة وبالسيرة الذاتية لصاحب المقال .**

10 – تخضع المقالات المقدمة للنشر للتحكيم والتقييم من قبل الهيئة العلمية للمجلة، في حين يحتفظ القائمون على المجلة بحق نشر الأعمال المقبولة حسب التوقيت الذي يرونه مناسبا، وعلى هذا الأساس تقوم أمانة المجلة بإخطار الباحثين بالقرار النهائي المتعلق بالقبول أوالتعديل، على أن المجلة غير ملزمة بإبداء الأسباب حول الرفض وعدم النشر.

11 – يخطر صاحب المقال بترشيح مقاله للنشر في أعداد المجلة (بعد التحكيم) وفق ضوابط معينة، في أجل أقصاه شهر ابتداء من تاريخ ايداع المقال.

12 – تعطى الأولوية في النشر للمقالات حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى أمانة المجلة، وذلك بعد إجازتها من الهيئة العلمية ووفقا لاعتبارات علمية وفنية.

13 – ترتيب المواد المنشورة يخضع لضوابط فنية ومطبعية لا علاقة لها بالمستوى العلمي للمقال أومكانة صاحبه الوظيفية.

14 – لا تتحمل هيئة التحرير أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في المجلة، ويتحمل بالتالي صاحب المقال كامل المسؤولية عن كتاباته التي تنتهك حقوق الملكية الفكرية أوحقوق الأخرين.

15 – المواد المرسلة إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد عُمان عند الرحالة والجغرافيين المسلمين
خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

د/ طه حسين عوض هُديل
أستاذ التاريخ الإسلامي وحضارته المشارك
كلية التربية عدن - جامعة عدن

المقدمة:

إن المتطلع للتاريخ العُماني الاجتماعي والاقتصادي يلاحظ أن هناك كثير من المؤلفات التي كُتبت فيه، وفيما شهده من أحداث، وما قام به أهل عُمان من أعمال تُبين لنا المستوى الحضاري والفكري الذي وصلوا إليه ليس على مستوى المنطقة؛ بل وعلى مستوى الشعوب التي ارتبطوا معها بعلاقات مختلفة سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية، وقد وثقت المؤلفات التاريخية سيرة حياة هذا الشعب، ومنجزاته، وتاريخه، فتنوعت بين مؤلفات تاريخ عام، وسير وتراجم، وتاريخ خاص وغيره، فشكّلت تلك المؤلفات مادة غنية استقى منها أهل عُمان أصالتهم التي ميزتهم عن بقية الشعوب الإسلامية، ومن خلال بحثنا في الوثائق التي أرخت لعُمان وغيرها من البلاد الإسلامية، وجدنا أنه كان لمؤلفات الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين باع في هذا الجانب، إذ شكّلت مؤلفاتهم مادة غنية من الصعب الحيد عنها، أو إهمالها لما فيها من معلومات مهمة بينت لنا العديد من الجوانب المبهمة من التاريخ العُماني، فكانت رافداً عظيماً يمكن أن تستقى منه كثير من الحقائق عن تاريخ هذا الشعب، وما تميز به من أمور أبرزتها في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية.

ومن هنا جاءت فكرة كتابة هذا البحث المعنون بـ: " الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد عُمان عند الرحالة والجغرافيين المسلمين خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي "، لنتعرف على ما جاء به هؤلاء من أخبار في مؤلفاتهم، التي تعد اليوم من أهم المصادر التي كتبت عن تاريخ عُمان، والتي من الصعب على أي باحث أن يتغاضى عنها، وعمّا أوردته من معلومات عن بلاد عُمان، ولتحقيق الهدف المنشود قمت بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة، وثلاثة مباحث رئيسة، تناولت في المبحث الأول دراسة تاريخية لأهم الرحالة والجغرافيين المسلمين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وما جاء به هؤلاء من معلومات عامة عن عُمان وتاريخها، ودرست في المبحث الثاني ما وثقه المؤرخون من الرحالة والجغرافيين اجتماعياً عن عُمان وأهلها، وجذورهم التاريخية القبلية، وأماكن سكنهم واستقرارهم، ووضعهم، ومشاركتهم في الحياة العامة، وخصصت المبحث الثالث للتعرف على ما أورده هؤلاء عن وضع عُمان الاقتصادي، ومفاصل ذلك الاقتصاد المختلفة: التجارية والزراعية، مع الإشارة إلى أسواقها، وعلاقاتها بالعالم الخارجي، وأنهيت بحثي هذا بخاتمة لخصت فيها أهم النتائج والاستنتاجات التي توصلت إليها.

◄ الرحالة والجغرافيين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وتاريخ عُمان:

شكلت المساحة الجغرافية التي تقع عليها بلاد عُمان اليوم واحدة من بين أهم مناطق العالم ذات المكانة الاستراتيجية، والموقع الهام عبر التاريخ، إذ كان لهذا الموقع الذي حبى الله تعالى به عُمان دور كبير في ربط عُمان بمراكز الثقل التجاري مثل: الهند والصين والشرق الأفريقي، وربط تلك المراكز ببعضها عبر عُمان نفسها، وانعاش التجارة الدولية، عن طريق دعم المسافرين والتجار وسفنهم بما يحتاجون إليه من مؤن تنوعت بين طعام وشراب وراحة، وإصلاح لسفنهم، وتزويدها بما تحتاج إليه، فضلاً عن رفد البلاد المحيطة بعُمان بكل ما تفردت به عُمان من بضائع تجارية، وسلع شكلت في ذلك الزمان مصدر دخل مهم للعُمانيين، ونتيجة لكل تلك الأسباب حظيت بلاد عُمان كغيرها من البلاد الإسلامية باهتمام وعناية كثير من المؤرخين من الرحالة والجغرافيين الذين انبهروا بها فبذلوا جهودهم، وسخروا أقلامهم فقط للبحث والتوثيق لما شاهدوه في رحلاتهم، أو سمعوه من غيرهم، أو قراؤوه في مؤلفات من سبقهم من المؤرخين عن هذه البلاد الغنية بخيراتها، وقواها البشرية التي ذاع صيتها في بقاع الأرض، فضلاً عما تميزت به من قدرات مختلفة نحن بصدد دراستها، والتعريف بها في بحثنا هذا، من خلال مؤلفات الرحالة والجغرافيين الذين عاشوا في مدة الدراسة.

لقد حاولنا قبل الخوض في دراسة ما جاء في وثائق ومؤلفات الرحالة والجغرافيين المسلمين عن عُمان، رصد أسماء أهم هؤلاء ومؤلفاتهم في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي موضوع الدراسة، والتعريف بهم، وبدورهم في تدوين ما شاهدوه أو سمعوه، فضلاً عن الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك، وهدفهم من وراء تسجيل مشاهداتهم عن عُمان، لما لذلك من أهمية في إثراء الموضوع، وفتح المجال أمام الباحثين والمهتمين بتاريخ عُمان، للتوسع في دراسة ما جاء به هؤلاء من معلومات، وإن كانت بسيطة في بعضها، ولكنها تعد اليوم مادة يمكن أن نسترشد بها في دراساتنا المستقبلية، في مختلف التخصصات العلمية التي تطرق لها هؤلاء الرحالة والجغرافيون.

◄ أهم الرحالة والجغرافيين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي:

حظيت عُمان كغيرها من البلاد الإسلامية باهتمام وعناية كثير من المؤرخين من الرحالة والجغرافيين الذين كان لهم إسهام كبير في مدّنا بكثير من المعلومات والحقائق عن هذا القطر الذي يعد جزء لا يتجزأ من هذه الأمة ذات التاريخ العريق، وقد حاولنا البحث والتقصي فيما وثق في كتب الرحلات والجغرافيا (البلدانيات) للوصول إلى أهم ما جاء به الرحالة والجغرافيون الذين أشاروا من قريب أو بعيد لعُمان، أو لأحد مدنها ومعالمها وتاريخها وثرواتها وسكانها، وما إلى ذلك من الأمور التي وردت في مؤلفاتهم، في محاولة لجمع كل تلك المعلومات وقراءتها وتحليلها، والاستفادة منها في إغناء تاريخ عُمان بما تركه لنا هؤلاء من ثروة علمية، لولاها ما عرفنا شيئاً عن حضارة وتاريخ أهل عُمان، ومن خلال بحثنا واطلاعنا في كتب الجغرافيا والرحلات تمكنا هنا من رصد أسماء أهم تلك المؤلفات التي توفرت لدينا، وتدوينها بحسب سنة وفاة كتابها، خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي في محاولة للتعريف بها وبمؤلفيها، وما قدموه عن عُمان وتاريخها، ليكون تمهيد ومدخل مهم لدراستنا هذه، ويعد المؤرخ والجغرافي أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله

المعروف بابن خرداذبة، المتوفى حوالي سنة 300هـ/ 900م[1]، من أوائل الجغرافيين الذين ذكروا بلاد عُمان، في كتابه: (المسالك والممالك)، ورغم شحة المعلومات التي مدنا بها، لاسيما فيما يتعلق بموقعها، وارتباطها الجغرافي ببقية البلاد المحيطة بها، أو التي ارتبطت معها بعلاقات مختلفة[2]؛ إلا أننا أحببنا هنا الإشارة إليه، وإلى ما قدمه من أخبار مختلفة، علماً بأن ابن خرداذبة عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ووفاته كانت مع مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، لهذا اعتمدنا عليه وعلى ما جاء به من معلومات، فذكرناه ضمن الجغرافيين الذين سنتحدث عمّا جاءوا به عن عُمان في بحثنا.

وفي الوقت نفسه، قدم لنا الرحالة أبو زيد الحسن بن يزيد السيرافي، المتوفى بعد سنة 330هـ/ 930م، في كتابه: (أخبار الهند والصين المعروف برحلة ابن السيرافي) معلومات مهمة، وإن كانت يسيرة عن بلاد عُمان، وبعض أهم مدنها مثل صحار[3] ومسقط[4]، وعلاقاتها التجارية مع بعض مراكز الثقل التجاري في ذلك الحين مثل: الهند والصين، وبعض الأمور المتعلقة بالبحر، والسلع التجارية التي كانت متداولة بين عُمان وبعض المراكز التجارية العالمية المجاورة لها[5]، ومن الملاحظ أنه كان لوصول السيرافي إلى عُمان في رحلته أثر كبير في ما دونه عن مشاهداته هناك، وهو ما يعطي لمؤلفه هذا أهمية خاصة، لاسيما أنه عاين كل شيءٍ بنفسه، ويعد شاهد حي على كل ما رآه[6]، وبما قدمه السيرافي نستطيع إكمال فجوة وإن كانت بسيطة عن التاريخ العُماني.

ويمدنا الرحالة بزرك بن شهريار الناخذاة الرام هرمزي، المتوفى سنة 342هـ/ 953م، في كتابه: (عجائب الهند بره وبحره وجزايره)، بمعلومات مهمة وقيمة عن الحياة التجارية التي ربطت عُمان بغيرها من البلاد، مثل: الهند والصين وفارس وغيرها عبر البحار، وتأتي أهمية ما جاء به هذا الرحالة كونه دَوَّن كل مشاهداته التي كان قد عاشها بنفسه في أثناء رحلته، مبيناً لنا بشيء من التفصيل المستوى الذي وصل إليه بعض التجار العُمانيين، وما كسبوه من أموال، استثمرت أكثرها في الخارج، وصارت عماد للاقتصاد العُماني بمجرد دخولها الأراضي العُمانية، ودور الحكام في الحفاظ على هذه الأموال وأصحابها، فضلاً عمّا تتعرض له سفن العُمانيين من أخطار الرياح والعواصف الشديدة، وما يعترضها من سفن اللصوص والقراصنة، بما يعطي لنا صورة لبعض المعاناة التي كان يعاني منها أهل التجارة والبحر في عُمان[7].

ويحدد المؤرخ الجغرافي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالأصطخري، المتوفى سنة 346هـ/ 957م، في كتابه: (المسالك والممالك)، موقع عُمان بالنسبة لبلاد العرب، مشيراً إلى أهم ما تميزت به عن غيرها من البلاد الإسلامية وغيرها، فضلاً عن وصفه لأجوائها، وذكره لأشهر مدنها، وأهميتها الجغرافية والاقتصادية، ومدى صعوبة طرقها البرية والبحرية، ومما يميز الأصطخري أنه تطرق في كتابه المذكور إلى شذرات من بعض الجوانب السياسية لعُمان خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وعلاقتها بالخلافة العباسية، التي كان من أهم أهدافها التوسعية الوصول إلى الأراضي العمانية، وإخضاعها لها[8].

إلا أن أكثر المعلومات دقة ووفرة عن عُمان، وأهلها، وبعض مدنها، ومسالكها، وطرقها فقد مدنا بها المؤرخ والجغرافي والنسابة اليمني أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، المتوفى سنة 360هـ/ 970م، الذي يعد أبرز مؤرخي وجغرافي مدة الدراسة، وقد يرى بعضهم بأن تلك المعلومات لا تتعدى أسطر قليلة في صفحات كتابه: (صفة جزيرة العرب)، ولكن عند مقارنتها بما جاء به جغرافيو القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ورحالته، فإنها

تعد غزيرة وذات أهمية، لاسيما وأن الهمداني استقى معظمها من مصدر موثوق به، وهو والده حسب قوله، إذ يقول عن مصدر معلومات كتابه المذكور: « قال لي أبي – رحمه الله تعالى –: قد دخلت الكوفة وبغداد والبصرة وعُمان ومصر ومكة، وأكثر بلاد النخل «[9]، مما يؤكد لنا أن الهمداني لم يزر عُمان، ومع ذلك يعد كتابه: (صفة جزيرة العرب) من المصادر الجغرافية المهمة للدراس في تاريخ عمان، علماً بأن ما جاء به الهمداني عن قبائل عُمان وما تفرع عنها يشكل رافد مهم للمعلومات عن عُمان وسكانها الأوائل.

ويقدم الرحالة والجغرافي أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق ابن الفقيه الهمداني، المتوفى سنة 365هـ/ 975م، في كتابه: (البلدان) معلومات لا تقل أهمية عن تلك التي قدمها لنا من سبقه من الرحالة والجغرافيين الذين ذكرناهم سابقاً، مشيراً إلى بعض مصادره في الحصول على المعلومة، مثل الرحالة سليمان التاجر، وبعض الكتب الفارسية[10]، وقد كان لبعض الأخبار التفصيلية التي مدَّنا بها ابن الفقيه الهمداني دور كبير في تعريفنا بالعديد من الأمور المتعلقة بحياة العُمانيين الزراعية والتجارية والبحرية، ومدى تأثير الأجواء على حياتهم، وما يترتب على ذلك من انتشار لبعض الأوبئة والأمراض وغير ذلك[11].

ويعد كتاب المؤرخ والجغرافي أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، المتوفى سنة 367هـ/ 977م، المعروف بـ: (صورة الأرض)، من بين أهم المصادر التاريخية الجغرافية التي اعتمدنا عليها في بحثنا هذا، لما مدنا به من أخبار مختلفة عن عُمان، وأهلها وقبائلها، وبعض مدنها التي ذاع صيتها وشهرتها في ذلك الحين، مثل: مدينة مرباط[12]، وظفار[13] وصحار، ونزوى[14] وغيرها، موضحاً بعض السمات التي تميزت بها بعض تلك المناطق وغيرها من مناطق عُمان، مشيراً إلى طرقها ومسالكها مع غيرها من البلاد المحيطة بها براً وبحراً[15].

ويمدنا الرحالة الفارسي المجهول الهوية، صاحب كتاب: (حدود العالم من المشرق إلى المغرب)، المتوفى بعد سنة 372هـ/ 982م، بمعلومات مهمة عن عُمان، وإن كانت يسيرة، ويصفها بصفات قد لا نجدها في الكثير من البلاد الإسلامية، فضلاً عن ذكره لبعض الأمور المتعلقة بتجارتها مع غيرها من البلاد في أفريقيا وغيرها[16]، وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً في مباحث الدراسة.

ويفصّل الرحالة والجغرافي أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، المتوفى سنة 380هـ/ 990م، في كتابه: (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، عند حديثه عن عُمان في ذكر مواقع مناطقها ومدنها التي برزت في ذلك الحين ويعددها، مشيراً إلى بعض الصفات التي تميزت بها تلك المناطق، وأثر ذلك في بروزها تجارياً، موضحاً ما كان يرد لها من سلع تجارية مختلفة، تنوعت مصادرها، والعملة التي كانت متداولة بها، وأنواع تمورها، وما يؤخذ منها من ضرائب، وقيمة ما يوصل بيت مال المسلمين منها سنوياً، وأهم السلع التجارية التي اعتمد عليها العُمانيون في دخلهم ومعيشتهم، ويعد ما قدَّمه المقدسي عن عُمان ذا أهمية مقارنة بغيره، لاسيما وأنه زار عُمان ومناطقها المختلفة، ودوَّن كل مشاهداته في كتابه المذكور وبنوع من التفصيل، وهو ما سنتحدث عنه بالتفصيل لاحقاً[17].

وفضلاً عن ذلك، فقد شكلت المعلومات البسيطة التي قدمها لنا المؤرخ الجغرافي الحسن بن أحمد المهلبي العزيزي، المتوفى سنة 380هـ/ 990م، في كتابه: (العزيزي أو المسالك والممالك)، عن عُمان مادة مهمة تمكنا من الاستفادة منها في بحثنا هذا، لاسيما حول الأهمية التي احتلتها عمان في المنطقة

في ذلك الحين، وأهم مدنها، وساكنيها، وجبالها الشهيرة[18]، وقد أعطت تلك المادة رافداً جديداً، ومادة علمية لا يمكن الحيد عنها في دراستنا هذه.

لقد كان لما وصلنا من وثائق هؤلاء المؤرخين من الرحالة والجغرافيين، دور كبير في رسم صورة لواقع بلاد عُمان خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة من العصر الإسلامي عامة، والقرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي خاصة، على الرغم من أن بعض هذه المصادر اعتمدت على بعضها في إيصال المعلومة، ومع ذلك كانت لبعض الزيادات التي قدمها هؤلاء من مشاهداتهم الشخصية أو ما سمعوه من غيرهم أثره في إثراء تاريخ عُمان، مما مكنا عند قراءتنا لكل تلك الوثائق من إعطاء صورة ولو تقريبية لذلك الواقع الذي عاشه هذا القطر العربي في ذلك الوقت، علماً بأن الاهتمام ببلاد عُمان من قبل المؤرخين من الرحالة والجغرافيين لم يكن وليد ذلك العصر فقط؛ بل كان له مقدمات وثقها لنا بعض ممن زاروا عُمان، أو كتبوا عن جغرافيتها، ومميزاتها في القرن السابق، وقد حاولنا هنا رصد بعض من تلك المؤلفات والوثائق الجغرافية التي ورد فيها ذكر بلاد عُمان، بغض النظر عن حجم المعلومة وكثرتها، وأحببنا هنا ذكر بعض منها على سبيل المثال لا الحصر: مثل كتاب: المؤرخ الجغرافي إسحاق بن الحسين المنجم، المتوفى قبل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، (آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان)[19]، وكتاب المؤرخ الجغرافي: أحمد بن إسحاق أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، المتوفى بعد سنة 292هـ/ 892م، (البلدان)[20] وغيرها من مؤلفات الرحالة والجغرافيين، مع العلم أن بعض مؤرخي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وجغرافيّه استقوا معلوماتهم من هذه المصادر، واعتمدوا على ما جاء فيها من أخبار مختلفة – وإن كانت موجزة – عن طبيعة عُمان، وواقعها خلال مدة الدراسة، ومن خلال توسعنا في وثائق هؤلاء الرحالة والجغرافيين تبين لنا أنه كان لهؤلاء أسبابهم الخاصة والعامة في تدوين ما سمعوه أو شاهدوه عن عُمان، وهو ما دفعنا إلى ضرورة البحث والتقصي عن تلك الأسباب، والتعريف بها في مستهل حديثنا في هذا البحث.

◄ 2 – أسباب توثيق الرحالة والجغرافيين لما وصلهم أو شاهدوه عن عُمان:

إن الدارس لما وُثِّق في المؤلفات التاريخية للرحالة والجغرافيين المسلمين يستطيع من خلال تعمقه فيما جاء فيها أن يخرج بخلاصة للأسباب التي دفعت هؤلاء إلى ذكر بلاد عُمان ومدنها، والاهتمام بها وبتاريخها، وموقعها وغير ذلك من الأمور التي نحن بصدد دراستها، على الرغم من عدم إشارة بعضهم إلى ذلك صراحة، وهو ما دفعنا إلى التقصي والبحث لرصد تلك الأسباب، وتحديدها في الآتي:

1 – أهمية موقع بلاد عُمان بالنسبة للبلاد الإسلامية، ومواقع الثقل التجاري في العالم في ذلك الحين، مثل: الهند والصين والشرق الافريقي، وكثرة التواصل بينهما، مما جعل من شهرة عُمان وتجارها أن تصل إلى الآفاق، لاسيما وأنها مثلما تذكر تلك المصادر الجغرافية كانت من أهم المنافذ الرئيسة إلى الجزيرة العربية والخليج العربي، وفرضة جميع العالم، عبر موانئها الشهيرة[21] التي سوف نتحدث عنها لاحقاً.

2– شهرة العُمانيين في البلاد الإسلامية وغيرها، بالأعمال التي تميزوا بها بشكل كبير في العالم في ذلك الوقت، مثل: التجارة، والصناعة، والزراعة، وركوب البحر، ومعرفتهم بأحواله، وأهواله، ومواسمه وغيرها من الأمور التي أشار لها بعض من الرحالة والجغرافيين[22].

3– رغبة كثير من الرحالة والجغرافيين التعريف

بمسالك، وطرق بلاد عُمان الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية، التي وصفها بعضهم بالصعبة والخطيرة، لكثرة القفار فيها، وخلوها من السكان، وارتفاع حرارتها التي جعلت أكثرها صحاري قاحلة يصعب السفر فيها أو السير إليها[23]، إلا بمرشد له معرفة بها، وهو ما دفع ببعض المؤرخين من الرحالة والجغرافيين أن يجعلوا من مؤلفاتهم دليلاً للتعريف بالمنطقة، وطرقها، ومسالكها، وممالكها.

4– وجود كثير من السلع التجارية التي تميزت بها عُمان عن غيرها، فضلاً عن المنتجات الزراعية التي ذاع صيتها في الآفاق في ذلك الوقت، لدرجة دفعت بعض هؤلاء الرحالة والجغرافيين إلى التفصيل في أنواع هذه المنتجات لاسيما التجارية والزراعية منها[24]، وهذا دليل على الانبهار والإعجاب بها، لتميزها عن منتجات بقية البلاد التي زاروها أو سمعوا عنها.

5 – رغبة بعضهم في التعريف بعُمان، وأشهر من سكنها من القبائل العربية وغيرها، وما تفرع عنها من أقوام، ومواقع سكنهم وإقامتهم، وأهم أعمالهم، لاسيما وأن المنطقة اشتهرت بأصالة قبائلها وساكنيها[25].

6 – حاجة بعضهم إلى تدوين ما شاهدوه، أو سمعوه عن عُمان، بهدف توثيق تلك المعلومات للأجيال، لتكون شاهداً لتاريخ هذا القطر الإسلامي الذي ذكره المؤرخون لكونه جزء لا يتجزأ من البلاد الإسلامية، لاسيما وأنه شهد الكثير من الأحداث التاريخية التي شهدتها الدولة الإسلامية في مدة الدراسة، لدرجة دفعت بعض الجغرافيين والرحالة إلى الإشارة إلى تلك الأحداث التي شهدتها عُمان[26].

7 – الإسهام في إرشاد المسافرين والتجار والحجاج وغيرهم – على ما يبدو –، ومساعدتهم في تحديد المسافات بين الطرق من وإلى عُمان وغيرها، لتسهيل حركتهم، وتعريفهم بالخطوط والطرق السالكة، والأكثر سهولة ويسر، لسفرهم ورحلاتهم التجارية أو العلمية أو الدينية عبر البر أو البحر، والمسافات التي تبعد عنها، مما أسهم – من وجهة نظرنا الخاصة – في أن تصبح تلك المؤلفات دليلاً قياسياً يهتدي به هؤلاء في رحلاتهم وسفراتهم، لجهل كثير من الناس في تلك المدة لمثل هذه الطرق التي كانت تمتلئ بالأخطار والأهوال المنتشرة في البر والبحر[27].

وخلاصة القول، إن القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي شهد بروز عدد من الرحالة والجغرافيين الذين جابوا العالم، وزاروا العديد من البلاد الإسلامية وغيرها، ودونوا مشاهداتهم فيما وصلنا من مؤلفات تعد اليوم من أهم المصادر التي لا يمكن كتابة التاريخ إلا بها، لاسيما تاريخ بلاد عُمان التي كان لها نصيب فيها دُوِّن في هذه المؤلفات الجغرافية المهمة، مع العلم أن أهمية ما جاء به هؤلاء عن عُمان يظهر لنا من خلال الوصف الدقيق الذي قدمه بعض الرحالة والجغرافيين عن موقع عُمان، وطبيعتها، وأهم مناطقها ومدنها، ومميزاتها، وقبائلها، وجذورهم التاريخية، وتفرعاتهم القبلية والأسرية في المدن العُمانية المختلفة، وهو ما سنتحدث عنه في المبحث القادم.

◄ موقع بلاد عُمان وأوضاعها الاجتماعية عند الرحالة والجغرافيين:

شكّلت وثائق الرحلات والجغرافيا عبر التاريخ مادة غنية ومهمة من الصعب الاستغناء عمّا جاء فيها، لأهميتها التاريخية والعلمية، وإسهامها في إعادة كتابة تاريخ الشعوب، وبعد ما دُوِّن في هذه المؤلفات عن مواقع بعض البلاد الإسلامية توثيق لحدودها الجغرافية، وإثبات لأصالة تاريخها، على الرغم من بعض التداخلات التي وقع فيها بعض هؤلاء الرحالة والجغرافيين، نتيجة لعدم زيارة بعضهم لهذه المناطق

والبلاد، واعتماد بعضهم الآخر على السماع من غيرهم، وقد كانت عُمان من البلاد الإسلامية التي حظي موقعها باهتمام الرحالة والجغرافيين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، لما تميز به هذا الموقع من أهمية، جعلت منه مادة تفنن بعضهم في وصفها، والحديث عن مكانتها.

◆ 1 – موقع عُمان عند الرحالة والجغرافيين:

مما لا شك فيه، أن عُمان تقع في أقصى جنوب شرقي الجزيرة العربية، من الشمال تمتد إلى مسندم على ساحل مضيق هرمز، وتتداخل أراضيها مع رمال الربع الخالي من الغرب والجنوب الغربي، ويفصلها عن البحرين وقطر رمال بينونة، وعن حضرموت رمال الأحقاف[28] المتصلة بالربع الخالي[29]. وقد كان للموقع الذي تميزت به عُمان أثره الواضح والكبير في وثائق بعض الرحالة والجغرافيين المسلمين، الذين راحوا يوصفون ما شاهدوه عن ذلك الموقع، أو ما سمعوه عنه ممن زاره[30]، في محاولة للتعريف بموقع عُمان وحدودها الجغرافية، وإبراز أهميتها بالنسبة لديار العرب المرتبطة بها حدودياً، لدرجة بلغت بالهمداني[31] إلى وصف المساحة الجغرافية التي تقع ضمنها عُمان من بين أفضل البلاد المعمورة، مشيراً إليها كإقليم مستقل بذاته، له حدوده الجغرافية، وعَدَّ المقدسي[32] عُمان كورة جليلة مستقلة في جزيرة العرب، في حين يُدخل ابن الفقيه الهمداني[33] عُمان ضمن البلاد التي وصفها بصفوة الأرض بقوله: « ثم برية العرب إلى عُمان، وإلى كرمان وأرض طبرستان وإلى كابل وطخارستان،... وهذا الجزء هو صفوة الأرض ووسطها، لا يلحقه عيب، ولا يناله تقصير ».

ويحدد ابن خرداذبة[34] موقع عُمان في جنوب شرق الجزيرة العربية بقوله: « ثم في الانحراف نحو المشرق، أعمال عُمان واليمامة والبحرين «، وهو ما يؤكده الهمداني[35]، بقوله: « وشرقيها: عُمان والبحرين وكاظمة والبصرة «. أما حدود عُمان الشمالية الشرقية، والجنوبية الشرقية والغربية، فيلُفُّها البحر، مثلما يشير إلى ذلك الأصطخري[36] عند حديثه عن البحر الممتد من شمال عُمان بقوله: « فيمتدّ على البحرين حتّى ينتهى إلى عُمان، ثمّ يعطف على سواحل مهرة ...[37]»، وهو ما يؤكده ابن حوقل[38]، من أن حدود عُمان تاريخياً امتدت شرقاً حتى الخليج العربي، وقد سمي البحر الذي يقع جنوب شرق عُمان تاريخياً، باسم بحر عمان[39].

وفي الوقت نفسه، تحدد تلك الوثائق والمؤلفات بشيء من التفصيل المسافات التي تحد عُمان بجيرانها في بعض الجهات، والمناطق الحدودية، فعن الجهة الشمالية الشرقية، الممتدة إلى البحرين، يقول ابن خرداذبة[40]: « والمنازل من عُمان الى البصرة السبخة، وهى بين عُمان والبحرين قطر العقير ساحل هجر حمض «، وتقدر مسافة السفر بينهما بنحو شهر[41]، ويشير ابن حوقل[42] إلى أن المسافة بين عُمان والبحرين كانت غير قابلة للسكن أو السفر، صحراوية، لكونها لا ماء فيها، ولا مرعى، ولا سكان، فقال: « بين اليمامة والبحرين وبين عُمان، ومن وراء عبد القيس برّيّة خالية عن الآبار والسكّان والمراعي، قفرة لا تسلك ولا تسكن «، ويشير في موضع آخر إلى أن الطريق بينهما كانت محفوفة بالمخاطر قائلاً: « وكذلك ما بين عُمان والبحرين فطريق شاقّ يصعب سلوكه لتمانع العرب وتنازعهم فيما بينهم «[43]، وهو ما يؤكده الأصطخري[44] بقوله: « وبين البحرين وبين عُمان برية ممتنعة «.

وعندما يستعرض الهمداني[45] لما يفصل بين عُمان واليمن من جهة الغرب، والجنوب الغربي لها، يقول: « ثم الرمل رمل الكديد، وهو بينه وبين

يبرين[46]، وليس بينهما ماء ثلاثة أيام بلياليها في الدهناء[47]، ووراء يبرين، والخنّ رمل إلى عُمان «، ويقدر الأصطخري[48] المسافة بين عُمان واليمن (مهرة) بنحو شهر، ومن الملاحظ أن الطريق البري من عُمان إلى اليمن كانت تكتنفه كثير من المشاق والمخاطر، بعكس الطريق البحري الذي يسهل السفر فيه إلى اليمن أو إحدى مناطق الجزيرة العربية مثل: جدة أو مكة، ويقول ابن حوقل[49] عن هذا الطريق: « وطريق عُمان يصعب سلوكه في البرّيّة، لكثرة القفار وقلّة السكّان، وإنّما طريقهم في البحر الى جدّة، فإن سلكوا على السواحل من مهرة وحضر موت إلى عدن أو إلى طريق عدن بُعد عليهم وقلّ ما يسلكونه»، ويزيد ابن حوقل أن المناطق التي تفصل عُمان عن اليمامة مما يلي البحر إلى حدود اليمن هي مناطق صحراوية خالية من السكان، وديار العرب[50].

ومن هنا نستطيع من خلال ما وصلنا من أخبار في وثائق الرحالة والجغرافيين أن نحدد الموقع الجغرافي لعُمان، والمسافات التي كانت تفصل بينها، وبين بعض المناطق المجاورة لها في مدة الدراسة، فضلاً عن إشارتها لإمكانية التواصل بين عُمان وغيرها، والتنبيه للمناطق التي من الصعب الوصول عبرها إلى عُمان، وأسباب هذه الصعوبة، وعلى ما يبدو أن عامة الناس وخاصتهم من أهل عُمان وغيرها استفادوا مما جاء في هذه الوثائق التي كَوَّنت بالنسبة لهم دليل إرشادي مهم للمسافرين من وإلى عُمان، فضلاً عمّا جاء فيها من ذكر لعدد من مدن عُمان التاريخية التي راحت بعض تلك المؤلفات تصفها، كما سنلاحظ فيما بعد.

◆ 2 – أهم المناطق والمدن العُمانية عند الرحالة والجغرافيين:

ضمت المساحة الجغرافية التي تحدث عنها الرحالة والجغرافيون المسلمين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي لعُمان كثيراً من المدن والقرى التاريخية الشهيرة هناك، وقد توزعت تلك المدن على الأراضي العُمانية التي اختلف الجغرافيين في تقدير مساحتها، بعد أن اجتهد بعضهم في ذلك، مثل: الأصطخري[51] الذي حددها بنحو ثلاثمائة فرسخ. أما المقدسي[52] فقد حددها بنحو ثمانين فرسخاً، وانفرد عن غيره من الرحالة والجغرافيين المسلمين بذكر أسماء أكثر تلك المدن العُمانية، مع تعريفه لموقع بعضها، وما تميزت به من أهمية، وثروات مختلفة وغير ذلك، مما أسهم في الحصول على معلومات كافية عن بعض تلك المدن بعد الاستعانة بما قدمه لنا بقية الرحالة والجغرافيين ممن عاشوا خلال مدة الدراسة، ومن أبرز هذه المدن التي ورد ذكرها: مدينة صحار، ونزوة، والسَرَ، وضنك، وحفيت، وسلوت، ودبا، وجلفار، وسمد، ولسيا، وملح، وبرنم، والقلعة، وضنكان، والمسقط، وتوأم[53]، وتزيد مصادر أخرى أسماء لمناطق عُمانية مهمة غفل عنها المقدسي، مثل: دما، وحاسك[54]، ومرباط، وظفار[55] وغيرها[56].

وقد قدم المقدسي في سياق عرضه لأسماء هذه المدن تفاصيل دقيقة لبعضها، وعلى ما يبدو أن تقديمه هذا خضع لمشاهداته الخاصة، بعد زيارته لها دون غيرها، فضلاً عن الأهمية التي احتلتها بعض هذه المدن، التي راح يصف موقعها، ومكانتها الداخلية والخارجية، وأهم ثرواتها، وأسواقها، وجوامعها، وآبارها، وهوائها وغير ذلك، وكانت مدينة صحار هي أول المدن العُمانية التي حظيت باهتمام الرحالة والجغرافيين في المدة موضوع الدراسة، فقال عنها المقدسي[57] الذي راح يصفها وصفاً دقيقاً: « صحار هي قصبة عُمان، ليس على بحر الصين اليوم بلد أجلّ منه، عامر، آهل، حسن، طيّب، نزه، ذو يسار، وتجار، وفواكه، وخيرات، أسرى من زبيد وصنعاء، أسواق عجيبة، وبلدة ظريفة، ممتدّة على

البحر، دورهم من الآجرّ والساج، شاهقة نفيسة، والجامع على البحر، له منارة حسنة، طويلة، في آخر الأسواق، ولهم آبار عذبة، وقناة حلوة، وهم في سعة من كلّ شيء، دهليز الصين، وخزانة الشرق والعراق، ومغوثة اليمن، قد غلب عليها الفرس، المصلّى وسط النخيل، ومسجد صحار على نصف فرسخ، ثمّ بركت ناقة رسول الله ﷺ [58]، قد بنى أحسن بناء، وهواءه أطيب هواء من القصبة ومحراب الجامع بلولب يدور تراه مرّة أصفر، وكرّة أخضر، وحينا أحمر «.

وزيادة على ما قال المقدسي عن صحار، قال الأصطخري[59] عنها في أثناء وصفه لعُمان وقصبتها صحار: « وهي على البحر، وبها متاجر البحر، وقصد المراكب، وهى أعمر مدينة بعُمان، وأكثرها مالاً، ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر فارس بجميع بلاد الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار، وبها مدن كثيرة، وبلغني أنّ حدود أعمالها نحو من ثلاث مائة فرسخ «. في حين اكتفى الهمداني[60] بقوله عنها: « أرض عُمان كورتها العظمى صحار، وأما قراها فأكثر مجامعها هرود من أوديتها «.

كما تطرق ابن حوقل[61] عند حديثه عن عُمان، ووصفه لطبيعتها إلى منطقة صحار، فقال: « وقصبتها صحار، وهي على البحر، وبها من التجّار والتجارة ما لا يحصى كثرة، وهي أعمر مدينة بعُمان، وأكثرها مالاً، ولا يكاد يعرف على شطّ بحر فارس بجميع الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار، ولها مدن كثيرة، ويقال أنّ حدود أعمالها ثلثمائة فرسخ «. ومن خلال عرض الهمداني والأصطخري وابن حوقل نستطيع أن نستنتج أن صحار ضمت الكثير من القرى، والمدن الواسعة المعروفة في التاريخ العُماني التي دخلت في الإطار الجغرافي لها، وهو ما يؤكده لنا المقدسي[62] بقوله: « أن نزوة والسر وضنك من مدن صحار"، كإشارة واضحة لما ذهبنا إليه، في حين يقول العزيزي[63] الذي كان معاصراً للمقدسي في أثناء تعريفه لعُمان: « والقصبة اسمها صحار، وليس على بحر فارس مدينة أجلّ منها، وأعمالها نحو ثلاثمائة فرسخ ". ومن الملاحظ أن هناك تقارباً كبيراً في الوصف الذي قدمه ابن حوقل والأصطخري عن صحار، لاسيما وأنهم عاشوا في مدة زمنية متقاربة، والأرجح أن ابن حوقل نقل عن الأصطخري لتأخره عنه في سنة الوفاة، وهو ما يدلل لنا أن هناك تقارباً كبيراً فيما قدمه الرحالة والجغرافيون في حديثهم عن صحار لاسيما في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي لتقارب المدة الزمنية التي جمعت بينهم، ومع ذلك نلاحظ أن هناك زيادة بين تعريف وآخر رغم تشابهها، وهو ما يمكن تمييزه والاستفادة منه.

وفضلاً عن ذلك، فقد حظيت بقية المدن العُمانية أيضاً باهتمام بعض هؤلاء الرحالة والجغرافيين، وراح جُلُّهم يصفها بنوع من الاقتضاب، دون التوسع في ذلك، في حين يقدم لنا المقدسي – دون غيره – معلومات تفصيلية، وأن كانت مختصرة عن تلك المدن، ولكنها من حيث الأهمية؛ تعد ذات أهمية كبيرة، لاسيما بعد أن أحصاها وأورد أسماءها، ومن تلك المدن مدينة نزوة التي يقول عنها: « ونزوة في حدّ الجبال كبيرة، بنيانهم طين، والجامع وسط السوق إذا غلب الوادي في الشناء دخله شربهم من أنهار وآبار «[64]. ويذكر في موضع آخر نزوة بأنها من مدن صحار، وعلى يسارها مدينة عُمانية تعرف بسلوت[65]. ويزيد الهمداني[66] إلى أن نزوه ناحية كانت للشراة[67]، وأن إمامهم ومالهم وجماعتهم كانت تقيم فيها حتى عصره.

كما يصف المقدسي[68] المدن العُمانية الأخرى بصفات نستطيع أن نحدد من خلالها مساحتها من حيث كبرها وصغرها، ومَنْ منها يتبع الآخر إدارياً، والطابع الجغرافي لها، الذي على ما يبدو أنه تميز بالتنوع الطبيعي الذي فرضته البيئة التي تفردت بها مناطق عُمان المختلفة، لاسيما الزراعي منها والحيواني

والبحري، حيث يقول في وصفه لهذه المدن: « والسّرّ أصغر من نزوة، والجامع في السوق، شربهم من أنهار وآبار قد التفّت بها النخيل. وضنك صغيرة في النخيل أبداً، بها سلطان قوي؛ لانهم شراة عصاة. وحفيت كثيرة النخيل من نحو هجر الجامع في الأسواق. وسلوت مدينة كبيرة على يسار نزوة. ودبا وجلّفار وهما من نحو هجر، قريبتان من البحر. وسمد منبر لنزوة. ولسيا، وملح، وبرنم، والقلعة، وضنكان مدن أيضا «. ومن العجيب تفرد المقدسي بذكر مثل تلك المدن، وتجنب بقية الرحالة والجغرافيين ذكرها، وهو ما يضع أمامنا بعض علامات الاستفهام حول ذلك، وقد يكون لتوسع مدارك المقدسي، وزيارته للمنطقة دور في تدوين كل ذلك، وذكر الأسماء التي أوردناها[69].

وفي الوقت نفسه، حظيت مدينة مسقط باهتمام بعض رحالة القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وجغرافيوه، لما كان لها من مكانة اقتصادية في ذلك الزمان، على الرغم من محدودية المعلومات التي ذكرها هؤلاء عنها، مثل السيرافي[70] الذي وصفها بأنها موضع يستعمله أهل البحر، وينطلقون منه كميناء – تقريباً –، وأنها آخر عُمان من الجهة الجنوبية الشرقية، ويزيد ابن الفقيه الهمداني[71] على ما ذكره السيرافي، أن مسقط تمتاز بمائها العذب، الذي يستخرج من أحد آبارها، وأن هناك جبل فيه غنم ورعاة. ويصفها المقدسي[72] بقوله: « المسقط أوّل ما يستقبل المراكب اليمنيّة، ورايته موضعاً حسناً كثير الفواكه وتوأم «. ونستشف من خلال عبارة أوردها لنا ابن حوقل[73] أن مسقط كانت من المناطق العامرة بالسكان، وما تلاها من المناطق المتجهة إلى المغرب كانت لا ساكن بها، وصولاً حتى بلاد مهرة في اليمن.

ومن المدن العُمانية أيضاً التي حظيت باهتمام بعض الرحالة والجغرافيين المسلمين في مدة الدراسة مدينة مرباط التي وصفها ابن حوقل[74] بقوله: « مدينة صغيرة على شاطئ البحر، وعلى مسيرة يوم ونصف منها مدينة ظفار «. ويذكرها الهمداني[75]، هي ومدينة حاسك[76] في أثناء حديثه عن بعض الأحداث التي شهدتها عُمان في ذلك الحين، معتقداً أنهما جزء من مهرة، فضلاً عن ذكره لبلدة دما التي تعد من أوائل بلاد عُمان على حدود اليمن، وكانت من أسواق العرب المشهورة[77].

وخلاصة القول، إن ما قدمته لنا وثائق الرحالة والجغرافيين عن المدن العُمانية سالفة الذكر خلال مدة الدراسة تعد مادة مهمة لكتابة تاريخ عُمان، ومن الصعب الحيد عنها لما فيها من معلومات، وإن كان بعضها يسير، ولكنها تفتح المجال للدارسين للتوسع فيها، إذا ما عادوا إلى ما ذكره غيرهم من الرحالة والجغرافيين في الفترات الزمنية اللاحقة، علماً بأن أهمية تلك المعلومات تبرز بشكل أكبر لتطُرّق بعضها للبنية القبلية لهذه المناطق والمدن، والجذور التاريخية لها، وهو ما سوف نتطرق له في النقطة الآتية.

◆ 3 – سكان عُمان وجذورهم التاريخية:

إن المتطلع لدراسة تاريخ عُمان قد يلاحظ بأن الجزء الأكبر من سكان تلك المساحة الجغرافية هم من القبائل التي هاجرت من المناطق القريبة منها، أو التي ارتبطت معها بعلاقات اجتماعية أو اقتصادية قوية، ومن خلال قراءتنا لما جاء في وثائق الرحالة والجغرافيين في مدة الدراسة نجد أن هناك إشارات لبعض القبائل والأقوام التي سكنت عُمان، واستقرت فيها، وأن مصدر أكثر تلك القبائل كانت بلاد اليمن التي تقع في الجزء الغربي من عُمان، وتحديداً بلاد مهرة، وعلى ما يبدو أنه كان للتداخل الجغرافي بين الأراضي العُمانية واليمنية دور في انتقال بعض القبائل اليمنية إلى عُمان وبقائها فيها، ليصبح هؤلاء هم السكان الأصليون لها، لاسيما المناطق التي نزحوا

إليها، وبقوا فيها دون أن ينافسهم عليها أحد، ومما يؤكد ذلك ما ذكره الهمداني[78] من أن سكان عُمان هم من قبائل الأزد، وهو ما ذهب إليه أيضاً عدد من الرحالة والجغرافيين المعاصرين له، أو الذين جاءوا بعده، مثل: ابن الفقيه[79]، والعزيزي[80]، ويذكر النسابة[81] أن الأزد قبائل عربية تنسب إلى: الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد مناة بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقد خرجت هذه القبيلة من مأرب بعد تصدع سدها الشهير، واختلاف أفرادها مع بقية القبائل اليمنية الأخرى، وتفرقت بطونها في أودية وسهول اليمن، وفي البلاد العربية بين مكة، ويثرب، واليمامة، والبحرين، والشام، والعراق، واستقرت هناك، ويقول الهمداني[82] في ذلك: « فصار كل فخذ منهم إلى بلد، فمنهم من نزل السَّروات، ومنهم من تخلف بمكة وما حولها، ومنهم من خرج إلى العراق، ومنهم من سار إلى الشام، ومنهم من رمى قصد عُمان، واليمامة، والبحرين «.

ومن الملاحظ، أنه كان لعُمان نصيب من تلك الهجرة التي كانت سبباً في انتشار الكثير من قبائل الأزد بين مدنها وقراها[83]، وقد عرفت تلك القبائل لدى المؤرخين من الرحالة والجغرافيين في مدة الدراسة بأزد عُمان[84]، تمييزاً لهم عن بقية فروع الأزد التي انتشرت في مختلف البلاد العربية.

ويقدم لنا الهمداني[85] معلومات مهمة عن أهم فروع الأزد التي سكنت عُمان، فيقول في ذلك: « فأما ساكن عُمان من الأزد: فيحمد، وحدَّان، ومالك، والحارث، وعتيك، وجديد «. وبنو ريام، بطن من القمر[86]، وهم من قضاعة، قدموا عُمان، فجاوروا الأزد بها، وأقاموا معهم، وصاروا من أتلاد عمان[87]، ويعلق الدكتور عبد الرحمن الشجاع[88] على هذا البطن من القمر، بقوله: « لعل القمر هؤلاء الذين كانوا يسكنون عُمان والشحر هم أنفسهم الذين تنسب إليهم جزر القمر، لأن العُمانيين والحضارم وصلوا إلى مدغشقر، والجزر المحيطة بها واستقروا بها «.

كما سكنت بلاد عُمان أيضاً قبائل أخرى تنسب إلى بني سامة بن لؤي[89]، وهي قبائل عربية قرشية عدنانية[90]، انتقلت إلى عُمان بعد أن اختلف كبيرهم سامة بن لؤي مع أخيه كعب بن لؤي، فأقام في عُمان، وتزوج منها، وبقي فيها حتى مات[91]، في حين يذكر المقدسي[92] أنه سكن في منطقة تؤام العُمانية قوم من قريش فيهم بأس وشدة.

ويورد المقدسي إشارة أخرى يبين من خلالها لنا أن هناك أقواماً أخرى سكنت بلاد عُمان إضافة إلى القبائل العربية التي قمنا بذكرها، ومن هؤلاء جماعات من الفرس الذين انتشروا في مناطق من عُمان، واستقروا فيها، مع احتفاظهم بلغتهم الفارسية، على الرغم من وجودهم في الأراضي العُمانية، وقال المقدسي[93] في ذلك: « وبعُمان داوديّة[94]، لهم مجلس أهل هذا الإقليم، لغتهم العربيّة الّا بصحار، فإنّ نداهم وكلامهم بالفارسيّة «.

وعلى أية حال، فقد انتشرت تلك القبائل في مناطق عُمان ومدنها المختلفة[95]، فسكن بنو جديد في منطقة ريسوت[96] بين عُمان وعدن[97]، وأقام بنو يحمد منازلهم بجبال اليحمد القريبة من الشحر[98]، وسكن بنو ريام في موضعٍ يقال له رضاع، وكان لهم في عُمان حصن عظيم لا يرام[99]، وسكنت قبائل بني لؤي بن سامة منطقة صحار، وكانوا من كبرائها[100]، واستقرت جماعات من الفرس في مناطق متفرقة من عُمان، وفي صحار[101].

لقد كان لبعض الأحداث التي شهدتها عُمان نصيب في مؤلفات المؤرخين من الرحالة والجغرافيين، على الرغم من محدودية تلك المعلومات، وهامشيتها، إلا أنها تعد مهمة لأي قارئ في تاريخ عُمان، علماً بأن

ما ذكره هؤلاء الرحالة والجغرافيون عن هذه الأحداث جاء في سياق حديثهم عن القبائل العُمانية، وما كان دائر بينها من صراعات مذهبية، أو صراع لأجل النفوذ، بهدف توسع كل قبيلة على حساب أراضي القبيلة الأخرى، وقد تجنب جميع الرحالة والجغرافيين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي الخوض في هذا الجانب، والتوسع فيه، نتيجة لاهتماماتهم الأخرى، التي كرّسها أكثرهم لتدوين مشاهداتهم عن المناطق والبلدان التي دخلوها أو سمعوا عنها.

ويعد الهمداني[102] من بين أهم المؤرخين الجغرافيين الذين أشاروا إلى بعض تلك الأحداث التي حصلت في أول عصره – وإن كانت إشارات جانبية – وذلك في أثناء حديثه عن الأزد من بني جديد الذين سكنوا منطقة ريسوت، وصراعهم مع قوم من القمر من بني خنزريت، وما نتج عن ذلك الصراع من قتل وتشريد لبني جديد، أودى بحياة بعض زعاماتهم، مثل: عمرو بن يوسف الجديدي الأزدي، وتشريدهم في بلاد مهرة، ومناطق أخرى حدودية بين عُمان واليمن، مثل: حاسك ومرباط، وموقف مهرة من ذلك الصراع، ووقوفهم إلى جانب بني جديد، ومساندتهم لهم، ليستعيدوا أرضهم وأملاكهم، بعد أن هرب منها بنو خنزريت، الذين تفرقوا في مناطق مختلفة من عُمان، مثل منطقة رضاع التي هرب إليها رئيسهم محمد بن خالد، وجماعة منهم، وإقامتهم فيها إلى جانب سكانها من بني ريام الذين يعود نسبهم إلى القمر، ومجاورتهم لهم، في حين يذكر الهمداني[103] أن بني جديد من الأزد نزلوا منطقة ريسوت، وترأسوا على سكانها القدامى من البياسر[104]، ثم جاوروا عدداً من أحياء العرب الذين نزلوا إلى جانبهم، فضلاً عن مهرة، وقد نتج عن ذلك الجوار، زيادة الروابط الأسرية بين جديد ومهرة، لكثرة المصاهرة التي وثقت بينهم الأواصر الأسرية، وقد نتج عن تلك الروابط ظهور زعامات جديدة ترأست فيهم، مثل شخص عرف بموسى بن ربيع من العدس[105].

ويصف لنا الأصطخري[106] في أثناء حديثه عن صحار الأوضاع التي كانت تعيشها المنطقة وقبائلها، مشيراً إلى أن الغالب عليها الشراة من أهل عُمان، وأنه كانت هناك حروب دائرة بينهم، وبين جماعات من بني سامة بن لؤي، زعماء تلك النواحي، مما دفع بأحد رجالهم ويعرف بمحمد بن القاسم السامي إلى الخروج إلى العراق، للاستنجاد بالخليفة المعتضد[107] الذي بعث معه بقائد عرف بابن ثور، تمكن من دخول عُمان باسم المعتضد، وأقام بها الخطبة له، مما دفع بالكثير من الشراة إلى النزوح إلى بعض المناطق التي كانت خاضعة لهم ولأنصارهم، مثل منطقة نزوة، وظلوا فيها بعد أن أقاموا لهم إمام هناك، ويؤكد الأصطخري[108] أنهم ما زالوا فيها هم وإمامهم ومالهم وما عليهم وجمعاتهم حتى عصره.

لقد كان لما مَدَّتنا به وثائق الرحالة والجغرافيين المسلمين أهمية كبيرة، تمكنا من خلالها التعرف على جوانب من الحياة الاجتماعية لسكان بلاد عُمان من القبائل العربية وغيرها، وأماكن إقامتهم، وجذورها التاريخية، فضلاً عن الوضع العام لحياة هذه القبائل، والعلاقات التي ربطتها ببعضها، مما يعطي لنا صورة، ولو بسيطة عن وضع عُمان خلال مدة الدراسة.

◄الوضع الاقتصادي لعُمان عند الرحالة والجغرافيين:

مما لا شك فيه، أنه كان للتنوع الكبير في الأخبار التي قدمتها مؤلفات الرحالة والجغرافيين دور عظيم في زيادة أهميتها العلمية بالنسبة لجميع الباحثين، لما احتوته من معلومات مهمة ومتنوعة، شملت جوانب من حياة الناس العامة، على الرغم من اختلاف حجم تلك المعلومات من جانب إلى آخر، وهو ما حاولنا توضيحه من خلال قراءتنا في المباحث السابقة، إلا

أن أهمية تلك الوثائق والمؤلفات تبرز بشكل أكبر من خلال ما قدمته لنا عن بعض جوانب حياة الناس الاقتصادية، لاسيما التجارية والزراعية، التي كانت تُعد من أكثر الأعمال والأنشطة التي زاولها أهالي بلاد عُمان خلال مدة الدراسة، وكانت سبباً في علو صيت المنطقة وأهلها في ذلك الحين، علماً بأن ارتفاع ذلك الصيت لأهل عُمان جاء نتيجة للسمعة الطيبة التي تميزوا بها، والخبرات العملية المختلفة التي اشتهروا من خلالها، بعدما ارتبطوا بالعالم الخارجي تجارياً، وتعطي لنا مؤلفات الرحالة والجغرافيين الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي معلومات مهمة في هذا الجانب، كدليل على ما وصل إليه العُمانيون في الجوانب الاقتصادية المختلفة، التجارية والزراعية والصناعية.

وكيفما كان الأمر، فقد اظهرت المعلومات الاقتصادية التي وصلتنا عبر وثائق الرحالة والجغرافيين المسلمين أن اقتصاد بلاد عُمان الداخلي خلال مدة الدراسة قام على ثلاثة مفاصل رئيسة، هي: التجارة والزراعة والصناعة، مع تركيز هذه الوثائق على التجارة، والعلاقات التجارية التي ربطت عُمان بالعالم الخارجي، وتأثير ذلك الأمر على المنطقة، وبروز موقعها تجارياً بعد اشتهار موانئها الواقعة على بحر عُمان وبحر العرب، في حين يقدم لنا هؤلاء الرحالة والجغرافيون معلومات قيمة؛ وأن كانت مختصرة عن الزراعة في بلاد عُمان، وأهم المحاصيل الزراعية التي اشتهر بزراعتها أهالي بلاد عُمان، وأهم المناطق الزراعية هناك.

◆ 1 – تجارة عُمان عند الرحالة والجغرافيين:

نلاحظ من خلال قراءتنا لما جاء في المؤلفات التاريخية، وكتب الرحلات والجغرافيا أن بلاد عُمان اكتسبت سمعه تجارية متميزة عبر التاريخ عامة، وخلال مدة الدراسة خاصة؛ ومما يؤكد ذلك ما أشار إليه كل من دَوَّن لهذا القطر العربي من الرحالة والجغرافيين وغيرهم، بحكم موقعه المهم على ساحل بحر العرب، فيذكر المقدسي[109]، بلاد عُمان ضمن أبرز المناطق والمدن التجارية العربية في ذلك الحين، وينصح لمن أراد الرزق والتجارة بها، بقوله: « ومن أراد التجارة فعليه بعدن، أو عُمان، أو مصر «. في حين يقدم لنا صاحب كتاب: (حدود العالم)[110] وصفاً دقيقاً وجميلاً لعُمان، وتُجَّارها، وتجارتها، وما نعمت به من ثراء بسبب علاقاتها التجارية، موضحاً ما كسبته من شهرة تجارية عالمية، وسمعة بلغت بها الآفاق في المشرق والمغرب والجنوب والشمال، فقال في ذلك: « عُمان مدينة عظيمة على ساحل البحر، بها تجار كثيرون، وهي فرضة جميع العالم، ولا توجد في العالم مدينة لتُجَّارها من الثراء ما لتُجَّار عُمان، تقع إليها تجارات المشرق والمغرب والجنوب والشمال، حيث تحمل من هناك إلى الآفاق «.

وفي الوقت نفسه، فصّل بعض الرحالة والجغرافيين في وصف تجارة عُمان، من خلال الحديث عن بعض مدنها الساحلية التي اشتهرت بموانئها التجارية، وأسواقها، مثل مدينة صحار التي مُيزت بموقعها التجاري على شاطئ بحر عُمان والخليج العربي (بحر فارس كما يسميه بعضهم)، وبكثرة متاجرها، وتُجَّارها، لما كان يصلها من سفن تجارية، حتى أن ذلك كان سبباً في أن تصبح هذه المدينة من أعمر مدن المنطقة، وأكثرها ثروة، ويصف الأصطخري[111] ما وصلت إليه من ثراء وتجارة بقوله: « وبها متاجر البحر، وقصد المراكب، وهي أعمر مدينة بعُمان، وأكثرها مالاً، ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر فارس بجميع بلاد الاسلام مدينة أكثر عمارة ومالاً من صحار «. ويقول عنها ابن حوقل[112]: « وبها من التجّار والتجارة ما لا يحصى كثرة «. ويزيد المقدسي[113] في وصفه لموقع مدينة صحار،

وتجارتها، وتجارها، وأسواقها، وأهميتها التجارية بالنسبة لدول العالم والمنطقة بقوله: « ليس على بحر الصين اليوم بلد أجلّ منه، عامر، آهل، حسن، طيّب، نزه، ذو يسار، وتجار، وفواكه، وخيرات أسرى من زبيد وصنعاء، أسواق عجيبة، وبلدة ظريفة ممتدّة على البحر، دورهم من الآجرّ والساج، شاهقة، نفيسة، والجامع على البحر له منارة حسنة طويلة في آخر الأسواق، ولهم آبار عذيبيّة، وقناة حلوة، وهم في سعة من كلّ شيء، دهليز الصين، وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن ".

كما تميزت مدينة مسقط مثلما يذكر السيرافي[114] بمينائها التجاري في ذلك الحين، وبالموقع المتميز لذلك الميناء الذي أصبح في المدة موضوع الدراسة منطقة انطلاق للسفن التجارية المتجهة إلى المشرق والمغرب، وموقع تتزود به السفن المسافرة عبر الخليج العربي والمحيط الهندي، ويذكر السيرافي[115] وابن الفقيه[116] أن السفن كانت ترسو في مسقط، حيث تتزود بالمياه العذبة، ثم تقلع هذه السفن إلى بلاد الهند، وتمر في طريقها إلى كوكم ملي (الساحل الغربي لبلاد الهند)، وتقطع السفن تلك المسافة في مدة شهر، على اعتدال الرياح، ويذكر المقدسي[117] عن مسقط أنها: « أوّل ما يستقبل المراكب اليمنيّة، ورأيته موضعاً حسناً «.

لقد ارتبطت عُمان عبر تاريخها الطويل بعلاقات تجارية متميزة مع الكثير من الدول التي عرفت بثقلها التجاري في ذلك الحين، مثل الهند، والسند، والصين، وبلاد فارس، وشرق أفريقيا (بلاد الزنج) وغيرها، ويمدنا بعض الرحالة والجغرافيين في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بصورة واضحة وجميلة لنوع تلك العلاقة، وما نتج عنها من تواصل وانتعاش تجاري، رفع من نسبة الاقتصاد العُماني، وزاد من شأنه، فالعزيزي[118] يصف ذلك بقوله: « وعُمان مدينة جليلة بها مرسى السفن من السند والهند والصين والزنج «. كما يُذكر أن أكثر السّفن الصينية تحمل من سيراف[119] في بلاد فارس بأنواع السلع التجارية، التي كانت تصلها من البصرة وعُمان وغيرها، وهناك يتم شحن سفن صينيّة أكبر منها ببضائع البصرة وعُمان إلى الصين وغيرها[120]، ويكشف لنا صاحب كتاب: (حدود العالم)[121] العلاقة التي ربطت العُمانيين بالشرق الأفريقي، بقوله: « القول في بلاد الحبشة ومدنها: شرقيها بعض بلاد الزنج؛ وجنوبيها وغربيها مفازة؛ وشماليها بحر، وبعض خليج البربر، بلاد يمتاز أهلها باعتدال الوجوه، وهم سود مسالمون ذوو همم قعس، مطيعون لملكهم، يأتي إليها التجار من عُمان والحجاز والبحرين «.

وكيفما كان الأمر، فقد اشتهرت عُمان بأنها كانت منطقة شحن عالمية، ترد إليها السفن لحمل أنواع البضائع، بعد أن تقوم بإنزال ما تحمله من سلع بلاد العالم المختلفة، ثم تحمل تلك السفن الكثير من الخيرات التي كانت تكتنزها موانئ عُمان، ويصف السيرافي[122] ذلك بقوله: « فذكروا أن أكثر السّفن الصينية تحمل من سيراف، وأن المتاع يحمل من البصرة وعُمان وغيرها إلى سيراف، فيعبّا في السفن الصينيّة بسيراف «. ويذكر ابن الفقيه[123] نقلاً عن سليمان التاجر أن أكثر السفن الصينية تحمل من البصرة وعُمان، في حين شكّل وصول مثل تلك السفن التجارية إلى الموانئ العُمانية مصدر دخل عظيم بالنسبة للعُمانيين، ومورد رئيس للبلاد، لما كانت تجنيه موانئ عُمان من أموال وضرائب على السفن والبضائع التي يتم تفريغها في هذه الموانئ، ويذكر لنا الرحالة بزرك[124] أن أحد التجار وصل عُمان في سنة 317هـ/ 929م، قادماً من سرنديب (جزيرة سيلان)، وبلغت عشور مركبه ستمائة ألف دينار.

وقد تنوعت البضائع والسلع التي كانت تفرغها السفن التجارية في الموانئ العُمانية، وتوزعت بين أدوية، وعطور، ومعادن بأنواعها، وأخشاب، وبهارات

أطعمة وغير ذلك، ويقدم لنا المقدسي[125] وصف لما كان يصل عُمان من تلك البضائع والسلع قائلاً: « فإلى عُمان يخرج آلات الصيادلة، والعطر كلّه حتّى المسك، والزعفران، والبقّم، والسلج، والساسم، والعاج، واللؤلؤ، والديباج، والجزع، واليواقيت، والأبنوس، والنارجيل، والقند، والإسكندروس، والصبر، والحديد، والرصاص، والخيزران، والغضار والصندل، والبلّور، والفلفل وغير ذلك "، و يذكر لنا السيرافي[126] أن المراكب الهندية كانت تشحن بالنارجيل إلى عُمان، وهناك يتم تفريغه وبيعه، ويضيف الرحالة بزرك[127] في أثناء وصفه لحركة التجارة بين عُمان والهند أن السفن التجارية كانت تتنقل بين عُمان والهند محمَّلة بأموالٍ طائلةٍ، وثروات لا تحصى من المسك، والعود الهندي المعروف بجودته، ورائحته الطيبة، الذي كان يصل بكميات كبيرة إلى ميناء صحار، ليشتريه التجار هناك رغم ارتفاع سعره، ثم يتم إعادة تصديره إلى بلاد أخرى من العالم، مستفيدين من وراء ذلك الأموال الطائلة، كما يقول السيرافي[128] عن علاقات عُمان بجزر الشرق الأقصى، وما اشتهرت به من خيرات، إن في جزيرة كلة (جزيرة في شبه جزر الملايو) مجمع الأمتعة من: الأعواد، والكافور، والصندل، والعاج، والرصاص القلعي، والأبنوس، والبقم، والأفاوية وغيرها، وتنقل هذه السلع من هذه الجزيرة إلى عُمان، فضلاً عن المراكب التي تجهز بصنوف السلع العربية في طريقها إلى الهند، في حين يؤكد ابن خرداذبة[129] أن التجار كانوا يقصدون بلاد عُمان في أثناء طريقهم إلى الأبلة في جنوب العراق إلى الهند والسند والصين، وكانوا يجلبون معهم من بلدان الشرق الأقصى أنواع البضائع، مثل: المسك والعود والكافور وغيره، ثم يعودون في طريقهم إلى بلاد الروم (أوروبا) عبر البحر الأحمر وخليج القلزم (البحر الأحمر) ومصر.

وتذكر بعض وثائق الرحالة والجغرافيين أن الطرق البحرية التي ربطت عُمان بغيرها كانت في نشاط تجاري مستمر، وحركة بحرية دائمة طوال أيام السنة[130]، مما يؤكد لنا مدى حالة الانتعاش التجاري التي وصلت إليه بلاد عُمان خلال مدة الدراسة، بما يجعلها من بين الأقاليم التي اشتهرت بتميزها التجاري، وعلاقاتها الواسعة مع مراكز الثقل التجاري في العصر الإسلامي، على الرغم من الأخطار التي كانت تهدد بِحارها، والسفن التي كانت تسافر عبرها، مثلما يشير إلى ذلك السيرافي[131] الذي يبين لنا مدى هول أمواج البحر التي تمر بها السفن المتجهة من عُمان إلى غيرها من المراكز التجارية العالمية والعكس، فضلاً عن قلة مياه البحر في مواضع أخرى[132]، مما قد يعرض تلك السفن إلى الارتطام بقاع البحر في حالة عدم معرفة بحّارتها لطبيعة ذلك البحر، وغرقها بسبب اصطدامها ببعض الصخور المرجانية، والجبال الخطيرة، لدرجة بلغت بالسيرافي[133] إلى أن يحدد لنا الطرق التي لابد أن تسلكها السفن الصغيرة، والطرق التي لابد أن تسلكها السفن الكبير في السواحل العُمانية، فضلاً عن خطر لصوص البحر من القراصنة واللصوص الذين كانت سفنهم تجوب الخليج العربي[134]، والمحيط الهندي للتربص بالسفن المسافرة عبره إلى عُمان وغيرها، ويذكر الرحالة بزرك[135] على لسان أحد الربابنة ويعرف بـ: (إسمعيلويه الناخذاة) أنه قد اجتمع له في كرَّة واحدة وهو في طريقه من كلة إلى عُمان سنة 317هـ/ 929م سبعون بارجةً من بوارج القراصنة، وهو ما لم يحدث لأحد قبله، فحاربها مدة ثلاثة أيام متوالية، وتمكن من إحراق عدد منها، وقتل جماعة من القراصنة، وبعد هذه المعركة عاد هذا الناخوذة إلى مواصلة الطريق إلى بحر العرب (عُمان)، ووصله سالماً بمن معه من بحارة وتجار ومسافرين، وأموالٍ وبضائعَ، دون أن يمسَّها مكروه.

وعلى أية حال، فإن المطلع لما جاء في وثائق الرحالة والجغرافيين المسلمين في القرن الرابع الهجري/

العاشر الميلادي، يلاحظ أن هناك عدداً من الأسباب التي جعلت من عُمان منطقة تجارية متميزة، والعُمانيون من أبرز رجال المال والأعمال، والتجارة والبحر في ذلك الحين، ويمكن حصر تلك الأسباب في الآتي:

أ – موقع بلاد عُمان الاستراتيجي الذي جعل منها واحدة من أهم المنافذ التجارية البحرية، والأقاليم الاقتصادية المؤدية إلى الجزيرة العربية والخليج العربي – وهو ما اشرنا له سابقاً عند حديثنا عن أهمية موقع عُمان –، فضلاً عن موقعها على خطوط التجارة البحرية العالمية التي تفرض على جميع السفن ضرورة المرور بموانئها، للتموين، والراحة، وإصلاح ما خرّبه البحر والسفر، وهو ما جعل من موانئ عُمان محطة تجارية لابد من المرور بها.

ب – قدرة أهل بلاد عُمان في التعامل مع البحر، وخبرتهم المتنوعة في ركوبه، ومعرفتهم لأماكن الثروة فيه، وهو ما يؤكده السيرافي[136] بقوله: « وأخبرني غير واحد من نواخذة السيرافيين والعُمانيين بعُمان وسيراف، وغيرها من التجار ممن كان يختلف إلى هذه الجزائر، أن العنبر ينبت في قعر هذا البحر، ويتكوَّن كتكون أنواع الفطر من الأبيض والأسود والكماة والمغاريد ونحوها، فإذا خبث البحر، واشتد قذف من قعره الصخور والأحجار، وقطع العنب «.

ج – اشتهار بلاد عُمان وبِحارها عبر التاريخ باحتوائها على العديد من الكنوز النادرة التي من الصعب أن نجدها في بلاد أخرى غيرها، مثل، اللؤلؤ الذي كان ينتشر في بحارها، ويستخرج من قبل العُمانيين ليباع بأرفع الأثمان على من يرد إليها من التجار، أو أغنياء عُمان وغيرهم[137]، وتوافر شجرة الكندر (اللبان)[138]، والعنبر[139] وغير ذلك من السلع التي من الصعب الحصول عليها في الكثير من البلاد التي يتجه تجارها إلى عُمان للحصول عليها بعد أن ذاع صيتها بمثل هذه السلع النادرة في ذلك الزمن.

د – معرفة أهل عُمان لمواسم تغير الرياح في البحار، وأوقات هبوبها، والعواصف التي قد تأثر على السفن من عُمان وإليها، وقدراتهم على اختيار المراكب التي يتحركون بها عبر البحر، بحسب قوة حركة هذه الرياح أو هدوئها، ومما يؤكد ذلك ما ذكره لنا السيرافي[140] عن نوع السفن التي كان يستخدمها أهل عُمان، ومتى يتم ركوب البحر بها إلى الهند وغيرها، فيقول في ذلك: « وليس يكاد يقطع من عُمان بحر الهند في تير ماه، إلا مركب مغرر حمولته يسيرة، وتسمى هذه المراكب بعُمان اذا قطعت إلى أرض الهند في هذا الوقت التير ماهية، وذلك أن بلاد الهند، وبحر الهند يكون في اليسارة، وهو الشتاء، ودوام المطر في كانون، وكانون وشباط عندنا صيف وعندهم شتاء، كما يكون عندنا الحر في حزيران وتموز وآب فشتاؤنا صيفهم، وصيفهم شتاؤنا، وكذلك سائر مدن الهند والسند وما اتصل بذلك إلى أقاصي هذا البحر «.

هـ – كثرة عدد التجار العُمانيين من رجال المال والأعمال في المدة موضوع الدراسة، وإزياد شهرتهم في مختلف بقاع الأرض، وتنامي ثروتهم، بعد استثمارها مع مراكز الثقل التجاري المعروفة في ذلك الحين، ليصبحوا من أثرى أثرياء المنطقة والعالم، مثلما يذكر لنا صاحب كتاب: (حدود العالم)[141]، عند حديثه عن عُمان الذي يقول عنها: « بها تجار كثيرون، وهي فرضة جميع العالم، ولا توجد في العالم مدينة لتجارها من الثراء ما لتجار عُمان «. ويصف لنا الرحالة برزك[142]، حال أحد تجار عُمان، الذين كانوا يستثمرون أموالهم في الصين، وما أخذ منه من ضرائب وصلت إلى خمسمائة ألف دينار على ما جاء به من أمتعة إلى عُمان، لدرجة بلغت بالخليفة المقتدر[143] إلى أن يرسل في طلبه إلى بغداد، ليستفيد

من ثروته أمام تمنع أحد حاكم عُمان والمعروف بأحمد بن هلال، خوفاً من عزوف التجار عن بلاده.

و – شهرة بلاد عُمان والبلاد المجاورة لها بصناعة المراكب التجارية، التي أسهمت في تسهيل وتوفير وسائل النقل البحري في المنطقة، وساعدت على تواصل عُمان وأهلها بغيرهم من بلدان العالم، فقال المقدسي[144] في ذلك: « وأن أكثر صنّاع المراكب وملّاحيها فرس، وهو من عُمان «.

ر – خبرة العُمانيين في معرفة الطرق البحرية والتجارية التي ربطتهم بالعالم الخارجي، والمناطق المجاورة لعُمان براً وبحراً، وقدرتهم على قياس المسافات، وتحديدها، وتؤكد لنا قياسات المسافات التي ورد ذكرها في كثير من الوثائق الجغرافية أن الرحالة والجغرافيين المسلمين قد استقوا معلوماتهم هذه من سكان تلك المناطق الذين كانوا ينزلون بها، فكانوا أكثر دراية ومعرفة بمسالكها، ومسافات تلك المسالك، لاسيما البحارة والنواخذ، ممن سافروا وغامروا في البحار، واستطاعوا أن يكونوا فكرة عن المسافات التي يستطيع أن يقطعها الفرد في حالة أراد السفر إلى أي من بلاد العالم براً أو بحراً، فضلاً عن خبرتهم في معرفة الطرق الآمنة من الطرق الخطيرة، وقد اتجه كل من هؤلاء إلى اختيار المقياس المناسب في تحديد المسافات، فمنهم من حددها بالأيام أو الأشهر، ومنهم من حددها بالمرحلة[145]، أو الفرسخ[146]، أو الميل[147]، وهو ما أشار إليه بعض الرحالة والجغرافيين في مؤلفاتهم سالفة الذكر، ومن تلك المسافات التي ورد ذكرها: المسافة بين مسقط وسيراف الذي يحددها السيرافي[148] بنحو مائتي فرسخ، والمسافة من مسقط إلى كولم في الهند تقدر بشهر على اعتدال الرياح، ويذكر الهمداني[149] المسافة من عُمان إلى عدن بقوله: « فمن أراد عدن فطريقه عليها فإن أراد أن يدخل دخل وإن أراد جاز الطريق ولم يلو عليها، وبين الطريق الذي يفرق إليها والطريق المسلوك إلى عُمان مقدار ميل «. ويحدد الأصطخري[150] المسافة بين البحرين وعُمان، وعُمان ومهرة بقوله: « ومن البحرين الى عُمان نحو من شهر، ومن عُمان إلى أرض مهرة نحو من شهر «، وهو ما أشار إليه الكثير من الرحالة والجغرافيين في مدة الدراسة[151].

خلاصة القول، إن ما مدَّتنا به المؤلفات التاريخية للرحالة والجغرافيين في المدة موضوع الدراسة هي تأكيد لما وصلت إليه بلاد عُمان من تطور وازدهار في الجانب التجاري، بلغ حد العالمية، وهي المرحلة التي كانت تعيشها مراكز الثقل التجاري العالمي آنذاك، مثل: الهند والصين وغيرها، علماً بأن ما تم توثيقه في هذه المصادر يعد مادة مهمة يمكن الاستفادة منها في إعادة صياغة وتدوين التاريخ العُماني، لما جاء فيها من معلومات اقتصادية من الصعب تركها أو غض الطرف عنها، لمن أراد الكتابة عن تاريخ عُمان، وهو ما لاحظناه أيضاً من خلال دراستنا للجانب الآخر من الثروة الاقتصادية لعُمان في ذلك الحين، ألا وهي الثروة الزراعية التي اشتهرت بها بلاد عُمان كمصدر ثاني من مصادر ثروتها.

◆ 1 – ثروة عُمان الزراعية وأسواقها عند الرحالة والجغرافيين:

تُعَدُّ الثروة الزراعية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي – وما قبله – الوجه الآخر للاقتصاد العُماني في المدة موضوع الدراسة، حتى أن القارئ في وثائق الرحالة والجغرافيين المسلمين يستطيع أن يستشف أن كثيراً من العُمانيين سَخَّروا جهدهم ووقتهم للعمل الزراعي، كمصدر مهم من مصادر دخلهم اليومي، كما سخر غيرهم وقته للعمل في التجارة مثلما أوضحنا سابقاً، وعلى ما يبدو أن طبيعة بلاد عُمان الصحراوية الحارة ألزمت العُمانيين بزراعة محاصيل معينة، فرضتها عليهم أجواء المنطقة، ونتيجة لأهمية تأثير الأجواء الطبيعية في عُمان على

الناس والزراعة؛ ركز بعض الرحالة والجغرافيين عليها، وراح بعضهم يصفها، مثلما ذكر ابن الفقيه[152] الذي وصف أجواء عُمان، بقوله: « حرّها شديد «، وابن حوقل[153] الذي قال عنها: « وعُمان بلاد حارّة جروميّة ".

ومما لا يدع مجالاً للشك، أن الارتفاع الشديد في حرارة أجواء عُمان كان سبباً في معاناة كثير من أهلها، بعد أن تسبب ذلك في تكدر الجو، وسخونة الماء، وانتشار أنواع الحشرات الضارة على الإنسان والزرع، وهذا ما يؤكده ابن الفقيه قائلاً[154]: « علمت أن البرد أصلح من الحرّ، لأنك إذا أضفت البرد، وهو الجبال إلى ما يقاسيه أهل عُمان، وأهل البصرة، وسيراف، وبغداد من أذى السمائم، من الهواء الكدر الغليظ، والماء السخن الزعاق، وكثرة الذباب، والجعلان، والخنافس، والحيات، والعقارب، والجرّارات، والنمل، والبعوض، والبق، والجرجس وغير ذلك مما يطول ذكره ".

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد اشتهرت بلاد عُمان بزراعة أنواع مختلفة من الخضار والفواكه التي بلغ من تنوعها إلى أن يذكرها الرحالة والجغرافيون الذين كتبوا عن عُمان وغيرها من البلاد الإسلامية في ذلك الحين، وقد قدمت لنا وثائق هؤلاء تفاصيل متنوعة عن تلك المحاصيل، لدرجة بلغت ببعضهم مثل المقدسي[155] إلى أن يحدد حتى نسب الزراعة في بعض المناطق والمدن العُمانية، من حيث الكثرة أو القلة، في حين راح غيره إلى التفصيل فيما زرعه العُمانيون في بساتينهم التي انتشرت في الكثير من المدن والقرى والبوادي العُمانية، أما الأصطخري[156] فيقول عن عُمان وما اشتهرت به من محاصيل زراعية: « وعُمان مستقلّة بأهلها، وهى كثيرة النخيل، والفواكه الجروميّة من الموز، والرمّان، والنبق ونحو ذلك «. وهو ما أكده ابن حوقل[157] عند حديثه عن عُمان وما تميزت به زراعياً: « وعُمان ناحية، ذات أقاليم مستقلّة بأهلها، فسحة، كثيرة النخل، والفواكه الجروميّة من الموز، والرمّان، والنبق ونحو ذلك «. ويقول المقدسي[158] أيضاً عن زراعة عُمان: « وعُمان كورة جليلة، تكون ثمانين فرسخاً في مثلها، كلّها نخيل وبساتين عامّة «. ودفعت شهرة عُمان بزراعة أشجار النخيل إلى أن يعدها الهمداني[159] ضمن بلاد النخيل الشهيرة بأجود أنواع التمور في العالم الإسلامي في المدة موضوع الدراسة، ويقول على لسان والده في ذلك: « قد دخلت الكوفة، وبغداد، والبصرة، وعُمان، ومصر، ومكة وأكثر بلاد النخل «. وقد بلغ من شهرة عُمان بزراعة النخيل إلى تنوع تمورها التي ركز عليها بعض الرحالة والجغرافيين لجودتها، ولذة مذاقها وطعمها – على ما يبدو –، ويعدد لنا ابن الفقيه[160] أنواع التمور العُمانية بقوله: « أجود تمر عُمان: الفرض، والبلعق، والخبوت "، ويزيد المقدسي[161] نوع آخر هو من أجود تمور عُمان ويعرف با مصين.

وفي الوقت نفسه، يفصل المقدسي[162] أيضاً عند تعريفه لبعض المدن العُمانية الشهيرة بما تفردت به بساتينها من زراعات متنوعه، مثل مدينة صحار التي يقول أنها اشتهرت بفواكهها، ونخيلها، ومدينة السَرَ التي اشتهرت أيضاً بمزارع النخيل التي كانت تحيط بها، ومدينة ضنك التي رغم صغرها؛ إلا أن أهلها زرعوا النخيل، واعتمدوا عليه في معيشتهم، لمحدودية تلك المزارع فيها، ومدينة حفيت التي وصفت بكثرة أشجار النخيل في أراضيها، ومدينة مسقط التي عُرفت بكثرة فواكهها.

وتوضح لنا وثائق بعض هؤلاء الرحالة والجغرافيين العوامل التي كانت وراء تَمَكُّن العُمانيين من زراعة أنواع المحاصيل التي ذكرناها سابقاً، على الرغم من الصعوبات التي واجهتهم؛ بسبب: طبيعة عُمان الصحراوية، وحرارة الجو، وكثرة الحشرات التي قد تؤدي إلى إتلاف الزرع وتخريبه، ومن تلك العوامل

التي أسهمت في التطور الزراعي في بلاد عُمان: توافر المياه الجوفية، وحفر الآبار التي كانت سبباً في إحياء تلك الأراضي وريها، وتمكنهم من استخراجها من قاع الأرض، في الكثير من المدن العُمانية، مثل مسقط التي اشتهرت بعذوبة مياه آبارها الجوفية[163]، وقد استخدم أهل عُمان بعض البهائم في استخراج تلك المياه وجرها ونقلها، مثل الأبقار، وقال المقدسي عنها، عند وصفه لطبيعة عُمان الزراعية أن[164]: « كلّها نخيل وبساتين عامّة، سقياهم من آبار قريبة، ينزعها البقر أكثرها في الجبال ".

كما تُبين لنا بعض تلك الوثائق أن العُمانيين اكتسبوا ثروة حيوانية متنوعة، استفادوا منها – على ما يبدو – في مواصلاتهم، وحمل أثقالهم، واستخراج مائهم من قاع الأرض، ونقله على ظهورها، كما استفادوا على ما يظهر من لحمها، ولبنها، وجلودها، وقد شكلت الأغنام[165]، والأبقار[166] أبرز تلك الثروة التي أوردتها لنا مؤلفات بعض الرحالة والجغرافيين، في حين اشتهرت عُمان بحكم وقوعها على شريط ساحلي طويل بثروتها البحرية الغنية، فَعُدّ صيد سمك البحر واحد من أبرز مصادر الدخل اليومي للكثير من أهل عُمان، الذين استقروا في المناطق الساحلية، وهو ما يؤكده لنا ابن الفقيه[167] عند حديثه عن امتداد الثروة السمكية لعُمان، وأكثر مناطق انتشار الأسماك في السواحل العُمانية، قائلاً: « ... ريف الدنيا من السمك ما بين ماهيرويان إلى عُمان ".

لقد عُرفت بلاد عُمان بأسواقها الشهيرة التي انتشرت في بعض مدنها الرئيسة، مثل: صحار، ومسقط، ونزوة، والسَرَ، وحفيت وغيرها[168]، وبيعت في هذه الأسواق أنواع البضائع المحلية والمستوردة التي أوردنا ذكرها سابقاً، وقد استعمل العُمانيون الدينار، في معاملاتهم المالية في هذه الأسواق، وهو عبارة عن ثلاثين درهم، وأطلق على هذه الدراهم في مكة اسم المحمدية، وقد خضعت هذه الأسواق للضرائب التي كانت تأخذها الدولة، علماً بأن عُمان كانت في ضرائبها عشرية، ويورد بعض الرحالة والجغرافيين أن عُمان كغيرها من أقاليم الجزيرة العربية خضعت للعشر في كل شيء، فكان يؤخذ من كل نخلة درهم.

وخلاصة القول، أن ما قدمه لنا الرحالة والجغرافيون من معلومات يسيرة عن التجارة والزراعة والبحر والأسواق في عُمان خلال القرن الرابع الهجري/ العشر الميلادي وما قبله، شكل مادة مهمة لا يستهان بها، لاسيما وأنها كشفت لنا الغموض الذي اكتنف كثيراً من جوانب حياة الشعب العُماني، وما وصل إليه من تطور ورقي في هذا المضمار الذي كان سبباً في تواصله التجاري والحضاري مع غيره من الشعوب، ومن ثم تأثره وتأثيره في هذه الشعوب، والذي كان سبباً فيما وصل إليه العُمانيون من تطور وازدهار.

◄ الخلاصة:

لقد توصلنا في بحثنا هذا الموسوم بـ: « الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد عُمان عند الرحالة والجغرافيين المسلمين خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي « إلى عدد من النتائج والاستنتاجات التي يمكن حصرها في الآتي:

1 – أن القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي شهد وجود – على ما يبدو – أكبر عدد ممكن من المؤرخين، الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين سخروا مؤلفاتهم للتعريف بالبلاد الإسلامية وجغرافيتها، وسكانها، ومساحتها، واقتصادها، ومصادر تميزها، وعلاقاتها الداخلية والخارجية بغيرها من الشعوب، وأثر تلك العلاقات على التطور والرقي الذي شهدته المنطقة.

2 – أن بلاد عُمان كانت من أبرز بلدان المنطقة الإسلامية التي حظيت بعناية واهتمام

المؤرخين من الرحالة والجغرافيين، الذين أولوها اهتمام خاص في مؤلفاتهم، نتيجة لما تميزت به هذه المنطقة عن غيرها في الكثير من الأمور الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

3 – أن أهمية وثائق ومؤلفات البلدانيين من الرحالة والجغرافيين تتجلى في كون بعض مؤلفيها زار الأراضي العُمانية، ودَوَّن مشاهداته، وملاحظاته أثناء هذه الزيارة، ومن ثم يُعد مؤلفه هذا شاهد حي على تاريخ عُمان، لاسيما وأن كاتبه عاش المرحلة، وعاصر أحداثها.

4 – أن وثائق الرحالة والجغرافيين تُعد اليوم من بين أهم مصادر التاريخ العُماني خاصة، وتاريخ البلاد الإسلامية عامة، ومن الصعب على أي باحث في التاريخ أو الجغرافيا أو غيرها أن يكتب عن عُمان دون العودة إليها لما احتوته من كنوز معرفيه، وضعتنا أمام الكثير من الحقائق عن طبيعة المنطقة، وحياة سكانها.

5 – أنه على الرغم من محدودية الأخبار التي قدمها لنا بعض الرحالة والجغرافيين عن عُمان في المدة موضوع الدراسة، التي لا يتعدى بعضها الشيء اليسير في المعلومة الذي قد يصل إلى كلمة واحدة، أو عدد من الكلمات، أو الأسطر، لكنه من الصعب على أي باحث أو مؤرخ الاستغناء عن هذه المعلومة أو الحيد عنها؛ لأهميتها التي قد تفتح له الباب على مصرعيه لغيرها من المعلومات التي قد يجدها في غيرها من المؤلفات التاريخية الأخرى.

6 – أن تاريخ عُمان في حاجة اليوم إلى إعادة جمع وتحليل وتدوين وصياغة، وتوثيق معلوماته، بعد الاستعانة بمؤلفات جميع الرحالة والجغرافيين الذين كتبوا عنها عبر العصور، لاسيما وأننا لاحظنا بأن هناك كثيراً من مؤلفات الرحالة الجغرافيين لم يتم العودة إليها في الدراسات الحديثة، وهو ما يدفعنا هنا إلى التوصية لطلاب الدراسات العليا في الماجستير والدكتوراه إلى ضرورة الاستعانة، والاستفادة مما جاء في هذه المؤلفات؛ لأهميته التاريخية في إبراز تاريخ عُمان والمنطقة.

◄ الهوامش:

(1) التطيلي، الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي النباري الإسباني (ت: 569هـ)، رحلة بنيامين التطيلي، ط1، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 2002م، ص172؛ حاجي خليفة، مصطفى عبد الله (ت: 1067هـ)، كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون، ج2، صححه وطبعه: محمد شريف الدين، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1306هـ / 1941م، ص278.

(2) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت: 300هـ)، المسالك والممالك، بيروت، دار صادر، 1889م، ص60، 192، 193، 248، 251.

(3) صحار: قصبة عمان مما يلي الجبل، وتؤام قصبتها مما يلي الساحل. وهي مدينة طيبة الهواء والخيرات والفواكه، مبنية بالآجر والساج كبيرة، ليس في تلك النواحي مثلها، وقيل: إنما سمّيت بصحار بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهي من أهم مدن عُمان لما تميزت به من موقع وثروة زراعية ساعدتها على أن تكون عاصمة لعمان خلال فترات زمنية مختلفة. للمزيد انظر: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، ج3، ط2، بيروت، دار صادر، 1995م، ص393؛ ويلكسون، جون، صُحار تاريخ وحضارة، ط2، عمان، وزارة التراث القومي والثقافي، 1998م، ص6 وما بعدها؛ الغيلاني، سعيد بن محمد، صحار في كتابات الجغرافيين والمؤرخين، بحث منشور في كتاب حصاد ندوة صُحار عبر التاريخ، التي أقامها المنتدى الأدبي في صُحار في الفترة من 28 إلى

29 محرم 1418هـ الموافق 4 إلى 5 يونيو 1997م، ط1، 1412هـ/ 2000م، ص13 – 26.

(4) مسقط: مدينة عُمانية ساحلية تقع بين جبلين، في أخر بلاد عُمان من جهة الشرق، وترسو فيها السفن، لتستقي من آبارها العذبة. انظر: الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1984م، ص559.

(5) السيرافي، أبو زيد الحسن بن يزيد (ت بعد: 330هـ)، أخبار الهند والصين المعروف برحلة ابن السيرافي، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 1999م، ص24، 25، 26، 66، 86، 88، 115، 116، 117، 117، 120.

(6) السيرافي، أخبار الهند والصين، ص120.

(7) بزرك بن شهريار الناخذاة الرام هرمزي (ت: 342هـ/ 953م)، عجائب الهند بره وبحره وجزايره)، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي، 1421هـ/ 2000م، ص108، 109.

(8) الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت: 346هـ)، المسالك والممالك، بيروت، دار صادر، 2004م، ص12، 25، 26، 27، 28، 31 – 32، 227.

(9) الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت: 360هـ / 970م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط1، صنعاء، مكتبة الإرشاد، 1410هـ/ 1990م، ص319.

(10) ابن الفقيه الهمداني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق (ت: 365هـ)، البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، بيروت، عالم الكتب، 1416هـ/ 1996م، ص67، 388.

(11) انظر: المصدر نفسه، ص67، 72، 86، 87، 93، 144، 164، 170، 182، 239، 311، 388، 405، 483 – 484، 487، 592.

(12) مِرْباط: فرضة مدينة ظفار، بينهما خمسة فراسخ، وهى مدينة منفردة لها أسواق، بين حضرموت وعمان، على ساحل البحر، وقربها جبل نحو ثلاثة أيام، فيه شجر اللبان، وهو صمغ يخرج منه يجتنى ويحمل إلى سائر الدنيا. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص97؛ الحنبلي، صفيّ الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي (ت: 739هـ)، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع، ج3، ط1، بيروت، دار الجيل، 1412هـ، ص 1252.

(13) ظفار: مدينة عظيمة جميلة، محادة لبلاد اليمن، كانت مثلما يذكر المغربي قاعدة بلاد الشحر وفرضتها، يجلب إليها خيل العرب ومنها يحمل إلى بلاد الهند. انظر: المغربي، ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970م، ص102؛ فيليبس، وندل، تاريخ عُمان، ترجمة: محمد أحمد عبد الله، ط3، مسقط، وزارة التراث القومي الثقافي، 1409هـ/ 1989م، ص25.

(14) نزوة: جبل بعُمان، عنده عدة قرى واسعة يسمى مجموعها بهذا الاسم، يسكنها قوم من العرب، خوارج أباضية، اشتهرت بعمل صنف من الثياب منمّقة بالحرير جيدة فائقة لا يعمل مثلها في بلاد العرب، ومآزر من ذلك الصنف يبالغ في أثمانها. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص281.

(15) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي الموصلي (ت: بعد 367هـ)، صورة الأرض، بيروت، دار صادر، 1938م، ص6، 18، 19، 22، 25، 26، 27، 34، 38 – 39، 41، 46، 48، 158، 401.

(16) مجهول (ت: بعد 372هـ)، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، محقق ومترجم الكتاب (عن الفارسية): السيد يوسف الهادي، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، 1423هـ، ص26، 36، 170، 173، 195، 203.

(17) المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي

البشاري (ت: 380هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، بيروت، دار صادر، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1991/1411م، ص12، 16 – 17، 18، 35، 68، 70، 87، 92 – 93، 96، 97، 98، 99، 103، 105، 463، 470.

(18) العزيزي، الحسن بن أحمد المهلبي (ت: 380هـ)، الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، جمعه وعلق عليه ووضع حواشيه: تيسير خلف، د. ن، د. ت، ص25، 138.

(19) إسحاق بن الحسين المنجم (ت: ق 4هـ)، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1408هـ، ص49، 54، 55.

(20) أحمد بن إسحاق (أبو يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (ت: بعد 292هـ)، البلدان، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1422هـ، ص211.

(21) ابن الفقيه الهمداني، البلدان، ص66 – 67؛ مجهول، حدود العالم173؛ العزيزي، المسالك والممالك، ص25.

(22) السيرافي، أخبار الهند والصين، ص120؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص18، 35؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص38.

(23) السيرافي، المصدر نفسه والصفحة؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص28، .

(24) السيرافي، المصدر نفسه والصفحة؛ الهمداني، المصدر نفسه، ص25؛ ابن الفقيه، البلدان، 87؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص38.

(25) الهمداني، المصدر نفسه، ص91 9 92، 330؛ العزيزي، المسالك والممالك، ص25؛ ابن الفقيه، المصدر نفسه، ص170.

(26) ابن حوقل، صورة الأرض، ص38 – 39.

(27) االسيرافي، أخبار الهند والصين، ص24، 25، 26، 115، 116؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص27، 28، 91؛ الاصطخري، المسالك والممالك، ص28؛ ابن الفقيه الهمداني، البلدان، ص67، 592.

(28) الأحقاف: مفازة رمال رقيقة معروفة في شمال حضرموت، فيما بين عُمان وحضرموت. الأكوع، البلدان اليمانية، ص19.

(29) غنيم، عبد الله يوسف، أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة، الكويت، د. ن، 1981م، ص42.

(30) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص319.

(31) المصدر نفسه، ص39، 237.

(32) أحسن التقاسيم، ص68.

(33) البلدان، ص388.

(34) المسالك والممالك، ص248.

(35) صفة جزيرة العرب، ص39.

(36) الأصطخري، المسالك والممالك، ص12.

(37) مهرة: صقع واسع في الشرق من حضرموت. الأكوع، إسماعيل بن علي، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، 1408هـ/ 1988م، ص277.

(38) البلدان، ج1، ص18.

(39) مجهول، حدود العالم، ص26، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص17.

(40) المسالك والممالك، ص193.

(41) الأصطخري، المسالك والممالك، ص27؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ج1، ص39.

(42) صورة الأرض، ج1، ص34.

(43) ابن حوقل، صورة الأرض، ج1، ص39، 41.

(44) المسالك والممالك، ص26.

(45) صفة جزيرة العرب، ص263.

(46) يبرين: منطقة رملية لا يُدرك أطرافها. الزَّبيدي، أبو مرتضى محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (ت: 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، ج14، المحقق: مجموعة من المحققين، د. ت، دار الهداية، ص453. ويبدو أن المقصود بها منطقة الربع الخالي.

(47) الدهناء: وهي صحراء متداخلة مع الربع الخالي، وتعد من أشهر صحاري العرب. البلادي، المقدم عاتق بن غيث، بين مكة وحضرموت، رحلات ومشاهدات، ط1، مكة المكرمة، دار مكة، 1402هـ/ 1982م، ص165.

(48) المسالك والممالك، ص27.

(49) صورة الأرض، ج1، ص41.

(50) المصدر نفسه والجزء، ص401.

(51) المسالك والممالك، ص25.

(52) أحسن التقاسيم، ص93.

(53) المصدر نفسه، ص93. وانظر: ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص60.

(54) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص90 – 91.

(55) صورة الأرض، ج1، ص38.

(56) سوف يتم الحديث والتعريف بتلك المدن لاحقاً.

(57) أحسن التقاسيم، ص92 – 93.

(58) عبارة عجيبة ويبدو أنها دخيلة على النص.

(59) المسالك والممالك، ص25.

(60) صفة جزيرة العرب، ص237.

(61) صورة الأرض، ج1، ص38.

(62) أحسن التقاسيم، ص70.

(63) المسالك والممالك، ص25.

(64) أحسن التقاسيم، ص93.

(65) المصدر نفسه، ص70.

(66) صفة جزيرة العرب، ص26.

(67) يذكر السمعاني أن الشراة هم الخوارج. انظر: عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (ت: 562هـ)، الأنساب، ج8، المحقق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، ط1، حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1382هـ/ 1962م، ص13.

(68) أحسن التقاسيم، ص53، 71، 93.

(69) للمزيد من التفاصيل عن تلك المناطق انظر: العاني، عبد الرحمن عبد الكريم، تاريخ عُمان في العصور الإسلامية الأولى ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي وفي الملاحة والتجارة الإسلامية، ط1، لندن، دار الحكمة، 1420هـ/ 1999م، ص 77 – 91.

(70) أخبار الهند والصين، ص25.

(71) البلدان، ص67.

(72) أحسن التقاسيم، ص93.

(73) صورة الأرض، ج1، ص39.

(74) ابن حوقل، صورة الأرض، ج1، ص38.

(75) صفة جزيرة العرب، ص92.

(76) حاسك: مدينة عُمانية ساحلية لها مرسى للسفن، تسكنها قبائل عربية، يعمل أفرادها في صيد السمك، وتمتاز مناطقهم بوجود شجرة الكندر (اللبان). ابن بطوطة، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت: 779هـ)، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، ج2، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، 1417هـ، ص130.

(77) انظر: الشجاع، عبد الرحمن عبد الواحد، عُمان ثقافياً في عين الهمداني (لسان اليمن) (توفي بين 350 و 360هـ/ 960 و 970م)، بحث منشور في كتاب الندوة الدولية " التبادل الحضاري العُماني اليمني "، مج1، مسقط، مطبعة جامعة السلطان قابوس، 2011م، ص118.

(78) صفة جزيرة العرب، ص91، 330.

(79) البلدان، ص170.

(80) المسالك والممالك، ص25.

(81) ابن السائب الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد (ت: 204هـ)، نسب معد واليمن الكبير، ج2، المحقق: الدكتور ناجي حسن، ط1، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، 1408هـ / 1988م، ص508. بن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت: 456هـ)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: لجنة من العلماء، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1983/1403م، ص373.

(82) صفة جزيرة العرب، ص328.

(83) كحالة، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشق، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج1، ط7، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1414هـ / 1994م، ص16.

(84) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص91، 330؛ ابن الفقيه، البلدان، ص170؛ العزيزي، لمسالك والممالك، ص25.

(85) صفة جزيرة العرب، ص330.

(86) المصدر نفسه، ص91.

(87) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت: 487هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج1، ط3، بيروت، عالم الكتب، 1403هـ، ص46.

(88) عُمان ثقافياً في عين الهمداني، ص121، وهامش رقم (199).

(89) المسالك والممالك، ص25 – 26.

(90) كحالة، معجم قبائل العرب، ج3، ص947.

(91) البَلَاذُري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت: 279هـ)، أنساب الأشراف، ج1، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، ط1، بيروت، دار الفكر، 1417هـ / 1996م، ص46.

(92) أحسن التقاسيم، ص93.

(93) المصدر نفسه، ص96.

(94) فرقة من البهرة الإسماعيلية، تنسب إلى الداعية داود بن قطب شاه، رابع الدعاة الذين استدعوا من اليمن لنقل الدعوة إلى الهند، وقد تسلم الدعوة من الداعية داود بن عجب شاه وهو الذي أطاعه البهرة في الهند، ولهذا سموا بالداودية، وهم السواد الأعظم من هذه الطائفة، ومركزهم مدينة سورت في أقليم كجرات. انظر: النداوي، ابو ظفر، عقد الجواهر في أحوال البواهر، كراتشي، دون دار نشر، 1936م، ص 104 – 105.

(95) للمزيد من التفاصيل عن قبائل الأزد وغيرها من القبائل التي سكنت عُمان، انظر: عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ أهل عُمان، مسقط، وزارة التراث القومي والثقافة، 1400هـ/ 1980م، ص15 – 26.

(96) ريسوت: بلدة على البحر شرق حضرموت. الأكوع، البلدان اليمانية، ص136.

(97) صفة جزيرة العرب، ص90.

(98) المصدر نفسه، ص91.

(99) المصدر نفسه، ص92.

(100) المسالك والممالك، ص25 – 26؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ج1، ص38.

(101) أحسن التقاسيم، ص93.

(102) صفة جزيرة العرب، ص91 – 92.

(103) المصدر نفسه، ص92.

(104) البياسرة: قوم من السند، وقيل الهند، يستأجرهم النواخذة أهل السفن لحرب عدوهم، وهم عرب موالدة من أب عربي وأم هندية. انظر: الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، ج10،

تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د. ت، ص176 – 177؛ المباركبوري، القاضي أطهر مباركبوري الهندي، العرب والهند في عهد الرسالة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م، ص78، 79.

(105) بنو عدَس: بطن من بني دارم بن تميم من العدنانية. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت: 821هـ)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، بيروت، دار الكتاب اللبنانيين، 1400هـ / 1980م، ص 352. ويبدو أنهم من أحياء العرب التي ذكرها الهمداني.

(106) المسالك والممالك، ص25 – 26.

(107) هو الخليفة أبو العباس المعتضد بالله، أحمد بن الموفق بالله أبي أحمد طلحة بن المتوكل جعفر بن المعتصم محمد بن الرشيد الهاشمي العباسي (242 – 289هـ). للمزيد انظر: ابن قَايْماز، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت: 748هـ)، سير أعلام النبلاء، ج10، القاهرة، دار الحديث، 1427هـ/ 2006م، ص480 – 486؛ ابن شاكر، صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون (ت: 764هـ)، فوات الوفيات، ج1، المحقق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1973م، ص72.

(108) المسالك والممالك، ص26. وانظر ابن حوقل، صورة الأرض، ج1، ص38 – 39.

(109) أحسن التقاسيم، ص35.

(110) حدود العالم، ص173.

(111) المسالك والممالك، ص25. وانظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ج1، ص38.

(112) صورة الأرض، ص83.

(113) أحسن التقاسيم، ص92.

(114) أخبار الهند والصين، ص25.

(115) المصدر نفسه، ص26.

(116) البلدان، ص67.

(117) أحسن التقاسيم، ص93.

(118) المسالك والممالك، ص25.

(119) سيراف: مدينة كبيرة حارة، طيبة الهواء، يجتمع بها التجار، وهي فرضة فارس. حدود العالم، ص145.

(120) السيرافي، أخبار الهند والصين، ص24.

(121) مجهول، ص203.

(122) أخبار الهند والصين، ص24.

(123) البلدان، ص66.

(124) عجائب الهند، ص128.

(125) أحسن التقاسيم، ص97.

(126) أخبار الهند والصين، ص86.

(127) عجائب الهند، ص107، 108.

(128) أخبار الهند والصين، ص66.

(129) المسالك والممالك، ص154.

(130) السيرافي، أخبار الهند والصين، ص86.

(131) المصدر نفسه، ص24.

(132) ابن الفقيه، البلدان، ص67.

(133) أخبار الهند والصين، ص25.

(134) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص60.

(135) عجائب الهند، ص86، 126، 144، 152.

(136) أخبار الهند والصين، ص120.

(137) بزرك، عجائب الهند، ص132؛ الآصطخري، المسالك والممالك، ص31 – 32؛

(138) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص88.

(139) السيرافي، أخبار الهند والصين، ص120.

(140) أخبار الهند والصين، ص116.

(141) مجهول، ص173.

(142) عجائب الهند، ص108، 109.

(143) هو الخليفة المقتدر بالله، أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله أحمد بن أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله الهاشمي، العباسي، البغدادي، بويع بعد أخيه المكتفي في سنة 295هـ، وظل يحكم حتى مات مقتولاً في سنة 320هـ. انظر: ابن قايماز، سير أعلام النبلاء، ج11، ص369 – 370؛ ابن شاكر، فوات الوفيات، ج1، ص284 – 285.

(144) أحسن التقاسيم، ص18.

(145) ابن حوقل، صورة الأرض، ص39. والمرحلة مثلما يقول نشوان الحميري: هي مسيرة يوم. انظر: نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (ت: 573هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ج4، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري، ومطهر بن علي الإرياني، ود. يوسف محمد عبد الله، ط1، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، 1420هـ/ 1999م، ص2448.

(146) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص60. يقول ابن منظور الفرسخ ثلاثة أميال. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأنصاري الإفريقي (ت: 711هـ)، لسان العرب، ج3، ط3، بيروت، دار صادر، 1414هـ، ص44، ج11، ص639.

(147) الأصطخري، المسالك والممالك، ص27. الميل ثلث الفرسخ، أربعة آلاف ذراع، طولها أربعة وعشرون أصبعاً، وعرض كل أصبع ست حبات شعير ملصقا. انظر: نكري، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد (ت: ق 12هـ)، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، ج3، ط1، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، بيروت، دار الكتب العلمية، 1421هـ / 2000م، ص269.

(148) أخبار الهند والصين، ص25، 26.

(149) صفة جزيرة العرب، ص90 – 91.

(150) المسالك والممالك، ص27.

(151) انظر: ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص60.

(152) البلدان، ص144، 484.

(153) صورة الأرض، ج1، ص39.

(154) ابن الفقيه، البلدان، ص483 – 484.

(155) أحسن التقاسيم، ص93.

(156) المسالك والممالك، ص25.

(157) صورة الأرض، ج1، ص38.

(158) أحسن التقاسيم، ص93.

(159) صفة بلاد العرب، ص319.

(160) البلدان، ص87.

(161) أحسن التقاسيم، ص470.

(162) المصدر نفسه، ص92 – 93.

(163) السيرافي، أخبار الهند والصين، ص26.

(164) أحسن التقاسيم، ص93.

(165) السيرافي، أخبار الهند والصين، ص26. وانظر: ابن الفقيه، البلدان، ص67.

(166) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص93.

(167) البلدان، ص164، 182.

(168) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص93.

الطائفة المارونية في لبنان منذ النشأة الى نهاية الحملات الصليبية (398 - 1292م)

د .علي عبيد شكري الريكاني
فاكولتي العلوم والتربية بعقرة
جامعة دهوك - جمهورية العراق

الملخص :

تعد الطائفة المارونية في لبنان من أهم الطوائف المسيحية في بلاد المشرق ، وتصنف ضمن الطوائف الكاثوليكية التي لعبت دورأًمهماً في رسم السياسة اللبنانية في مراحلها التاريخية الحديثة والمعاصرة، وتعد نفسها قاعدة للشعب اللبناني،وعلى الرغم من أن ظهور هذه الطائفة كان في الجهات الشمالية من بلاد الشام إلا أنها نشأت وترعرعت في جبل لبنان،الذي اخذ يشكل مركزاً حصيناً لهم ، وقد إنخرطوا في البنى السياسية الاقتصادية والاجتماعية،وتعد الكنيسة المارونية الزعامة الروحية والسياسية لهذه الطائفة والتي يدير شؤونها البطريرك،وينتشر الموارنة اليوم في أنحاء مختلفة من لبنان ويشكلون ثلث سكان جبل لبنان .

◄المقدمة :

تكمن أهمية هذا البحث الموسوم بـ (الطائفة المارونية منذ النشأة إلى نهاية الحملات الصليبية 398-1292م) في أنه سلط الضوء على تاريخ طائفة الموارنة التي مرت بعهود مختلفة ، وفي كل عهد كان لهذه الطائفة موقف مؤثر في تاريخ لبنان وحدد هذا البحث هذه المواقف ومدى تاثيرها بدءاً من خلال صراعاتها المذهبية مروراً بموقفها السياسي في العهدين الأموي والعباسي إلى الحملات الصليبية .

قسم البحث الى خمسة محاور، تناول المحور الأول أصل الموارنة ونشأتهم حيث نُسبت أصل الطائفة إلى مار مارون الذي هاجر إلى جبل سمعان في سنة 398م ، تعد هذه السنة فترة نشأة هذه الطائفة، أما في المحور الثاني فقد تناول الجدل اللاهوتي عند الموارنة حول طبيعة السيد المسيح ، فقد كان لموقف الموارنة من هذا الجدل دور في الصرعات المذهبية مع اليعاقبة وبالتالي أثر ذلك في هجرة الموارنة إلى جبل لبنان، أما في المحور الثالث فقد تناول أوضاع الطائفة الموارنة في العهد الأموي ، وكيفية تعامل الدولة الأموية مع الموارنة على اعتبارهم من أهل الذمة .

أما المحور الرابع فقد تناول أوضاع هذه الطائفة في العهد العباسيين الذين استولو على السلطة بعد أن قاموا بثورتهم ضد الأمويين،و في هذا العهد قام الموارنة بالعصيان ، واشهر حركة قاموا بها هي في جبة المنيطرة والتي اسفرت عن انكسارهم في النهاية ، حيث أتخذ العباسيون عدة اجراءات ضدهم . أما المحور الخامس فقد تناول الموارنة من الحملات الصليبية التي قام بها الغرب ضد المدن الإسلامية ، فقد تعاطف الموارنة مع هذه الحملات ووقفت مع الغرب وتقدمت لهم كل الخدمات التي يحتاجون اليها

، وبذلك كان لهذه الطائفة دوراً مهماً في ما كان يحصل في لبنان خاصة وبلاد الشام عامة .

◄ أولاً – أصل الموارنة ونشأتهم :.

يعود أصل الطائفة المارونية إلى الراهب (مار مارون)[1] الذي عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادي[2]، وقد اختلفت المصادر في تاريخ ولادته فقد أشارت بعض المصادر إلى أن ولادته كانت في كيروس (سنة 350م)[3]، (وهي تبعد حوالي ستين كيلومتر شمال حلب)[4]، بينما أشارت مصادر أخرى إلى أن ولادته كانت في طرطوس من أعمال قيليقية، وقد أكدت المصادر اليونانية أن مارون ولد في انطاكية ومما يؤكد ذلك أن المصادر أشارت إلى أن مار مارون ولد في بلدة مشهورة تدعى (مارون) أي السيد الصغير وهذه البلدة تقع قرب أنطاكية ، وبالرغم من ذلك فأنَ المصادر اليونانية لم تذكر هذه البلدة وإنما ذكرت ولادته في أنطاكية على اعتبار ان البلدة تابعة لمدينة انطاكية [5]، وهذا الراي هو الأقرب الى الصواب حسب رأي الباحث لسببين : الأول هو أن أغلب المصادر أشارت إلى أن ولادته كانت قرب أنطاكية في مدينة تدعى كفرنابو (قورش حالياً) وهي تقع شمال شرق أنطاكية، والسبب الثاني أن اسم مار مارون مأخوذ من إسم البلدة التي ولد فيها والتي كان اسمها مارون أي (السيد الصغير) وهذه كانت قرية صغيرة تابعة لقورش التي تقع قرب انطاكية .

وفي سنة 398م هجر مارون الحياة العامة واعتزل الناس في جبل سمعان شمال غرب مدينة حلب وتفرغ للعبادة حتى عرف عنه بالقديس مار مارون، واتخذ مارون من جبل سمعان مقراً له (يقع هذا الجبل بين حلب وانطاكية وقورش)، وعمل على نشر النصرانية بين القرى المجاورة التي كان معظمهم من الفلاحين الوثنيين ، واستطاع أن يجمع حوله الكثير من المريدين والرهبان [6]، وينسب إليه أتباعه بعض الأعمال الخارقة للطبيعة البشرية وشفاء الأمراض النفسية والبدنية ، وأشتهر من أتباعه العديد من الرهبان الذين أصبح لهم الدورالكبير في نشر مذهبه بعد وفاته[7] .

وبعد وفاة مار مارون مابين سنة (405 و 423 م) سمي أتباعه بالموارنة، وقام اتباعه من المريدين والرهبان ببناء دير له في نفس المكان الذي توفي فيه (بالقرب من أفاميه على نهر العاصي)[8]، وسمي هذا الدير باسماء عديدة فقد عرف باسم الدير الشرقي أو بيت مارون أو دير مارون الناسك ، وأصبح هذا الدير مزاراً لأتباعه ومركزاً لقوة دينية وسياسية إتسع نفوذها وسلطتها في القسم الشمالي من بلاد الشام، وهكذا كان الظهور الأول للطائفة دينياً وسياسياً واستطاعوا أن يتوسعوا في عموم بلاد الشام واتخذوا من جبل لبنان قاعدة حصينة لهم ومركزاً لنشاطهم السياسي والديني [9].

وبعد دخول الموارنة في صراعات مذهبية مع اليعاقبة[10]، والتي أدت إلى مقتل (350) راهباً مارونياً سنة (517م) اضطر الموارنة للجوء إلى مكان آمن فأختاروا جبل لبنان لكونه ذا تضاريس وعرة يصعب الوصول إليها بسهولة، فضلاً عن كونه يقع في منطقة ذات كثافة سكانية قليلة [11]، قطن الموارنة في البداية الجهات الشمالية من جبل لبنان، ثم إتجهوا بعد ذلك جنوباً إلى المناطق الوسطى فسيطروا على جبة البشري (جنوب غرب طرابلس)، وأتجه البعض منهم الى منطقة البترون وأصبحت فيما بعد من أول مساكن الموارنة [12]، وبذلك يمكن القول أن أول منطقة سيطر عليها الموارنة هي جبة بشري وقسم من بلاد البترون ، ثم بدأوا بالتوسع مستغلين ظروف الدولة الإسلامية التي كانت في مواجهة مستمرة مع البيزنطينيين ، في حين كان البيزنطينيون يقومون بإرسال الموالين لهم إلى

المدن الساحلية اللبنانية والسورية بهدف خلق حالة من الفوضى والتمرد لإرباك الدولة الاسلامية ودعم ومساندة البيزنطينيين في تلك المدن ، وكان حصيلة ذلك إندماج هؤلاء مع الموارنة وأعتناقهم مذهبهم ، وهذا التوسع كان له نتيجة اخرى في عملية التنصير في لبنان ولاسيما في المناطق التي سيطر عليها الموارنة وثبتوا أقدامهم فيها .

◄ ثانياً– الموارنة والجدل اللاهوتي حول طبيعة السيد المسيح :.

ولدَ السيد المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) في فلسطين في بيت لحم التي تقع على بعد خمسة أميال جنوبي القدس وقد انتقل بإسرته إلى الناصرة في الجليل[13].

بدأت دعوة المسيح (عليه السلام) وجاء ليبشر اليهود بالإنجيل إلا أن اليهود امتنعوا الاستجابة لهذه الدعوة ، بل عملوا على محاربتها بأساليب وطرق مختلفة من ضمنها تحريض الرومان الذين كانوا يسيطرون على فلسطين على محاربة المسيحية ومحاصرتها على اعتبار أنها تهدد الامبراطورية الرومانية ، وتجعل الناس يتركون الولاء للرومان ويتعبون المسيح الأمر الذي وافق الرومان عليه وبدأوا بمحاصرة المسيحية ومحاربتها في كل مكان من بلاد الرومان بمافيها بلاد الشام ، وبعد أن دمر الرومان القدس (أورشليم) سنة (70 م) [14]، وقد أصبحت انطاكية السورية مركزاً جديداً للمسيحية كما أصبحت الكنيسة المسيحية في أنطاكية أهم المراكز المسيحية بعد القدس [15].

وقد لعب السوريون دوراً أساسياً في نشر تعاليم المسيحية عن طريق المؤلفين الذين عرفوا بآباء الكنيسة لأنهم عملوا على تفسير العقائد والطقوس الدينية للكنيسة ، ويسمى أول ستة منهم بالآباء الرسوليين لأنهم عاصروا المسيح (عليه السلام) في بعض أدوار حياتهم [16].

وفي بداية القرن الرابع الميلادي تحولت العلاقة بين روما والمسيحية تحولاً جذرياً ، وذلك عندما وصل (قسطنطين الرابع) إلى حكم الامبراطورية الرومانية وقد أصدر قرار سنة (313م) أمر فيه «بالتسامح الرسمي مع الدين المسيحي « ثم اتخذ القسطنطينية عاصمة جديدة له على أثر اعتناق قسطنطين الرابع المسيحية وجعلها الدين الرسمي للأمبراطورية الرومانية ، وكان ذلك بداية لتحول العلاقات الجذرية بين المسيحية والإمبراطورية ، وهكذا أصبح أباطرة الرومان حماة الكنيسة المسيحية [17].

وفي بداية القرن الرابع الميلادي ظهرت منازعات حول شخصية السيد المسيح عليه السلام قسمت المسيحيين إلى فرق متناحرة ومتخاصمة فيما بينها ، وكان الموارنة جزءاً من هذا الصراع الديني ، وبالتالي انقسم العالم الروماني المسيحي حول طبيعة السيد المسيح (عليه السلام) وظهرت نظريتان هما : نظرية الطبيعة الواحدة ونظرية الطبيعتين ، الأمر الذي أثار البغضاء الدينية والسياسية بين الفرق المتخاصمة حول طبيعة السيد المسيح (عليه السلام) [18].

كانت المشكلة تدور حول تحديد العلاقة بين السيد المسيح (عليه السلام) والإله الرب، وقد وقع الخلاف حول اثنين من رجال الكنيسة الاسكندرية فظهرت بذلك نظريتان ، الأولى تسمى ذات الطبيعة الواحدة والثانية تسمى ذات الطبيعتين، وكان يتزعم نظرية الطبيعة الواحدة (أريوس)[19]، الذي احتضن عقيدة تقول : بأن المسيح ليس إلهاً وإن طبيعته ليست إلهية كذلك ،بل إنَ مشيئته هي الإلهية ، أي بمعنى هيمنة واطغاء الطبيعة الإلهية على الطبيعة الانسانية في شخص السيد المسيح(عليه السلام) ، أما النظرية الثانية والتي تسمى ذات الطبيعتين فتقول :((إنَ للسيد المسيح شخصين،الشخص الإلهي والشخص

الإنساني)) أي بمعنى أنَ المسيح هو الله وإنسان في آنٍ واحد وانتخبت كل فئة بطريركاً خاصاً بها [20].

كانت نتيجة هذا الخلاف هو محاربة الدعوة الآريوسية ، ووصف دعاتها بالمبتدعيين ، ومن أجل ذلك عقد مجمع نيقية سنة (325م) لإيضاح التعاليم الدينية والعقائدية ضد المبتدعين، وفي سنة (451 م) عقد مجمع الخلقيدوني (نسبة إلى مكان انعقاده في بلدة خلقدونية على مقربة من البسفور في تركيا) وثبت الرأي المنادي بالطبيعتين للسيد المسيح (عليه السلام) وحرم القول بالطبيعة الواحدة ، وعلى اثر ذلك انقسم المسيحيون الى قسمين هما : أتباع الخليقدوني ، وهؤلاء نادوا بالطبيعة الواحدة، والقسم الثاني نادوا بنظرية الطبيعتين وكان في مقدمتهم (الاسقف يعقوب البرادعي) [21]، واشتد الصراع بين القسمين على أثر رفض اليعاقبة الإيمان بمقررات الخليقدوني وأصبح اليعاقبة بذلك أعداء الموارنة لأنهم اعتنقوا النظرية التي تنادي بالطبيعتين وقام الموارنة بالتصدي لليعاقبة .

اما مايخص الدولة البيزنطية فقد كانت بداية الأمر إلى جانب مقرارت المجمع الخليقدوني ووقفوا في وجه اليعاقبة ، إلاَ أنَ مصالحهم في بعض الأحيان كانت تدفع إلى تقلب أهوائهم في هذا الصراع المذهبي ، تِبعاً لمصالحهم السياسية ونظرة حكامها ، فأحياناً كانوا يضطهدون اليعاقبة ، وأحياناً أخرى يطالبون الموارنة بالتخلي عن المجمع الخليقدوني ، وفي بعض أحيان أخرى يحاولون التوفيق بين النظريتين[22] .

◄ ثالثآ– الموارنة في العهد الاموي(41–132هـ / 661– 750م)

بعد انتشار الاسلام في شبة الجزيرة العربية توجه المسلمون في عهد الخليفة أبي بكر الصديق [رضي الله عنه] في سنة (11–13 هـ /632–634م) نحو البلاد الجديدة لنشر الدين الاسلامي ، وقد جهز جيشا لفتح الشام ، وبعد وفاة أبي بكر الصديق [رضي الله عنه] انتقلت الخلافة الى عمر بن الخطاب [رضي الله عنه] في سنة (13–24 هـ / –634 644م) وبدأ المسلمون بفتح العديد من المناطق ومنها بلاد الشام [23]، وانتصر المسلمون على البيزنطينين في معركة اليرموك سنة (15 هـ / 636م)، ثم وصلت جيوش المسلمين الى لبنان الذي تولى فتحه القائدان أبو عبيدة عامر بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان بمعاونة أخية معاوية [24].

فقد فتح أبوعبيدةعامربن الجراح البقاع وبعلبك، أما يزيد وأخيه معاوية فقد فتحا صيدا [25] وبيروت سنة (14 هـ /635) وجبيل وعرقة، أما طرابلس فقد فتحت بعد عشر سنوات من الحصار (14–24 هـ /–635 644م) وذلك بسبب حماية الاسطول البيزنطي لها، كما تمكن القائد (شرحبيل بن حسنة) من فتح عكا وصور وبذلك حرر المسلمون لبنان، وتشير المصادر بأن جبل لبنان بقي فيه نوع من كيان سياسي شبه مستقل متمثل بالنصارى (الموارنة والمتحالفون معهم الذين تنصروا على أيدي الرهبان الموارنة)[26]، حيث حاول معاوية بن أبي سفيان أن يخضع سكان الجبل لكنه لم يتمكن من ذلك وبقي جبل لبنان عائقاً امامه وامام الخلفاء من بعده ، وذلك نتيجة لموقعه الحصين إلى جانب دعم وتحريض البيزنطينين لسكانه من الموارنة بالتمرد على حكم المسلمين [27] .

قام معاوية بن أبي سفيان بأعمال من شأنها تثبيت نظام الحكم الإسلامي وإيقاف التمرادات التي يقوم بها أنصارالدولة البيزنطة في جبل لبنان ، فاتخذ سياسة لينة في ذلك وأظهر التسامح الديني تجاه النصارى ومن ضمنهم الموارنة حيث أبقى معاوية بن أبي سفيان لهم كل شيء على ماهو عليه قبل الفتح الاسلامي لبلاد الشام من طقوسهم الدينية وقوانينهم ورؤاسائهم ، وسمح لهم باقامة بطاركة لهم

في جبل لبنان ولم يجبروهم على إعتناق الاسلام[28]، وفي الوقت نفس حاول إبعاد النصارى عن المدن الساحلية لتجنب اتصالهم بالبيزنطيين ومساعدتهم لهم ، وقام معاوية بإسكان المسلمين مكانهم [29]، وهذا يفسر مدى تعاون النصارى مع البيزنطيين وتقديم المؤن والسلاح والعتاد للاسطول البيزنطي .

وفي بعض الأحيان كان معاوية يقضي في الخلافات المذهبية بين الموارنة وخصومهم اليعاقبة، وقد استغل اليعاقبة التسامح الديني الذي تبناه الأمويون تجاه النصارى فقاموا بالتصدي للموارنة ، بل إن اليعاقبة إستغلوا فتح المسلمين للبنان وسوريا ورحبوا به من أجل الإنتقام من الموارنة وحلفائهم البيزنطيين ، وفي سنة (39هـ / 659م) تدخل معاوية في هذا الصراع وأمر اليعاقبة بالتزام السكينة وأن يؤدوا (20) الف دينار كجزية سنوية [30] ويرى الباحث أنَ هذا التحكيم هو لأن الموارنة هم من أهل الذمة في ظل الدولة الأموية وعليها حمايتهم، ولذلك تعد الجزية التي اخذت من اليعاقبة غرامة لأنهم اعتدوا على الموارنة فضلاً عن خلق حالة من التوازن بين الطرفين يكون هو السيد فيه .

أما مايخص الجراجمة (المردة) فقد أخذوا يتنصرون بعد أن كانوا وثنيين على أيدي الرهبان الموارنة، عندما بدأ الموارنة ينتقلون إلى مناطقهم جراء صراعهم مع اليعاقبة، حيث بدأ الجراجمةيتهيؤن للتمردات ضد الحكم الأموي بدعم من البيزنطيين ويساندهم في ذلك الموارنة، وفي سنة (46 هـ / 666م) قام تمرد ضد الأمويين يرجع سببه إلى سوء معاملة الأمويين لهم و الضرائب العالية التي فرضت عليهم [31]، ولكن المصادر لم تشرإلى السبب الثالث والأهم وهو تحريض ودعم البيزنطينيين الذين بدأوا يتآمرون معهم لإنهاء الحكم الإسلامي في بلاد الشام .

اتخذ المتمردون من جبل لبنان قاعدة لهم مستفيدين من موقعه الجغرافي الحصين وأخذوا يشنون الغارات على الأمويين، الأمر الذي اضطر فيه معاوية إلى عقد صلح مع البيزنطيين الذي كانوا يقومون بدعمهم باستمرار فأرسل الأمبراطور البيزنطي وفداً بيزنطياً برئاسة (لبطريك (يوحنا مارون) للتباحث مع معاوية ، وأدت تلك المباحثات إلى عقد الصلح بين الطرفين ، كانت نتيجته دفع غرامة مالية كبيرة للبيزنطينين (لأنَ معاوية في هذه الفترة كان منشغلاً بتثبيت دعائم حكمه)، مقابل وقف التحريض البيزنطي للنصارى ضد الدولة الأموية [32]، وهذا يدل على مدى التاثيرالبيزنطيني على الموارنة ، بحيث إذا أرادت الدولة البيزنطية الصلح وقفت التمردات ضد الدولة الأموية ، أما إذا ساءت العلاقات بين بيزنطة والأمويين ثارت النصارى ضد الأمويين بدعم من الدولة البيزنطية .

إن تمردات الموارنة لم تتوقف، ففي سنة (58 هـ / 677م) أخذ الموارنة بالتمرد على الدولة الاموية مستغلين الدعم البيزنطي لهم وشنوا العديد من الحملات على الدولة الأموية واحكموا السيطرة على المناطق الموارنة في لبنان وسوريا وسيطروا على مناطق شاسعة [33].

وعلى الرغم من تحالف الموارنة مع البيزنطينين إلا أن العلاقات لم تدم على ماهي عليه إذ سرعان ماتحول هذا التحالف إلى عداء وصراع مذهبي بين الموارنة والبيزنطينين حول طبيعة السيد المسيح (عليه السلام)، لأن الدولة البيزنطية كانت تستخدم مصالحها في مسالة الجدل حول طبيعة السيد المسيح(عليه السلام)، عندما بدا الخلاف بين الدولة الأموية والبيزنطية التي كانت تواجه الأمويين بصورة مستمرة في عهد جوستنيان الثاني ، أرسل الأخير إلى يوحنا مارون البطريرك على الموارنة يطلب منه التخلي عن مجمع الخليقدوني ومحاربة العقيدة التي تنادي بالطبيعتين

للسيد المسيح (عليه السلام)[34]، وكان الموارنة من أنصار هذه العقيدة ومن المتمسكين بمقررات مجمع الخليقدوني، الأمر الذي دعى يوحنا مارون الى رفض مطالب جوستنيان الثاني وكان لهذا الرفض أثر ايجابي على العلاقات الأموية المارونية، وعلى أثر هذا الرفض أرسل الامبراطور البيزنطي جوستنيان حملة عسكرية لمحاربة الموارنة وكان على رأس هذه الحملة القائدان (موريق—وموريقان) أرادت هذه الحملة إلقاء القبض على البطريك مارون يوحنا [35]، وقام موريقوموريقان بمهاجمة دير رهبان مار مارون (دير البلور) في سوريا وقتلو (500) راهباً من الرهبان الموارنة ودمر بناية الدير سنة (75هـ /694م) ، أما البطريك يوحنا مارون فاضطر للهرب الى جبل لبنان والاعتصام فيه وتدفق الموارنة بقيادته وقيادة إبنأُخته إبراهيم، وفي سنة (75هـ / 694م) اصطدم الموارنة بالبيزنطينيين في جبل لبنان وانتصروا عليهم وقتلوا القائدين، وعلى أثر هذا الانتصار تحسنت العلاقات المارونية الأموية لأَن الأمويين انتهجوا سياسة التسامح الديني تجاه الموارنة الذين عادوا إلى أحضان الدولة الأموية بعد خلافاتهم مع البيزنطينيين وهكذا أصبحت الدولة البيزنطية العدو الأول للموارنة والأمويون في عهد جوستنيان الثاني [36].

ولكن على الرغم من ذلك فسرعان ما انقلب الموارنة على الأمويين عندما تحسنت علاقاتهم مع البيزنطينيين بعد وصول طيباريوس إلى حكم الامبراطورية البيزنطينية وخلع جوستنيان الثاني سنة (77 هـ / 696م)، أقام طيباريوس علاقة طيبة مع الموارنة في جبل لبنان حيث ارسل اليهم الهدايا والألقاب من أجل كسبهم وتحريضهم ضد الحكم الإسلامي الأموي ، الأمر الذي جعل من الموارنة مصدر قلق للأمويين مرة أخرى ، بعدما حاول الأمويون كسبهم خلال فترة جوستنيان الثاني[37]، وبذلك بدأ الموارنة مرة أخرى بالتمرد ضد الحكم الأموي مما اضطر الخليفة الأموي (الوليد بن عبد الملك) أن يرسل أخاه (مسلمة بن عبد الملك) لمحاربتهم ، وعلى الرغم من الانتصارات التي حققها مسلمة [38]، إلا أنه اضطر فيما بعد أن يضع حداً للتعاون الماروني البيزنطي من خلال تعهد الخليفة (الوليد بن عبد الملك) وأن يدفع لهم مبلغاً من المال سنوياً ، ويمنحهم مايحتاجونه من الميرة ، ثم أعفاهم من الجزية ، وساوى الموارنة بالمسلمين وسمح لهم بالمحافظة على تقاليدهم وممارسة حقوقهم وطقوسهم ، وأصدر الوليد أمراً جاء فيه « أن لايكرهوا أحداً من أولادهم أونسائهم على ترك النصرانية ، وعلى أن لايلبسوا لباس المسلمين ولايؤخذوا منهم ولامن أولادهم ونسائهم الجزية ، وعلى أن لايغزوا مع المسلمين فينسلموا سلاب من يقتلونه من الاعداء مبارزة ، وعلى أن ياخذ من تجاراتهم وأموالهم مايؤخذ من أموال المسلمين "[39].

ورغم من أنَ سياسة التسامح الديني كانت موجودة منذ عهد الخليفة (معاوية بن ابي سفيان) إلاَ أنها توسعت في عهد الخليفة (الوليد بن عبد الملك) ، وهذ يدل على أمرين الأول: هو وضع حد نهائي للتمردات التي يقوم بها الموارنة داخل الدولة الأموية الإسلامية مما سبب قلقاً اللأمويين في تلك الحقبة، وثانياً : كي لاتستغل الدولة البيزنطية الموارنة في مواجهاتها مع المسلمين من خلال تحريضهم ودعمهم على أنهم مضطهدين في ظل الدولة الأموية، لذلك نجد أن سياسة التسامح مع الموارنة كانت موجودة في ظل الدولة الأموية منذ عهد الخليفة (معاوية بن ابي سفيان) مروراً بعهد الخليفة (الوليد بن عبد الملك) وكان لهم وضع خاص في البلاد يشبه كياناً مستقلاً في جبل لبنان .

◄ رابعاً:– الموارنة في عهد العباسيين (133–656هـ / 750– 1258م):ـ

استولى العباسيون على السلطة بعد الثورة التي قاموا بها ضد الأمويين سنة (132هـ /750م) واستولوا على العراق بقيادة أبي العباس السفاح وبدأوا يبسطون حكمهم على بلاد الشام ودخلوا عاصمة الدولة الأموية دمشق في سنة (133هـ / 750م) وتشير المصادر إلى أن العباسيين عاملوا أهالي بلاد الشام عامة وأهالي دمشق خاصة بالقسوة على اعتبار انها بلاد مفتوحة بالحرب ومؤيدة للحكم الأموي ، وعندما توفى الخلية العباسي الأول أبو العباس السفاح سنة (136هـ / 754 م) بعد أن دام حكمه أربع سنوات، وقع الخلاف بين أبي جعفر المنصور أخي السفاح الذي انتخبه أهل العراق وخراسان وبين عبد الله بن علي عم أبي جعفر المنصور الذي أيدته القبائل العربية في بلاد الشام، ولكن عبد الله بن علي لم يتمكن من اليسيطرة على الحكم العباسي لأن أبي جعفر المنصور وأهل العراق وخراسان قد وقفوا في وجهه ، الأمر الذي جعل من الخليفة العباسي أبي جعفر يستاء من القبائل العربية وينكل بهم لأنهم وقفوا بجانب عبد الله بن علي [40]، وكانت كل هذه التطورات تصب في صالح الموارنة لكي يبرروا معارضتهم للعباسيين على اعتبار أن حكمهم في جبل لبنان أشد قسوة خاصة تجاه الموارنة .

أعلن الموارنة سنة (142هـ /759م) حركتهم التمردية ضد العباسيين في جبة المنيطرة[41] وكان من أهم اسبابها :.

1 – رفض الموارنة دفع الجزية للعباسيين على اعتبار أن الأمويين كانوا يقومون باعفائهم منها عندما كان يقوم الموارنة بأعمال عنف ضد الأمويين .

2 – سياسة الخلفاء العباسيين والتي وصفتها المصادر بانها كان أشد قسوةً وحزماً من الأمويين .

3 – جاءت الثورة تزامنا مع وصول قوة من الدولة البيزنطية الى طرابلس الشام فاستغل الموارنة ذلك لصالحهم .

4 – استغلال الموارنة سياسة العباسيين في بلاد الشام من خلال جعلها بلاداً للحرب لأنها كانت مركز الخلافة الأموية كما أفاد الموارنة من الخلاف بين أبي جعفر المنصور وعبدالله بن علي ، الأمر الذي ادى الى تنكيل الخليفة العباسي بالقبائل العربية في بلاد الشام لأنها وقفت ضد العباسيين .

5 – دعم وتحريض الدولة البيزنطية للموارنة في جبل لبنان .

اتخذ الموارنة من حصن المنيطرة في كسروان قاعدة لهم ونظموا شوؤنهم وانتخبوا رئيساً لهم من بينهم وعينوه ملكاً عليهم [42]، وهذا الملك كان فتى قروياً عظيمَ البنية [43]، واتخذوا علامة الصليب شعاراً لهم ، وسار الموارنة إلى سهل البقاع ونهبوا عددا من القرى ، ثم واصلوا زحفهم الى بعلبك واحرقوا بعض القرى وخلقوا حالة من الفوضى في المنطقة وكان يساندهم الاسطول البيزنطي المرابط قبالة شواطىء طرابلس الذي أخذ يمدهم بالمساعدة، بالمقابل قام العباسيون باتخاذ الاجراءات لردع هذه الحركة حيث أُرسل إليهم جيش بقيادة صالح بن علي بن عبد الله بن العباس الذي كان والياً على الشام آنذاكلاخضاع الموارنة بالقوة ، واستطاع والي الشام أن يهزم الموارنة ، وقام العباسيون بمعاقبة الموارنة على حركتهم، الأمر الذي دفع الإمام الأوزاعي للتدخل فكتب رسالة إلى وإلي الشام صالح بن علي جاء فيها : « وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن لهم ممالئا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورردت باقيهم الى قراهم ما قد عملت، فكيف يؤخذ العامة بذنوب الخاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى (ولاتزرو وازرة وزرة أُخرى)»[44].

كما عمل العباسيون على إجلاء بعض

الموارنة عن جبل لبنان وأحلوا مكانهم بعض القبائل العربية الموالية للعباسيين، وكان الغرض من ذلك ، أولاً : ايجاد نوع من التوازن بين النصارى والمسلمين في لبنان، وثانياً : هو الوقوف في وجه الدولة البيزنطية إذ يكون قبائل المسلمين فيها بمثابة حاجز يفصل الموارنة عن البيزنطينين ووضع حد لتمرداتهم ضد الدولة العباسية [45].

لم يكتفِ الموارنة بحركة المنيطرة وانما واصلوا تمرداتهم في وجه الدولة العباسية بين الحين والآخر، بينما قام العباسيون بإسكان الأرسلانيين[46] بجانب الموارنة ، وكان الارسلانيون أعداءً للموارنة ، ففي سنة (262هـ / 875 م) أوكل المتوكل للأرسلانيين أمر التصدي للموارنة فساروا إليهم بقيادة الأمير نعمان حاكم بيروت وجرت معارك عنيفة بين الطرفين قتل خلالها العديد من الموارنة وكافأ المتوكل الارسلانيين لتصديهم للموارنة والنصر عليهم [47]، وبذلك يمكن القول ان العباسيين قد تصدوا للموارنة باستخدام القوة تارة واللجوء إلى سياسة إسكان القبائل العربية الإسلامية في جبل لبنان تارة أخرى ، على العكس من الدولة الأموية التي اتخذت سياسة مغايرة ، وذلك من خلال إعطاء بعض الامتيازات للموارنة من أجل الحد من تمرداتهم وتعاونهم مع البيزنطينيين .

◄ خامساً :. الموارنة والحملات الصليبية (482– 692هـ / 1089– 1292م) :.

تعود الحملات العسكرية التي شنها الغرب الأوربي ضد المدن الاسلامية الى أواخر القرن الحادي عشر واستمرت لغاية أواخر القرن الثالث عشر الميلادي أي أنها استمرت قرابة قرنين من الزمن، وكان الهدف من هذه الحروب حسب رأي المنادين بها هي لأجل استرداد الأراضي المقدسة وخصوصاً القدس حيث ((قبر السيد المسيح عليه السلام في زعمهم)) من السلاجقة والفاطميين، الذين كانوا يسيطرون على بلاد الشام ومصر، وكانت حجتهم في ذلك هي سوء معاملة المسلمين للحجاج المسيحيين ، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العباسية ضعيفة ومفككة وتشهد صراعات بين السلاجقة والفاطميين[48].

قام البابا أوربانوس الثاني في سنة (489هـ / 1095م) بتوجيه خطاب في مدينة كليرمونت في جنوب فرنسا بحضور مائتين وخمسين أسقفاً، وثلاثة عشر من رؤساء الأساقفة وعدداً كبيراً من الأمراء والنبلاء وعشرات الألوف من أتباع الكنيسة وقال أوربانوس للجموع المحتشدة: « ياشعب فرنجة، شعب الله المحبوب المختار لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية، أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد مايكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين .... " [49].

ثم سار أوربانوس إلى مدن أخرى في فرنسا وأروبا داعياً إلى الحرب المقدسة ، والسبب الذي حمل اروبانوس لهذا العمل هو التحريض الذي لقيه من ملك روما هاليكس ، فضلاً عن أنَ البطاركة الذين زاروا القدس وعادوا إلى بلادهم ادعوا أنَ النصارى يتلقون الإهانات على أيدي المسلمين ، وكان منهم الحبيس بطرس الفرنساوي[50]، مما دفع أوربانوس بدعوته مدة تسعة أشهر متنقلاً بين المجتمعات والمدن الأوربية ، إلى أنَ وصل إلى مدينة روما التي استقبلته استقبال الفاتحين المنتصرين ، وأمر الذاهبين الى المشرق أن يضعوا علامة الصليب على صدورهم ومن أجل ذلك سمية بالحروب الصليبية .

وعلى الرغم من إضفاء الصبغة الدينية على الحملات الصليبية إلا أنَ هناك دوافع أخرى للحرب منها منافسة الأمراء والملوك والإقطاعيين حول اكتساب أراضي جديدة لهم ،والحصول على

الثروات الزارعية في البلاد الإسلامية ، أما مايخص التجار فقد ساندوا الحملة وكانوا من أشد المهتمين بالفوائد التجارية وإرسال سلعهم بعد أن يتمكنوا من الإستيلاء على تلك الاراضي وتوسيع تجارتهم ،فضلا عن المغامرين والمحرومين (المعدومين) في البلاد الأوربية من الحقوق السياسية والاقتصادية فكل هؤلاء كانوا مستعدين للحرب لتحقيق أطماعهم الشخصية [51]. استجابت الدول الأوربية للبابا أوربانوس الثاني وانطلقت الحملة الأولى من أروبا سنة (490هـ / 1096م) وبدأوا بزحفهم نحو المشرق العربي باتجاه الأراضي المقدسة وكانت نقطة التقائهم في القسطنطينية التي وصلوا اليها في نفس السنة ، وكانت هذه الحملة بقيادة البطريك بطرس الناسك [52]، وتمكنوا من احتلال مدينة نيقيا بعد ان استسلمت حاميتها السلجوقية بعد حصار قصير في سنة (491هـ / 1097م)، ثم واصلوا زحفهم إلى مدينة انطاكية وكانت انطاكية المدينة السورية الأولى في طريق الجيش الصليبي ، وكانت هذه المدينة مهداً للمسيحية بعد القدس، بدأ الصليبيون بفرض حصار طويل على المدينة لشدة المقاومة فيها فامتد الحصار من سنة (491هـ / 1097) إلى (492هـ / 1098 م) وتمكنوا فيما بعد من احتلالها بفضل خيانة صدرت من قائد أرمني كان يتولى حراسة احد أبراجها أدت إلى سقوط المدينة [53].

وما أن عبرت القوات الصليبية جبال طرطوس حتى بدأت الخلافات تظهر بين قادة الجيوش الصليبية ، وأخذ كل قائد يضع الخطط الخاصة به من أجل التوسيع في الأراضي التي استولى عليها، كما اندفعت احدى القوات الصليبية بقيادة الكونت ريمند نحو (معرة النعمان) بين حلب ودمشق فاحتلها[54]، ثم احتل حصن الاكراد ذا الموقع الحصين الذي يربط بين السهول الساحلية وسهول العاصي، ثم وصلوا زحفهم الى مدينة عرقة في عكار وبعد حصار مدينة عرقة مايقارب أربعة أشهر تمكن الصليبيون من احتلالها، ثم بلغت القوات الصليبية ضواحي طرابلس ومن بعدها البترون، وتشير المصادر إلى أنه في مدينة البترون بدأ أول اتصال بين الموارنة والصليبيين ، حيث قدم الموارنة المساعدات للصليبين فزودوهم بالرجال والمؤن وعملوا لديهم كأدلاء على الطرق[55]، فقد قدموا لهم مايحتاجون إليه من المعلومات عن الطريق المؤدية إلى القدس ورسموا لهم الطرق الثلاثة التي يجب عليهم اتباعها ، وكان النساك والرهبان ينزلون من الجبل لتحية المحاربين الصليبيين[56]، وتقدر بعض المصادر عدد الموارنة الذين نزلوا من الجبل والتحقوا بالصليبيين بـ(25) الف رجل[57]، وكان على كرسي البطريركية المارونية البطريك (يوسف الجرجسي) وهذا البطريك كان قد حدد علاقة الموارنة بالصليبيين على أسس تحالف الموارنة مع الحملة الأولى وتقديم كل الخدمات للصليبيين[58].

وعندما احتل الصليبيون القدس في سنة (493هـ / 1099م) شارك الموارنة في احتلالها قدروقدرٍ عدد الموارنة المشاركيين بـ (12) الفا كانوا في القدس لحراستها[59].

قدر عدد الموارنة المشاركيين بـ (12) الفاً كانوا في القدس لحراستها ، وأقام الصليبيون غودفروا حاكماً لهم على القدس[60]، وبمناسبة ذلك أرسل البطريك الماروني وفداً مع الوفد الذي أرسله غودفروا إلى البابا بسكاليس الثاني الذي خلف البابا أورباس الثاني (لأن الأخير توفى قبل احتلال القدس بأربعة عشر يوم) وقام بسكاليس الثاني بدوره بإرسال تاج وعكاز إلى البطريك الماروني إكراماً لجهوده [61]، وبذلك كان البابا بسكاليس الثاني قد فرح بمشاركة الموارنة ووقوفهم بجانب الصليبيين وتقديم الخدمات لهم ولذلك منح الصليبيون الموارنة صلاحيات دينيةٍ وسياسيةٍ واسعةٍ وأقاموا معهم علاقات اجتماعية وسياسية.

وفي سنة (504هـ / 1110م) احتل الصليبيون بيروت بمشاركة الموارنة [62]، وقاموا بهدم المساجد والزوايا الصوفية الاسلامية ماعدا زاوية الإمام الأوزاعي ، وكان ذلك بناء على طلب البطريك الماروني لما قام به الإمام أثناء حركة المنيطرة للدفاع عن الموارنة [63].

كان لإتصال الموارنة بالصليبين نتائج ايجابية وسلبية بالنسبة لهم على الصعيد الديني والسياسي والاقتصادي ، نستخلصها بمايلي ، فيما يخص الجانب الديني فان الاتصال جعل العديد من الموارنة يتصلون بكنيسة روما، وعندما زار البطريك الماروني أرميا العمشني روما في سنة (610 هـ / 1213 م) والتقى بالبابا اينوشنسيوس الثالث وسأله البطريك الماروني بركته له ولشعبه (الموارنة)، فاجابه البابا على كل ماسأله ، وبقي هذا البطريك في روما مدة خمس سنوات وستة أشهر ، ولما رجع البطريك الماروني أرسل معه الكردينال غوليلمس مفوضاً إليه أن ياخذ من موارنة لبنان دستور اعترافهم بالإيمان ، ولما وصل البطريك الى طرابلس جمع الموارنة وأبلغهم بحلول بركة البابا (اينوشنسيوس الثالث) وانشأوا صكاً أثبتوا به إيمانهم ، وأنهم متشبثون بإيمان القديس (بطرس) لايزيغون عنه ، وسلموا ذلك الصك إلى الكردينال (غوليلمس) وكان عدد الذين وقعوا عليه (170) مارونياً [64]، كما أدخل البطريك أرميا العمشني تغيرات فيما يتعلق بخدمة القداس وطقوس العبادة [65].

أما المسائل الدينية الأخرى فهي مايتعلق بمسائل مذهبية، فقد تخلت المارونية عن طقوسها الدينية لتتبنى الطقوس الافرنجية ففي سنة (609هـ/1112م) واستعملت الكنائس المسيحية المارونية الأجراس بدل نواقيس الخشب التي كانوا يستخدمونها قبل هذا التاريخ، وكان ذلك اقتداءً بالكنائس الإفرنجية ، وفي أثناء الحملات الصليبية بدأ الموارنة ببناء الكنائس والأديرة والمدارس[66]، ويدل ذلك على أن الموارنة قد جمعوا الأموال حالهم حال في ذلك حال الصليبيين ، فضلاً عن أنهم استقروا سياسياً في ظل هذه الحملات بعد أن حصلوا على الدعم والحماية .

أما من الناحية السياسية فقد ساد التقارب بين الموارنة والصليبيين بحيث أصبح جبل لبنان يتمتع بشيء من الاستقلال الإداري والسياسي والاجتماعي عن الدول والإمارات الأسلامية يتمتع بشيء من الاستقلال الإداري والسياسي والاجتماعي عن الدول والإمارات الإسلامية وأصبح للموارنة إمتيازات خاصة بسبب مساعدتهم للصليبيين ، كانت نتيجة هذه العلاقة التقارب الماروني الفرنسي ، فقد اصبح الموارنة أصحاب حضوة لدى فرنسا، وزود الموارنة الحملة الصليبية الثامنة التي قادها الملك لويس التاسع سنة (648 هـ / 1250 م) بالرجال والعتاد لكن الحملة فشلت ولم تحقق أهدافها، وأصبح الموارنة محط انظار فرنسا وقد أرسل ملك فرنسا رسالة الى البطريك الماروني تعهد فيها بتقديم الحماية لهم قائلا « إننا مقتنعون بأن هذه الأمة التي نجدها منظمة تحت اسم مار مارون هي جزء من الأمة الفرنسية «[67]. وبالمقابل وجد الموارنة في فرنسا حامية قوية لهم واستمرت هذه العلاقة على مدى تاريخ لبنان الحديث والمعاصر .

اما مايخص الطابع السلبي من العلاقات المارونية الصليبية فقد بدأ بعد قيام دولة الافرنج لتثبيت سيطرتهم على بلاد الشام ، وقد رحب الموارنة بهم على الرغم من الفارق الكبير بين الموارنة والصليبيين في مسالة التنظيم والاقتصاد، فالتنظيم الديني والسياسي عند الموارنة لم يكن وراثياً بل كانوا يختارون الكفوء من البطاركة والقادة العسكريين، وكان ذلك على عكس الافرنج الذين كانوا يعملون بالنظام الوراثي، أما على الصعيد الاقتصادي فقد كان النظام الصليبي

الاقتصادي هو نظاماً اقطاعياً ، أي أن الاقطاعي هو سيد الارض بما فيها من العبيد .

وأما في النظام الاقتصادي لدى الموارنة فقد كان الفلاح جزءاً من المجتمع يتمتع بالحرية المطلقة ويعدَّ مالكاً للارض، لذلك نجد هناك اختلافاً بين النظام المعمول به لدى الموارنة والإفرنج ، ونتيجة لذلك كان هناك استياءً نوعاً ما من قبل الإفرنج من حلفائهم الموارنة، فبعد سيطرة الإفرنج على المدن اللبنانية إصبحوا ينظرون إلى الموارنة نظرة استقلالية [68] .

ظل الموارنة حليفاً قوياً للصليبيين وارتبطو بالكنيسة البابوية في روما لكن هذا الارتباط تأخر إلى سنة (1149هـ/1736م) عندما اتحدت الكنيسة المارونية مع الكنيسة البابوية بروما،فضلاً عن ذلك نجد انه عندما بدأت حروب التحرير التي شنها الايوبيون والمماليك ضد الصليبين التي اضطر بعدها الصليبيين إلى مغادرة الأراضي الإسلامية في المشرق متوجهين الى جزيرة قبرص التي كانت انذاك مستعمرة أوربية ، أخذ بعض الموارنة في جبل لبنان يهاجرون مع الصليبيون إلى قبرص[69]، أما الصليبيون الذين لم يتمكنوا من الهرب فقد نزحوا الى جبل لبنان واستوطنوه ولاتزال الى اليوم بعض العائلات المارونية في لبنان تنسب إلى الصليبيين منها ال فرنجة وال الصليبي وال بردويل وال طربيه وال صوايا وال دويهي ,من كل من اشرنا إليهم سابقا نستدل على ان هناك علاقات وطيدة بين الطرفيين لتحقيق اهدافهم سواءً كانت هذه الأهداف دينية أم سياسية ، باعتبار أن عدوهم وقضيتهم هي واحدة ، وكانت هناك روابط بين الطرفين حتى بعد إنهاء الوجود الصليبي في المنطقة ، فاتصال الموارنة بالغرب له تاريخ طويل حيث استنجدوا بالرومان والبيزنطة ضد اعدائهم اليعاقبة ، ثم ضد المسلمين باتصالهم ومشاركتهم بالحملات الصليبية وبعد ذلك اتصلوا بفرنسا التي كانت تدعمهم في تركيز نفوذهم في لبنان والتي اعتبروها الدولة الراعية الأم فهيأت هذه الاجواء أن يكون الموارنة لهم مركز مؤثر في جبل لبنان .

◄ الخاتمة :

برز الموارنة كطائفة سياسية بعد وفاة «مار مارون» الذي ينتسب إليه الموارنة ، والذي اتخذوا من قبره مزاراً ومقاماً ورمزاً لهم،وسمي أتباعه من بعده بالموارنة.

شهد القرن الرابع الميلادي جدل حول طبيعة السيد المسيح،وكان للموارنة نصيب من هذا الجدل الذي تحول إلى صراعات بينهم وبين اليعاقبةوالذيأدى إلى هجرتهم من شمالي سوريا إلى جبل لبنان ليكونوا في مأمن من خصمهم اليعاقبة ثم بعد ذلك بدأ نشاط الموارنة يزداد في جبل لبنان إلى أن أصبحت هذه المنطقة مركزاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لهذه الطائفة .

بعد ان حرر المسلمون بلاد الشام وبدأوا بفتوحاتهم نحو المناطق السورية واللبنانية،وقعت هذه الطائفة تحت الحكم الإسلامي وكانت الدولة الأموية هي التي تحكم بلاد الشام ، وكان الموارنة يسببون بعض المشاكل للدولة الأموية بين الحين والأخر من خلال العصيان الذي كان يقومون به بدعم من الدولة البيزنطية التي كانت تحرض الموارنة على الحكم الأسلامي في بلاد الشام، في حين كانت سياسة الدولة الأموية تجاه الموارنة سياسة لين وتسامح ففي كثير من الأحيان كان الأمويون يعفون الموارنة من الجزية وكانوا يمارسون طقوسهم بحرية تامة .

أما في العهد العباسي فقد شهد تمردات مارونية ضده ومنها الذي حصل في سنة (759م) وقد عاملها العباسيون باستخدام القوة من أجل الحد من هذه التمردات ، و التجأ العباسيون فضلا عن ذلك

إلى سياسة إسكان المسلمين في مناطق الموارنة من أجل خلق نوع من التوازن بين الطرفين، كما كان للموارنة دور في الحملات الصليبية التي وجهها الغرب على الأراضي الأسلامية حيث انضم الموارنة إلى جانب الصليبيين من خلال تقديم المؤن والخدمات التي تخص مصالح الصليبين ، وعملوا كأدلاء للغرب وخاصة عندما توجه الصليبيين نحو القدس وكان لهذا الأتصال الماروني الصليبي تأثير ديني وسياسي على الطائفة المارونية .

◄ الهوامش والاحالات:

1 – اسعد جرمانوس ، اصوال المارونية السياسية والجذور الحريات اللبنانية ، دار المرد ، (بيروت – 1996) ، ص 20 ؛ ايليا حريق ، التحول السياسي في تاريخ لبنان الحديث ، دار الاهلية ، (بيروت1982-) ، ص 29

2 – هاني فارس ، النزعات الطائفية في تاريخ لبنان الحديث ، دار الاهلية ، (بيروت – 1980) ،ص 43.

3 – خلدون عريمط ، الموارنة في لبنان بين العروبة والاسلام ، دار النهضة العربية ، ط1 ، (بيروت – 2009) ص46.

4 – هنري لامس اليسوعي ، تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من اثار ، القسم الثاني ، دار الرائد (بيروت –د،ت) ص162.

5 – انيس الصائغ ، لبنان الطائفي ،دار الصراع الفكري ، (بيروت – 1995) ، ص 46 .

6 – المطران يوسف الدبس ، تاريخ سوريا الدنيوي والديني ، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ، ج9 ، مراجعة : مارون رعد ، اشراف : نظير عبود ، دار النظير عبود ، (د،ت- د،م) ، ص 18-17 ؛ علي سليمان مقداد لبنان من الطوائف الى الطائف المركز العربي اللابحاث والتوثيق ، ط1 ، (بيروت – 1999) ، ص17 .

7 – الصائغ ، لبنان الطائفي ، ص 46 .

8 – حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، القسم الرابع ... ، ص 140 ؛ اليسوعي ، تسريح الابصار ...، ص92 .

9 – جرمانوس ، ا صول المارونية السياسية ...،ص 20 .

10 – اليعاقبة : يطلق هذه التسمية على المسيحين من الطائفة السريانية المونفيسية وذلك نسبة الى يعقوب البرادعي الذي تبنى نظرية الطبيعة الواحدة للسيد المسيح وبذلك سموا اتباعه باليعاقبة ؛ هنري س عبودي ، معجم الحضارات السامية ، ط2 ، (طرابلس- 1991) ،ص 914 .

11 – فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج1 ، ترجمة : جورج حداد وعبد الكريم رافق ، مراجعة : جبرائيل جبور ، دار الثقافة ، (بيروت –د،ت) ،ص 140 ؛ الصائغ لبنان الطائفي ،ص46 ؛ فارس ، النزعات الطائفية ...، ص 43 ؛حريق ، التحول السياسي ... ،ص 31 .

12 – اليسوعي ، تسريح الابصار ... ، 53 .

13 – جوزيف صقر ، قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الامس واليوم لبنان ،ج1 ، من عصور ماقبل التاريخ حتى عهد المتصرفية ،(بيروت – د،م) ، ص 95.

14 – عريمط ، الموارنة في لبنان ...، ص31 .

15 – اغناطيوس ديك ، المسيحية في سوريا تاريخ واشعاع (العصر القديم من نشاة المسيحية الى الفتح العربي) ،مجلد الاول ، طبعة الاحسان للروم الكاثوليك ، (حلب – 2007) ، ص11 .

16 – حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ص371-370 .

17 - سعيد عبد الفتاح عاشور ، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، (بيروت – 1972) ،ص40.

18 – عريمط ، الموارنة في لبنان ... ، ص 32 .

19 – ولد في سنة 259 كان ليبي الاصل ثم اصبح

كاهنا في اسكندرية وقد كفره مجمع عقد في الاسكندرية فاضطر الى الجوء الى فلسطين والفا كتابا بعنوان (ثاليا) اي المائدة فيه تعمد اسلوبا يجمع بين النثر والشعر ترويجا لاقواله لنشره بين اوساط المحترفيين واهل الصناعات ؛ جورج شحاته قنواتي ، المسيحية والحضارة العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (د،م–د،ت) ،ص15 .

20 – عريمط ، الموارنة في لبنان ... ، ص 40 ؛ المقداد ، لبنان من الطوائف الى الطائف ،ص 19 .

21 – ولد الاسقف يعقوب البرادعي في تلا في سوريا نحوا عام 490 م وتوفي عام 578م اتبع مدرسة سويروس رئيس مذهب الطبيعة الواحدة وعين اسقفا على الرها في 543 م خصص كل نشاطه للدفاع عن المذهب الطبيعة الواحدة الامر الذي اعتبره اصحاب الطبيعة الواحدة مؤسس كنيستهم فاصبحوا يعرفون باسم (اليعاقبة) .؛ عبودي ، معجم الحضارات السامية ، ص 914 .

22 – بييروند ، الطوائف في الدولة اللبنانية ، تقديم : الياس عبود ، دار الكتاب الحديث ، ط1 ، (بيروت – 1984)، ص43 .

23 –جوزيف صقر ، قصة وتاريخ الحضارات العربية (تاريخية – جغرافية – وادبية) ، لبنان (1) من عصور ماقبل التاريخ حتى عهد المتصرفية ، (د.م– 1999) ، ص 145.

24 الصائغ ، لبنان الطائفي ، ص 55 .

25 – احمد عارف زين ، تاريخ صيدا يحوي تاريخها وسائر شونها منذ عمرانها الى وقتنا الحاضر ، طبعة العرفان ،(صيدا – 1913) ، ص 52 .

26 –الجراجمة : نسبة الى المدينة التي ينتمون اليها (جرجومة) في جبل اللكام وكانوا قبائل مشهورين بالقتال والحروب ، وكانوا يسمون ايضا بالمردة لانهم كانوا يعارضون الحكومات ويقومون بالتمرد ولذلك سموا بالمردة ؛ اسعد جرمانوس ، اصول المارونية السياسية ... ، ص22 – 23؛ هاني فارس ، النزعات الطائفية في تاريخ لبنان الحديث ، دار الاهلية للنشر ، (بيروت – 1980) ، ص44 ؛ حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص 53.

27 – صقر ، قصة وتاريخ الحضارات العربية ، ص 146 .

28 – صقر يوسف صقر ، عاءلات حكمت لبنان ، المركز العربي للمعلومات ، ط1 ، (بيروت – 2008) ، ص 32 .

29 – حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص 54 ؛ الصائغ ، لبنان الطائفي ، ص 57 .

30 – الدبس، تاريخ سوريا الدنيوي والديني ... ، ص 36 ؛ حمد علي ضناوي ، قراءة اسلامية في تاريخ لبنان والمنطقة من الفتح الاسلامي ونشاة المارونية حتى 1840، مكتبة الايمان للنشر، ط3، (د،م2004–)، ص33.

31 – الصائغ ، لبنان الطائفي ، ص 63 .

32 – حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص 53 ؛ صقر ، قصة وتاريخ الحضارات العربية ...،ص147.

33 – صقر ، قصة وتاريخ الحضارات العربية ... ص148 .

34 – الدبس، تاريخ سوريا الدنيوي والديني ...، ص59؛ جرمانوس ، اصول المارونية السياسية ...،ص 30.

35 – حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص 141 ؛ عريمط ،الموارنة في لبنان ...، ص 53 .

36 – الدبس ، تاريخ سوريا الدنيوي والديني ... ، ص59 ؛ جرمانوس ، اصول المارونية السياسية ...،ص 30.

37 – الصائغ ، لبنان الطائفي ، ص 67.

38 – حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص54.

39 – جرمانوس ، اصول المارونية السياسية ...،ص 32 ؛ الصائغ ، لبنان الطائفي ، ص69 .

40 – الامير حيدر الشهابي ، تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي ج1 ، دار الاثار ، ط2 ، (بيروت – 1980) ، ص 68؛ عريمط ، الموارنة في لبنان ... ، ص55 .

41 –حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ،ص 167 ؛ جرمانوس ، اصول المارونية السياسية ...،ص 33 .

42 – الصائغ ، لبنان الطائفي ... ، ص 55 .

43 – حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص 167.

44 – جرمانوس ، اصول المارونية السياسية ... ، ص

45 –حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ص 170 ؛ الصائغ ، لبنان الطائفي ... ، ص69 .

46 –الارسلانيين :هم من القبائل العربية التنوخية القحطانية التي تعود اصلها الى بلاد اليمن والى القبائل الازد وقضاعة ويعتبرون من ابرز عوائل الموحدين الدروز في لبنان واشتهر الارسلانيون كمحاربين اشداء ؛ صقر ، عائلات حكمت لبنان ، ص 46 .

47 – الصائغ ، لبنان الطائفي ، ص 70 .

48 – للمزيد ينظر : الامير حيدر الشهابي ، تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي ج 1 ، دار الاثار ، ط2 ، (بيروت – 1980) ص 304 ؛ صقر ، قصة وتاريخ الحضارات العربية ... ، ص 155 ؛ سهيل زكار ، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية ، ج3 ، (دمشق – 1995) .

49 – ول وايريلديورانت ، قصة الحضارات (عصر الايمان) ، ج 16–15 ، ترجمة محمد بدران ، دار الجيل ، (بيروت – 2010) ،ص 12 .

50 – اسطفانوس الدويهي ، تاريخ الازمنة (–1095 1699 م) ، تعليق : الاب فرديناد توتلاليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، (بيروت – 1951) ،ص 4 .

51 – ديورانت ، قصة الحضارات ، ج 16–15 ، ص 13–12 .

52 – زكار ، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية ، ج6 ، ص 79 .

53 – الدويهي، تاريخ الازمنة (1905– 1699)، ص 8–7 ؛حتي، تاريخ سوريا ولبنانوفلسطين، ص 226 .

54 –زكار ، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية ، ج6 ،ص 242 .

55 – الدويهي ، تاريخ الازمنة (1095 – 1699) ، ص 9 ؛ فارس النزاعات الطائفية ... ، ص 46 ؛ الصائغ ، لبنان الطائفي ، ص 75 ؛ مجموعة من المؤلفين ، موسوعة الحضارة العربية الاسلامية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ط1 ، (بيروت – 1995) ،ص 230.

56 – الصائغ ، لبنان الطائفي ، ص 75 .

57 – صقر ، قصة وتاريخ الحضارات العربية ، ص 160 .

58 –جرومانوس ، اصول المارونية السياسية ، ص65.

59 – الصائغ ، لبنان الطائفي ، ص 75 .

60 – ديورانت ، قصة الحضارات ، ج 16–15 ، ص 26 ؛ زكار ، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية ،ج 6 ، ص 367 .

61 – الدويهي ، تاريخ الازمنة (1095 – 1699) ، ص 11 ؛ الدبس ، تاريخ الموارنة ... ، ص 165 . ، جرمانوس ، اصول المارونية السياسية ... ، ص 66 .

62 – الصائغ لبنان الطائفي ،ص 74 .

63 – جرمانوس ، اصول المارونية السياسية ... ، ص 66 .

64 – الدبس ، تاريخ الموارنة ... ،ص 173 .

65 –ضناوي ، قراءة اسلامية في تاريخ لبنان ...، ص 69 .

66 – الدويهي ، تاريخ الازمنة (1095 – 1699) ، ص 22 ؛ جرمانوس ، اصول المارونية السياسية ... ، ص 73 . ضناوي ، قراءة اسلامية في تاريخ لبنان ... ، ص 69 .

67 – فارس ، النزعات الطائفية ... ، ص 46 .

68 – جرمانوس ، اصول المارونية السياسية ...، ص 68 .

69 –عريمط ، الموارنة في لبنان ... ، ص 68 .

علم الأسلحة خلال العصر السعدي من خلال مخطوط "العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع"

أ. د امبارك بوعصب
أستاذ التعليم العالي مساعد
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين - القنيطرة -المملكة المغربية

تقديم:

يعد موضوع الأسلحة والتسلح من القضايا التي حظيت ومازالت باهتمام الباحثين وطنيا ودوليا، ورغم ما هو متوفر من كتابات حول ظاهرة التسلح بصفة عامة، فإن تاريخ الأسلحة بالمغرب مازال يشوبه كثير من الغموض، ويثير مجموعة من الأسئلة حول المصادر والأنواع، وطرق التصنيع، والدور السياسي للأسلحة وغيرها... كما أن جزءا مهما من التراث الحربي والعسكري للأمة العربية والإسلامية مازال مبعثرا بين متاحف ومكتبات العالم، ولعل دراسته وتحقيقه من شأنه أن يجيبناعلى عدد كبير من الأسئلة مازالت عالقة.

وقد أولى السعديون اهتماماً كبيراً لصناعة الأسلحة منذ نشأة دولتهم، ويمكن القول إن تطوره رافق تطور المشروع السياسي للدولة السعدية منذ بدايتها، وذلك لإدراكهم الأهمية الكبيرة لامتلاك وتصنيع الأسلحة وخاصة صنف المدفعية في خوض المعارك، مما دفعهم إلى الاهتمام بإنتاج قطع المدفعية بتعدد أحجامها واختلاف أشكالها وتباين عياراتها النارية، واضعين بذلك أسس صناعة معدنية متقدمة. وقد اعتمدوا في ذلك على الخبرة الكبيرة التي تميز بها المغاربة في ميدان التعدين، وعلى التقنيين الأجانب وخاصة الخبرة الهولندية في هذه الصناعة التي ميزت الهولنديين عن كافة الأوربيين.

ولاشك أن السعديين استفادوا في ذلك من العلاقات المتينة التي كانت تربط بين السلطان السعدي أبي المعالي زيدان والولايات العامة (هولندا) التي يعتبر المغرب أول دولة اعترف باستقلالها، وبموازاة مع ذلك جاء مخطوط «العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع» لإبراهيم بن أحمد الأندلسي[1]، ليؤكد التوجه العام للدولة السعدية فيما يتعلق بعلم الأسلحة، الذي لا يرتبط فقط بالصناعة التعدينية، بقدر ما يرتبط بجوانب تقنية أخرى وعلى رأسها صناعة المتفجرات، وفي هذا الباب يعتبر الأتراك ابرز من اهتموا بهذا المجال.

وللإشارة فإن المخطوط المذكور يقدم لنا أوصافا دقيقة للطريقة المتبعة آنذاك في صناعة واستعمال المدافع ومختلف التقنيات المرتبطة بها، بل يعد من بين المصادر الأساسية في التاريخ العسكري، خاصة في مجال صناعة البارود والآلات الحربية.

وبالنظر إلى الحمولة العلمية التي يتضمنها المخطوط فلا يتسع المقام في هذا المقال للإتيان على ذكرها كاملة؛ لذلك سنقتصر على طرح السؤالين التاليين اللذان يتعلق احدهما بهيكل القطع المدفعية، بينما يتعلق السؤال الثاني بالجانب الوظيفي لأجزاء كل قطعة على حدة:

ماهي أنواع الأسلحة الثقيلة التي وردت في المخطوط من حيث أحجامها وأشكالها والمعادن المستعملة في صناعتها؟

ماهي مسميات أجزاء القطع المدفعية ووظائفها وتقنيات استعمالها، واختلافها من مدفع إلى آخر وذلك بحسب الوظيفة المخصصة له؟

◄معطيات تاريخية حول المخطوط:

ألفه بالإسبانية؛ إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي الملقب بـ: "ريفاس" في تونس سنة: 1042هـ، ثم ترجمه بعد ذلك ترجمان السلطان السعدي أبي المعالي زيدان: أحمد بن قاسم بن أحمد الحجري، بمساعدة بعض أبنائه ومن أهمهم ابنه محمد خوجه سنة: 1044هـ[2].

وقد كان المؤلف واعيا بأن الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط وتحديدا اسبانيا تحاول فرض سيطرتها على الضفة الجنوبية، لذلك ألف هذا المخطوط في محاولة منه على الأقل التأسيس لمرحلة جديدة قد تعيد التوازن بين ضفتي المتوسط، كما كان واعيا بحجم التأخر الذي كانت تعرفه مجموعة من الأقطار العربية خاصة على مستوى إدارة المجال العسكري.

ويشير الكتاني إلى أن نُسخ هذا المخطوط مكتوبة بخط مؤلفها (المترجم)، وهي محفوظة في المكتبة الوطنية بالرباط، وفي تركيا، وكذا في دار الكتب المصرية، فضلا عن نسختين أخريين، إحداهما في الخزانة الحسنية والأخرى في خزانة القرويين، لكن نسخة القرويين على حد تعبير الكتاني قد ضاعت[3].

وأثناء بحثي عن هذا المخطوط[4]، عثرت على نسخة منه محفوظة بالمكتبة الوطنية بالجزائر، في مجلد متوسط الحجم من كون من(241) صفحة تحت رقم: 1511. وتكاد تكون هذه النسخة متطابقة مع النسخة المحفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم: 2646، وتتكون من(236) صفحة، وهذه النسخة كتبت قبل النسخة الجزائرية بسنتين، أي: في سنة: 1048هـ.

بناء على المعلومات السابقة، نفترض أن نسخة المكتبة الوطنية بالجزائر ربما تكون هي نفس النسخة التي كانت بالقرويين، سيما وأن الكتاني عند ذكره للنسخ المحفوظة بالخزائن العالمية لهذا المخطوط، لم يذكر أن المكتبة الوطنية للجزائر تتوفر على نسخة منه.

أما نسخة الخزانة الوطنية فهي الأخرى في مجلد متوسط الحجم من(298) صفحة مسجلة تحت رقم: ج87 وتعد من أجود نسخ هذا المخطوط، حيث تضمنت مجموعة من الاستدراكات التي وضعها الناسخ على هامش الصفحات، ونظرا لأهمية المخطوط فقد تم تحقيقه في السنوات الأخيرة[5].

دوافع ابن غانم الأندلسي لكتابه «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات

الحروب والمدافع»

يصف ابن غانم الرياش الأسباب التي دفعته لتأليف كتابه هذا بقوله:» ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعين المرتبَين (المصنفين كجنود مدفعيين بالراتب) لامعرفة لهم بالعمل (على العمل بالمدافع)، وأنهم لا يعمَرون (أي لا يحشون المدافع) ولا يرمون بما يقتضيه العمل، عزمت على تصنيف هذا الكتاب، لأن كل مدفع له قيمة مال وتعب في إيجاده (أي في صنعه)، ثم يوكل على تسخيره (أي استعمال المدفع واستخدامه) والرمي به من يكسره ويفنيه (أي يعطبه) في الرمية الأولى أو في الثانية، والموكل عليه الذي يعمره (أي يلقمه) ويرميه (أي يرمي به) قريباً من الهلاك (أي أن الرامي الجاهل يعرض نفسه للهلاك)، فحملني على تصنيفه (تأليف الكتاب) النصح له و لمن وكله عليه. نسأل الله أن يقبل النية، إنها أبلغ من العمل، وأن يُيسر لي من يعربه بالعربية من الكلام الإسبانيول، وهو الكلام العجمي المتصرف (السائد) ببلاد الأندلس، ولا قصدت به نفعاً دنيوياً، بل الإخلاص لله تعالى بترجمته، لنكتب منه نسخاً ونبعثها إن شاء الله لبعض المواضع في بلاد المسلمين، ونذكر فيه ما يحصل النفع من وجوه، وللمدافعين القائمين بما يوجب عليهم من الحقوق فيما تصدَروا إليه وتكلفوا به من خدمة أمراء المسلمين، ويحصل لهم الأجر عند الله سبحانه بتفريج المسلمين بإتقان أعمالهم وتخويف أعدائهم الكافرين[6].

◄وصف عام للمخطوط.

إن هذا المخطوط يحتوي على خمسين باباً تضمنت وصفا دقيقا لتقنيات صنع آليات الحصار وأنواعها المختلفة ومكوناتها وحيل استعمالها وتحريكها، كما يتناول المخطوط مختلف أنواع المدافع وطرق وأسماء مواد تصنيعها وطرق تعبئتها والتعامل معها ونقلها وصيانتها فضلا عن تدقيقات حول طرق التصويب واختيار مسار الطلقة على خط مستقيم أو منحني، على مدى قصير أو طويل. ووصفت كذلك أنواع مختلفة من القذائف ككرة المدفع، والمتفجرات وغيرها، وطرق سحبها من المدافع في حالة تعطيلها، إضافة إلى المعادن التي تصنع منها وأشكالها، وكيفية استخدامها سواء التي تقذف كرات الحديد أو الحجارة أو غيرها، كما يقدم المؤلف شرحا كاملا لكيفية قياس مدى رمى المدافع بحيث تصل الأهداف المرجوة، مع شرح وافى لآلية تعمير المدافع وتفريغها، بالإضافة إلى ذكره الآلات التي تستخدم في تعمير المدافع وتحريكها وتبريدها، وغيرها من التفاصيل التي تتعلق بصناعة البارود والنصائح الأخرى التي تتعلق بمعرفة الأبعاد والقياسات، وكيفية التصرف في حال الحصار. والكور التي تُعمر بها المدافع والعربات التي تحمل عليها، والأفران التي تُصنع لتذويب المدافع لئلا تقع في أيدي العدو. وكل ذلك موضح برسوم توضيحية حاولنا استعراض معظمها في شكل واحد..

الصورة رقم: 1. منمنمات منتقاة من مخطوط: "العز

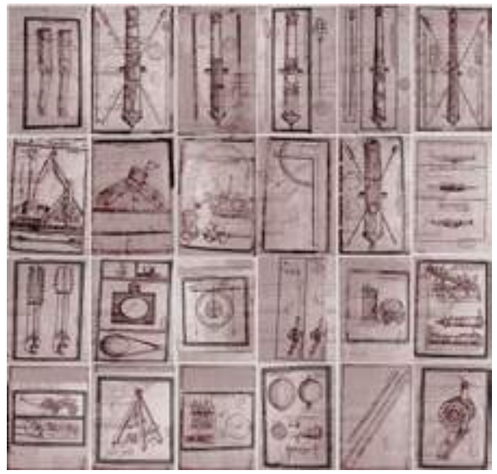

الرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع"

وقد كانت تلك الرسوم التوضيحية مرفقة

بنصوص شارحة لها، كتبت بخط مجوهر واضح كما يلاحظ ذلك من خلال المقاطع التالية:

كَيِّسا حذرا يتجنب كل ما من شأنه أن يؤدي إلى ضرر بالمدفع. واعتبر أن صناعة الحرب البارودية هي الأفضل من جميع الأسلحة الموجودة الآن للحروب

◄ أنواع المدافع وطرق وأسماء مواد تصنيعها وطرق تعبئتها.

أوضح مؤلف المخطوط في القسم الأول المعنون بأنواع المدافع أدواتها وطرق تثليثها، أن من المهام الأولى لرجل المدفعية؛ المعرفة الدقيقة بأنواع المدافع في طولها وعرضها وغلظها، ويحتاج أن يعرف تثليثها، وكذا تجريب المدفع الجديد وإفراغ المدفع من العمارة، ويعرف مكونات المدفع وكيف يصنع لولبه وعجلة السرير وتجريب البارود وغيرها، وان يكون التي يخاف الناس منها أكثر من غيرها[7]. وحصر أنواع المدافع في اثنان وثلاثون نوعًا، وأكد على ضرورة إتقان العامل بسلاح المدفعية جميع المسائل المرتبطة بأخذ المقاييس وتقدير مسافات الأهداف وأنواعها، ذلك؛ أن ما تُرمَى به الأسوار هو غير ما يحتاج إليه ضد السفن أو أبواب القلاع، وختم هذا الباب بالتذكير من جديد بأهمية المدافع وذلك بقوله: «واعلم أن صناعة الحرب البارودية هي أفضل من جميع الأسلحة الموجودة الآن للحروب التي هي يخاف الناس منها أكثر من غيرها»[8].

لقد ظهر واضحاً من خلال منهج الكتاب؛ متابعة ابن غانم الأندلسي للعمليات الحربية، من اختبار المعادن المناسبة لنوع المدفع، ثم طرق الصناعة، إلى مراحل إنتاج المدفع، وهكذا حتى عملية الرمي بالمدافع. ولعل تسجيل هذه المراحل تعطي للنص العسكري أهمية بالغة في مجال التراث الحربي.

كما أن الكتاب حوى كثيراً من المصطلحات العلمية والتعابير الفنية في مجال العلوم المدفعية.

وأورد ابن غانم الأندلسي في كتابه أنواعاً عديدة للمدافع خلال تصنيفها انطلاقاً من وزن عمارة البارود (الحشوة) التي تتطلبها بحسب حجم القذائف (الكور كما يسميها)، فيجعلها في اثنين وثلاثين نوعاً تضمها ثلاث فئات رئيسة[9]:

أ- النوع الأول، المدافع الطوال المسماة (القلبرينات): جمع قلبرينة، وتعني (الحية)، لأن الواحد منها طويل كالثعبان، وهي الأمتن والأصح من غيرها، حدد مكانها بالحصون والقلاع وتستعمل لهدم الأسوار[10]، وأيضا تحمل مع الجيش، تعمر بنصف وزن كراتها (قذائفها) من البارود، وهي ترمي على الأهداف البعيدة، وتضم خمس عشرة نوعاً فرعياً منها:

- المدافع نصف قلبرينة وربع قلبرينة: تستعمل في نفس الحصون والمحلات وتستعمل للرمي القريب عدا أن تعمر بقليل من البارود والكور، من خصائصها أنها سهلة التحريك ولا تحس السفن بها عند الرمي[11].

وينقسم هذا النوع الأول إلى ستة أنواع كل نوع محدد باسمه: شقر، ويرمي كرة من ثمانية أرطال إلى عشرة، وهناك أيضا نصف شقر، وبيانش، وبيلنتش، ومنييش، واشبيدش[12].

- أما الصنف الثاني (**ربع قلبيرينة**)، فيضم نصف مدفع، وربع مدفع، وتسخر لدك الحصون والأسوار والأبراج. طولها من ست وثلاثين قطر إلى ثمانية وثلاثين، وترمي بكرة من عشرة أرطال إلى أربع عشرة رطلا[13].

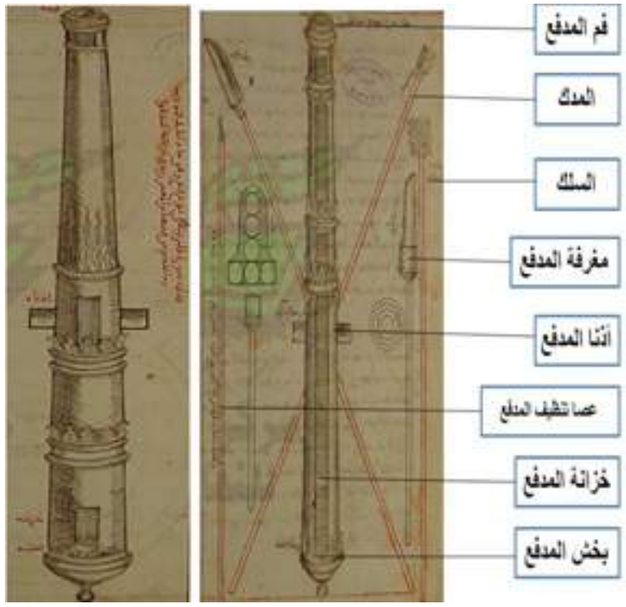

الصورة رقم: 2. مدفع من نوع قلبيرنة

ب- النوع الثاني، (القنيونات): ويسميها ابن غانم الأندلسي أحياناً (المدافع) أو (مدافع التهديم)، لأنها تستخدم لرميات التدمير بشكل خاص، وهي أقصر في الطول من القلبرينات، وتعمر بثلثي وزن قذائفها من البارود، إلا فيما يتعلق بثلاثة أنواع فرعية منها حيث يمكن تعميرها (تلقيمها) استثنائياً بمثل وزن كراتها من البارود، وهي تضم اثنا عشر نوعاً فرعياً وردت متفرقة في المخطوط ونوردها مجتمعة في

الجدول التالي:

مضيئة، ...) التي قد يتجاوز وزن الواحدة منها قنطاراً كاملاً(مائتا رطل). وهي امتداد للمنجنيقات

اسم المدفع	الطول	كتلة الرمي
- **المدفع البيان**	24 قطرا	10 أرطال
- **المدفع الباز**	32 قطرا	3 أرطال
- **المدفع الطيار**	30 قطرا	6 إلى 7 أرطال
- **المدفع الزربطان**	30 قطرا	5 إلى 12 رطلا
- **المدفع المخزني**	28 قطرا	30 رطلا
- **المدفع الناقوصي**	18 قطرا	30 رطلا فأكثر
- **المدفع الرهيف**	ما بين 17 و18 قطرا	30 رطلا
- **المدفع القتال**	30 قطرا	100 رطلا
- **المدفع الدبلي**	30 قطرا	130 رطلا
- **المدفع الخارجي**	26 إلى 28 قطرا	30 رطلا
- **المدفع المتان**	18 إلى 19 قطرا	30 إلى 60 رطلا
- **المدفع الصحيح**	18 إلى 19 قطرا	من 60 إلى 80 رطلا

جدول لأنواع مدفع القنيونات

ج- النوع الثالث، (الحجاريات): وهي مدافع قصيرة الطول، معدة لرمي الحجارة أو قذائف أخرى (قدور النفط، قطع الحديد، قذائف محرقة أو

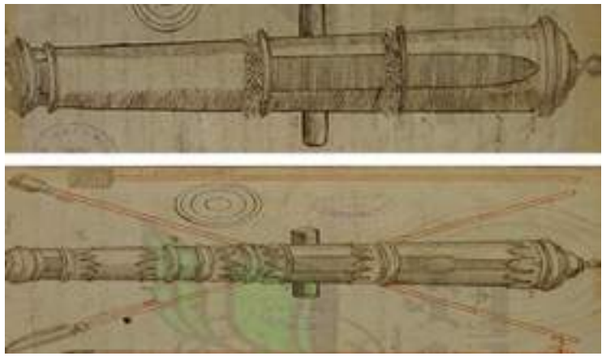

الصورة رقم: 3. مدفع من نوع القنيونات

التي يجعلها ابن غانم الأندلسي نوعاً فرعياً من المدافع، ويسميها (البَلشِطر) تحريفاً للكلمة الإسبانية (باليستا) التي تعني (منجنيقاً) أيضاً. وتعمر هذه المدافع بنصف وزن قذائفها، أو بثلث وزن قذائفها من البارود، و تضم ستة أنواع من المدافع. ويشمل هذا النوع أيضاً مدافع الهاون، التي يسميها المؤلف (المهارس) وهي جمع لكلمة مهراس التي تعني (الجرن) أو (الهاون)[41]. والمدافع الناقوصية، والمدافع المخزنية...

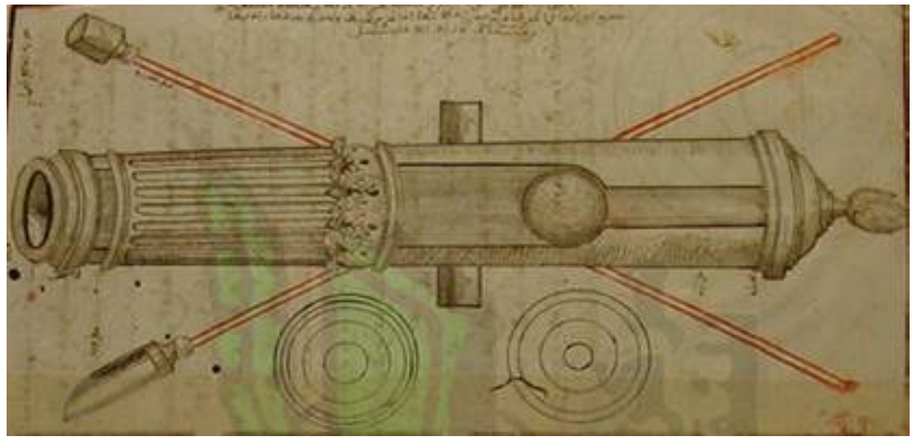

الصورة رقم: 4. مدفع من نوع الحجاريات

وفي إطار حديثه عن الآلات البارودية حدد مكونات ونسب المواد الأولية التي تدخل في صناعتها، فقال:» اعلم أن لعمل مدافع الحديد منها، أن لكل عشرة قناطر من نحاس وحديد يضاف إليه قنطار من قزدير، وإذا كان العمل من المدافع القديمة المهرسية فتكون الإضافة أقل من ذلك، أي لكل مائة جزء خمسة أجزاء»[51]. وتحدث كذلك عن مختلف تقنيات نقلها من مكان التصنيع إلى مكان الاستعمال، تبعا لأنواع المدافع والأمكنة المنقولة إليها.

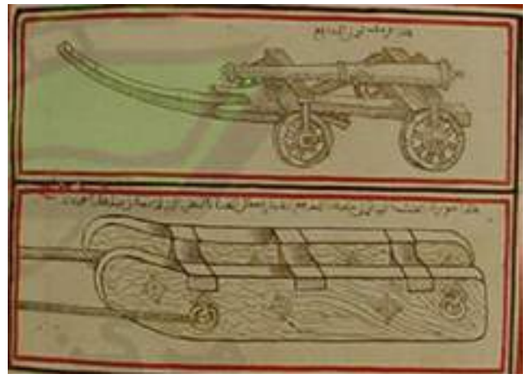

الصورة رقم: 5. طرق نقل المدافع

◄طرق التصويب واختيار مسار الطلقة.

ينبه المؤلف إلى ضرورة اتخاذ مجموعة من الاحتياطات ومراعاة الظروف العامة أثناءها الرمي؛ والرمي يتخذ عدد كبيرا من الأوجه نذكر منها[61].

الوجه الأول:الرومي لأبعد نقطة؛ إذا أمر المدافعي أن يرمي ابعد ما يمكن، فعليه أن ينظر إلى الدرجة الأعلى للرمي البعيد، والرمي للبعد المشهور والمتفق عليه هو إذا رفع رأس المدفع حتى يكون على النقطة السادسة من الربع وهي نقطة غاية البعد، وإذا رفع رأسه على النقطة السابعة والثامنة فأكثر فيرمي اقل من السادسة لأن السادسة هي على خمس وأربعين درجة من ارتفاع الأفق[71].

الوجه الثاني: وهو الرمي أسفل قليلا من الرمي على الاستقامة، ويكون ذلك إذا كان الرمي على بعد مائتي خطوة أو نحوها، وإذا كان الرمي على أدنى واقل من الخط المستقيم فهذه الرمية تكون لنحو مائتي خطوة، فيعمل لزازة تكون في عرضها على قدر طول الشمع الذي وضع على رأس المدفع ليأخذ القياس على أعلاه بالنظر للرمي على خط مستقيم، وإذا أراد أن يعمل ما ينوب عن الشمع فذلك اللزاز يوضع تحت المدفع من ورائه، ويأخذ القياس على ظهر المدفع إلى رأسه من غير شمع ويكون الرمي على الاستقامة[81].

الصورة رقم: 6. مسار الطلقة على خط مستقيم

◄كيفية صناعة أسرة المدافع:

كانت توضع مختلف أصناف المدافع على أسرة مصنوعة من خشب تناسب طول المدفع، وقوام هذه العملية خشبتان على أربع عجلات وعليها تمد المدافع[91]. ويعد خشب البلوط أفضل أنواع الخشب التي يمكن استعمالها في ذلك[02]، كما أن طريقة صنع أسرة المدافع وحجم عجلاتها هي الأخرى مرتبطة بنوع المدفع[12]، الذي يحمل للاماكن البعيدة بتقنيات مختلفة حسب وزنه.

ذكر ابن غانم أن أفضل أنواع الخشب لصناعة الأسرة هي عود النشام والبلوط والجوز، وان أفضل فترات قطعها هي شهري دجنبر ويناير على أن توضع في صهريج ماء كي لا تتعفن[22]. وميز بين كيفية صنع أسرة الأنواع الكبرى للمدافع (القلبيرينة والقنيونات والحجارة)، وذكر أن طول ألواح النوع الأول من المدافع يكون على طول المدفع مرة ونصف كي يسهل تحريك المدفع من جهة إلى أخرى، كما حدد سمك الألواح بقدر قطر الكرة التي يرميها المدفع، فإذا كان يرمي بكرة من ثلاثين فأكثر فغلظ اللوح يكون فيه قطر فم المدفع، وللمدفع الذي يرمي بكرة من ثلاثة أرطال أو رطلين فيكون غلظ لوح السرير أكثر من قطر فم المدفع. وللمدفع الذي يرمي بكرة من أربعين رطلا فينقص من غلظ اللوح الربع من قطر الفم، فيكون في غلظه قطر فم المدفع إلا ربع[32].

وحدد وسع اللوح في جبهة السرير إلى جهة فم المدفع فيكون فيه أربعة أفوام وفي مؤخرة المدفع ثلاثة أفوام ونصف، وفي انتهائه من الوراء قطران وربع.

◄كيفية تعمير المدافع وصناعة البارود:

إن أول ما يجب أن يدركه المدافعي هو حسن صناعة المغرفة وتقطيعها وتحديد طولها وعرضها بالنظر لنوع المدفع، ثم بعد ذلك، وقبل الشروع في عملية ملء المدفع، يجب التدقيق في حالته، هل هو نقي في ظاهره وباطنه، وهل كان معمرا على يد غيره، وإذا كان الأمر كذلك، فعليه تجنب إشعال النار حتى يقوم بإفراغه ليتجنب أي زيادة أو نقصان في البارود المطلوب للعمارة، وذلك تجنبا لأي ضرر بالمدفع، ونبه إلى إمكانية أن يقوم بعض الغدارين بملء المدفع ليرجع المدفع عند الرمي أشتاتا وأطرافا ويقتل من يكون قريبا منه[42] .

أما المواد التي تدخل في صناعة البارود فهي ملح البارود والكبريت والفحم الذي يستحسن أن يكون من شجرة الجوز، ويحضر بالطريقة التالية: نأخذ مائة رطل من ملح البارود ونجعلها في إناء ويضاف إليها الماء بالقدر الذي يكفي لترطيبه، ثم يجعل الخليط على نار الفحم المحروق، فإذا سخن يضاف إليه ما مقداره عشرون رطلا من الكبريت وعشرون رطلا من الفحم المطحونين، ويتم تحريك الخليط حتى يمتزج بعضه ببعض في الإناء الحديدي، ثم يخرج منه ويجعل في أواني ويكسكس وينشف[52].

ومما يفسد البارود تعرضه للرطوبة في المخزن أو تقادمه، وفي هذه الحالة يتم إصلاحه بعد معرفة سبب فساده، فإذا كان بسبب وقوعه في الماء فيعرف

أن الذي فسد هو ملح البارود؛ لأنه بالرطوبة تحلل وخرج من تركيبته، وعلاجه أن يضاف إليه ما نقصه من ملح البارود[62].

ولاستخراج ملح البارود لابد من معرفة الأماكن التي يكون فيها، ومن علاماته أن المواضع التي يوجد بها تتخذ فيها الأرض في فصل الصيف لون عنق الحمام وفيه بعض اللمعان[72].

◄تطور صناعة الأسلحة النارية في العهد السعدي.

إذا كان هذا المخطوط يدل على اهتمام الدولة السعدية بالسلاح الناري خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، فإن هذا لا يعني أنهم كانوا سباقين لتصنيع أو استعمال الأسلحة النارية، فقد تحدث المؤرخون عن وجود حرفيين بمدينة فاس متخصصين في آلات الحرب النارية، وقد جاء ذكرهم عند ابن الخطيب في «نفاضة الجراب» بعبارة «**قادحي شعل الأنفاط ونافضي ذوايب المجانيق**» وذلك ضمن الصناع الذين استدعاهم الوزير المريني عمر بن عبد الله الفودودي استعدادا لمرافعة جيش عبد الحليم

بن أبي علي المريني، حيث كان يحاصر فاس الجديد وسلطانها تاشفين بن أبي الحسن المريني بتاريخ 7 محرم عام 763 هـ – 1362م.

وهكذا تتبين البدايات الأولى لاستخدام الأسلحة النارية بالمغرب، مع تسمية مقذوفاتها «بالبارود» من طرف كل من ابن خلدون والناصري[82] وابن زيدان. أما عن الآلات القاذفة للبارود فقد وردت تسميتها بالأنفاض عند مؤلف «فيض العباب»، تعبيرا عما صار يسمى – من بعد – «باسم المدفع»، وفي النصف الثاني من المائة التاسعة للهجرة، يتحدث مؤلف مغربي عن تجهيز مدينة طنجة – من طرف المعنيين المغاربة – بالأنفاض العظيمة والمدافع.

وبذلك عرفت صناعة السلاح الناري تطورا ملموسا، وسمي الجنود المستعملين للمدافع بعساكر النار. ويعود أقدم مدفع مغربي معروف إلى سنة: 952هـ1545/م، صُنع في عهد السلطان السعدي: محمد الشيخ المهدي (947 – 964هـ/1540 – 1557م)، نُقش في أعلاه – بمحاذاة الفوهة – بخط مغربي: «**صنع لمولاي محمد الشريف نصره الله نصرا عزيزا**»، وفي أسفله بجوار قاعدة المدفع، نُقش: «**عمل (منصو) العلج عام اثنين وخمسين وتسعمائة**»

الصورة رقم: 7. مدفع لمحمد الشيخ المهدي، نُقش في أعلاه بخط مغربي: «صنع لمولاي محمد الشريف نصره الله نصرا عزيزا»، وفي أسفله بجوار قاعدة المدفع، نُقش: «عمل (منصو) العلج عام اثنين وخمسين وتسعمائة»– حديقة عمالة مدينة طنجة

كان استعماله آنذاك عاما كما يدل على ذلك هجوم محمد الغالب على مدينة البريجة (الجديدة) التي كان يدافع عنها البرتغاليون بواسطة أربع وعشرين مدفعا. وحسب الحسن الوزان، فالأسلحة النارية تنتج بفاس، كما أن مارمول كاربخال يخبرنا بأن الصانع المعلم موسى المنحدر من مدريد، استعمل سنة: 945هـ معدن نحاس من منجم بسوس من أجل صناعة مدفع يبلغ طوله ستة عشر قدما.

وقد صنع السعديون بالإضافة إلى المدافع الصغيرة، آليات كبيرة جدا من أجل الحصار وتسمى «**ميمونة**» اندهش البرتغاليون لرؤيتها خلال مواجهتهم لهم في حصار مدينة أكادير، كما منح السلطان عبد الملك للأتراك مدافع، واحد منها له سبع فوهات، احتفظ البرتغاليون بأحد قذائفها، ويوجد حاليا بمتحف لشبونة. وبفضل الاقتصاد المزدهر وغناهم المالي بسبب ذهب السودان والتجارة الصحراوية، استطاع السلاطين السعديون استقطاب التقنيين الأجانب وخاصة المهندسين وصناع المدافع الأوروبيين أو الأتراك.

بالإضافة إلى مدفع محمد الشيخ المذكور، وقفنا على مدفع آخر في عهد ابنه السلطان أبو محمد عبد الله الغالب (964 – 982هـ/1557 – 1574م)، صُنع في: فاتح محرم 978هـ/5 يونيو 1570م، وسُمي هذا المدفع بـ: «**النفط السعيد**» كما نُقش ذلك على واجهته البرونزية، وتتوزع نصوصه المنقوشة إلى ثلاثة عناصر:

الصورة رقم: 8 .المدفع المغربي نفط الذي استعمل في معركة وادي المخازن متحف الأسلحة برج النار – فاس

– **العنصر الأول**؛ عبارة: «**القوة بالله**»، وهي بمثابة: «علامة للسلطان» عبد الله الغالب السعدي، نُقشت في القمة داخل إطار مستطيل.

– **العنصر الثاني**؛ ويرتبط باسم السلطان السعدي واسم أبيه، والدعاء له بالنصر والتمكين، فضلا عن تاريخ صُنع المدفع، وقد تم تركيب كل ذلك في شكل دائري على غرار التقليد الذي كان معمولا به في الطغراوات[92] المشرقية، وتحديدا المملوكية منها. ونُقش في فضاء الدائرة الطغرائية مايلي: «**أمر بعمل هذا النفط السعيد – إن شاء الله عمله – أمير المومنين المجاهد في سبيل رب العالمين؛ أبو محمد عبد الله الغالب بالله، بن أمير المومنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسني أيده الله ونصره. أوّل يوم من محرم عام ثمانية وسبعين وتسعمائة**».

– **العنصر الثالث**؛ ورد فيه اسم صانع المدفع داخل إطار مستطيل، ونصه: «**صانعه الحاج أحمد القمق**».

والملاحظ أن المدافع السعدية كانت متفوقة من حيث الإخراج الفني على المدافع العثمانية اعتبار من عهد أبي المعالي زيدان وعهود أبنائه لأن هؤلاء استعانوا بالخبرة الهولندية في صناعة مدافعهم[03].

ولما بويع عبد الملك المعتصم اهتم – أكثر– بإنتاج المدافع التي كان عارفا بصناعتها وأشرف –بنفسه – على إعداد نحو ثمانية منها[13]. كما بنى المنصور السعدي «دار العدة» على مقربة من قصر البديع بمدينة مراكش، وهي التي يقول عنها الفشتالي[23]: ’’ وأما ما يفرغ مع الأيام من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة المائلة قرب أبوابهم الشريفة من قصبتهم المحروسة... فشيء غصت به الخزائن السلاحية والديار العادية‘‘.

وقد كان ضمن جيش المنصور الذهبي أربعة فرق مدفعية تسمى بجيوش النار أو عساكر النار، قال الفشتالي عنها: «والترتيب الذي جرى عليه العمل في عساكر النار بالحضرة: أن يتقدم – أولا– جيش السوس، ثم يردفه جيش الشرافة، ثم يردفهما العسكران العظيمان: عسكر الموالي المعلوجين ومن انضاف إليهم، وعسكر الأندلس ومن لبس جلدتهم ودخل في زمرتهم»

وعرف عهد المنصور بناء أربعة عشر برجا مدفعيا تسمى «بستيونات»، وتواجدت بين أربع مدن مغربية، واحد منها في مدينة تازة، واثنان بمرسى العرائش، وتسعة تموضعت بأسوار فاس الجديد، واثنان خارج فاس العتيق على مقربة من باب الفتوح والباب المحروق، وقد كان هذا الأخير يعرف ببرج النار، تدليلا على مهمته المدفعية، ثم تطير السكان من هذا التعبير واستبدلوه باسم «برج النور».

وقد جهز السلطان نفسه هذه الأبراج الأربعة عشر بالمدافع وأسكن بها الحاميات المختصة، وكانت مدافع حصني فاس القديمة تقذف بالبارود والنار، وبالكور المعدنية والحجرية. ويسجل أيضا، أنه في عهد المنصور، ظهرت بالمغرب عادة ضرب المدافع بمناسبة العيدين: عيد الفطر والأضحى، وعند ورود بشارة، قال الفشتالي عن مدافع فاس: «وإذا استهلت رعودها في العيدين من المصلي أو لورود بشارة عظمى، فلا تسأل عن دوي الأرض وجفانها... ويمتد على البلدين ركام البارود كأنما هو ليل مطبق[33].

وفيما يلي نماذج لمدافع برونزية نُقشت عليها الطغراء السعدية يرجع بعضها إلى عهد أبي المعالي زيدان السعدي (1012 - 1037هـ/-1603 1628م)، وبعضها الآخر إلى عهد ابنه الوليد (-1040 1046هـ/-1631 1636م)، وهي محفوظة حاليا بكل من مدينة طنجة، وكذا متحف الأسلحة (دار السلاح – برج النار) بمدينة فاس، لكن معظم المدافع المنسوبة لهذين السلطانين السعديين، توجد قطعها – التي وقفنا عليها – بمدينة آسفي في «قصر البحر» قبل انهدام أحد أبراجه، وهو الانهدام الذي دفع بالسلطات المحلية ووزارة الثقافة المغربية إلى إغلاقه سنة: 2010م مخافة انهياره المفاجئ، في انتظار إيجاد حلول عاجلة لإنقاذ هذا المعلم الأثري من الانهيار، وقد أقدمت السلطات المعنية قبل ذلك بإخلاء أبراج هذا المبنى من المدافع السعدية، ثم تحويلها إلى وسط ساحة القصر، وذلك حتى تسهل عملية إنقاذها في حالة حدوث أي طارئ.

نذكر كذلك، أن بعض المدافع السعدية مازالت موجودة، من قبيل تلك المنصوبة بحديقة عمالة مدينة طنجة، ومنها مدفع لمحمد الشيخ الأول، كتب في أعلاه بالخط المغربي: «صنع لمولاي محمد الشريف نصره الله نصرا عزيزا، وفي أسفله: عمل «منصور» العلج عام اثنين وخمسين وتسعمائة»، ومدفع آخر

الصورة رقم: 9. مدافع محفوظة بمدينة أسفي في قصر البحر

للسلطان زيدان، كتب عليه بالخط الشرقي الثلثي: «أمر بعمله عبد الله أمير المؤمنين مولانا زيدان المظفر بالله، ابن أمير المؤمنين مولانا أحمد، بن أمير المؤمنين مولانا محمد الشيخ أيده الله». ويتوسط هذه الكتابة شكل مستطيل يشتمل على علامة زيدان.

وقد اشتهرت المدافع السعدية بالنقوش الطغرائية، والسر في ذلك – حسب احد الباحثين[43] يرجع إلى الدلالة الرمزية للطغراء، وارتباطها بسيادة الدولة، كما كانت ترمز أيضا إلى قوة السلاطين الذين كانوا يريدون تخليد ذكرهم وذكراهم بشارات وتوقيعات منسوبة إليهم، والسيادة – على هذا الفهم – لا يمكن أن تتحقق إلا بقوة السلاح لمواجهة الأطماع الخارجية، و كبح جماح الثورات الداخلية، لذلك كانت الطغراء هي السمة الأساسية، بل ومطلبا ملحا زين المدافع السعدية، حتى لا يكاد يخلو واحد منها من هذه الشارة الرمزية، وخاصة في عهد أبي المعالي زيدان وعهود أبنائه.

◄ خاتمـة:

يعد العصر السعدي في المغرب فاتحة للعصر الحديث الذي بدأت مراحله الأولى مع الدولة الوطاسية، وذلك تبعا لما هو معمول به في التحقيب العام للتاريخ الإنساني. فهو عصر الأحداث المتسارعة، والتحولات السياسية الكبرى التي واكبها انتقال مركز الثقل إلى العالم المسيحي في الشق الغربي لحوض البحر الأبيض المتوسط، ولعل هذا ما دفع السعديين للاهتمام بهذا المخطوط وغيره بغية الاستفادة من مختلف الخبرات؛ فطوروا صناعة المدفعية محليا عبر إنشاء دور العدة وأفران صهر وتخزين الأسلحة، ولعل أهم مكون عتادي دفاعي سجل حضوره الهام والحاسم ضمن المنظومة الدفاعية للسعديين هو سلاح المدفعية بتعدد أحجامها واختلاف أشكالها و تباين عياراتها النارية، وكان ذلك تحت إشراف الأوربيين والأتراك.

وقد كانت استفادة السعديين كبيرة من الحمولة العلمية لهذا المخطوط المتمحور حول الأسلحة؛ خصوصا صنف المدفعية التي تتباين أنواعها من حيث التسمية والحجم والوظيفة ومواد صناعتها وطرق تعميرها والكتل التي ترمي بها، ونوع الأسرة التي تحمل عليها وكيفية صناعتها مع عجلاتها، بالإضافة إلى التدقيق في كيفية تعمير المدافع بالبارود وصناعته وإصلاحه في حالة فساده، وتحديد درجة الرمي وغيرها مما ورد في أبواب هذا المخطوط.

ومن خلال ما وصلنا من أخبار في المصادر التاريخية وما بقي من قطع مدفعية متناثرة هنا وهناك، وما ورد في مخطوط العز والمنافع، يتضع مدى التقارب بين ما أنتجه المغرب وما ورد في هذا المخطوط المتعلق بعلم المدفعية الذي يعد بحق مصدرا هاما لعلم الأسلحة.

◄الهوامش:

1 – هو إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي الملقب بالرياش، والرّياش تحريف لكلمة ريس العربية التي تطلق على ربابنة البحر عند العرب. وقد ورد اسمه مغلوطاً في بعض المراجع المعاصرة فيشير الزركلي الى بأن اسمه « إبراهيم المعجام، الرباش»، والحقيقة أن اسمه ليس هذا ولا ذاك وإنما «ابن غانم الأندلسي» الشهير بالمعجم . أي باللسان الأعجمي . بالرياش.

– الزركلي خير الدين، الاعلام، دار العلم للملايين،2002، الطبعة الخامسة عشر، ص:30.

2 – الكتاني، محمد إبراهيم، الكتاب المغربي وقيمته، مجلة الحكمة، عدد: 12، 1997م ص: 388.

– ولكن المترجم كان يقف عن عملية الترجمة بين وقت وآخرعند اصطدامه بالتعابير الفنية العديدة التي يحويها وخاصة معرفة أسماء وأنواع المدافع المختلفة، التي تحدث عنها مؤلف الكتاب وعددها اثنان وثلاثون نوعاً. ويصف لنا الشهاب الحجري في الخاتمة التي ذيل بها ترجمته للكتاب هذه الصعوبة وكيف ذلّلها بقوله:» وبعد أن اشتغلت بعض الأيام بترجمة الكتاب توقفت من أجل أسماء المدافع، وما يتعلق بها، لأنه لم نعرف لها أسماء عربية، حتى طرحت القلم وأردت أن أتركه ثم تذكرت في الحين لرؤيا رأيتها قبل ذلك اليوم، كنت أقرأ في قوله تعالى « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل»، فتقوى عزمي على ترك البخل من نفسي، واشتغلت به وسهل الله علي من تلك الساعة حتى اختتمته، وكنت إذ يُشكل علي شيء من الكتاب نسأل الريس مؤلفه ويبين لي في الحين بياناً شافياً كل ما نسأله عليه. وعلمت أن كل ما ذكر وكتب هو عنده بالقول والفعل،.. وفي اليوم الذي عزمت على تمام تعريب الكتاب فقتُ من النوم عند الصباح ولساني يقول قوله تعالى(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لك الإسلام ديناً)، ففهمت من الآية أن الله تبارك وتعالى قبل الكتاب ورضيه،نسأله سبحانه أن ينفعنا به في الدنيا الآخرة وللمسلمين بفضل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، وسميت الكتاب بإذن الريس مؤلفه كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع «.

3 – الكتاني، الكتاب المغربي وقيمته، م س، ص: 388.

4 – كان اهتمامي بالمخطوط في البداية يندرج ضمن الدراسة الفنية لصور الحروف التي كتب بها المخطوط"الدراسة الباليوغرافية" المتعلقة: "بعلم الخط وصناعته".

5 – ينظر: – ابن غانم الرياش الأندلسي، العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحرب والمنافع، تحقيق إحسان الهندي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية،2013.

– الرايس إبراهيم بن احمد بن غانم ابن محمد بن زكرياء الأندلسي، العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحرب والمنافع، ترجمة احمد ابن قاسم الحجري الأندلسي، تحقيق محمد الغزواني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة، 2015-2014.

6 – ابن احمد غانم الأندلسي، العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع، مخطوط بالخزانة الوطنية، الرباط، رقم ج87، ص:11.

7 – العز والرفعة، مصدر سابق، ص:13.

8 – العز والرفعة، مصدر سابق، ص:12.

9 – نفسه، ص: 13.

10 – نفسه، ص: 14.

11 – نفسه، ص: 14.

12 – نفسه، ص:14.

13 – نفسه، ص:62.

14 – العز والرفعة، مصدر سابق، ص: 15-14.

15 – نفسه، ص: 9.

16 – العز والرفعة، مصدر سابق، ص:86 وما بعدها

17 – نفسه، ص: 146.

18 – نفسه، ص: 147.

19 – نفسه، ص: 108.

20 – نفسه، ص: 42.

21 – نفسه، ص: 43.

22 – نفسه، ص: 65.

23 – نفسه، ص: 65.

24 – العز والرفعة، مصدر سابق، ص: 92.

25 – نفسه، ص: 182.

26 – نفسه، ص: 183.

27 – نفسه، ص: 186.

28 – الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف: جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1997م، ج 2 ، ص: 18.

29 – الطغراء رسم أو شارة لها شكل معين وظفت الحروف العربية في رسمه، وظفت في كتابة اسم السلطان أو الدعاء له، استعملها بعض السلاطين، كنوع من التوقيعات أو الأختام التي تكون رسائلهم ممهورة بها.

30 – خبطة محمد عبد الحفيظ، الطغراء والأختام السلطانية وعلاقتها بإشكالية السيادة بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية، 2013، ص: 254.

31 – المعجم التاريخي» ص 28، 63.

32 – الفشتالي ابوفارس عبد العزيز، مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء"، السفر المختصر المطبوع بتطوان، ص: 246.

33 – نفسه.

34 – خبطة، الطغراء، م س، ص: 252.

◄لائحة المصادر والمراجع:

– إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي، العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم: 2646.

– ابن غانم الرياش الأندلسي، العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحرب والمنافع، تحقيق إحسان الهندي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية،2013.

– الرايس إبراهيم بن احمد بن غانم ابن محمد بن زكرياء الأندلسي، العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحرب والمنافع، تحقيق محمد الغزواني، ترجمة احمد ابن قاسم الحجري الأندلسي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة، 2015-2014.

– الفشتالي أبو فارس عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق: عبد الكريم كريم، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د. ت.

– الكتاني محمد إبراهيم، الكتاب المغربي وقيمته، مجلة الحكمة، عدد: 12، 1997.

– الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق ولدي المؤلف: جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997.

– خبطة محمد عبد الحفيظ، الطغراء والأختام السلطانية وعلاقتها بإشكالية السيادة بين المغرب السعدي وتركيا العثمانية، 2013.

– الزركلي خير الدين ، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، 2002.

الرحلات الاستكشافية: مقاربة فكرية وحضارية
"الرحلات الأوربية في الجزائر أنموذجا"

أ.د/ ناصر الدين سعيدوني
جامعة أبو القاسم سعد الله
الجزائر - 2 -

تشكل الرحلات الاستكشافية مصدرا تاريخيا أوليا وصنفا أدبيا متميّزا جغرافيا حيا، وذلك لما تحتوي عليه من معلومات تاريخية دقيقة وأوصاف بشرية معبرة وصور أدبيّة طريفة للفترات الّتي تعود إليها والمجتمعات الّتي تتناولها بالوصف والملاحظة، فهي تتحسن نبضات المجتمع وترصد مظاهر الطبيعة وتسجل سلوك الإنسان وتعلق على اهتمامات الفرد، وهذا ما أكسبها مكانة متميزة في عالم التراث المكتوب ومجال الثقافة الموثقة، وجعل منها ذاكرة متجددة وسجلا حيا لوقائع الحياة، ممّا يجعل الرّحلات الاستكشافية بحق محصلة الذاكرة الواعية والمرآة الصادقة للإنسان في تفاعله مع شروط بيئته ومتطلّبات عصره وحاجات مجتمعه.

وما دامت الرّحلة الاستكشافية من حيث مضمونها وطريقة تعبيرها تجمع بين ما تحتويه التقارير الخاصة وما تهتم به المذكرات الشخصية وما تسجله التراجم وكتب الجغرافية، وتمزج في تسجيلها لوقائع وعرضها للأحداث بين ذاتية الفرد المعبرة عن ميوله والمتحكمة في سلوكه، وبين موضوعية الملاحظة لحقائق الأشياء، فإن هذا التنوع وهذه الازدواجية في الرؤية والتنازل تفرض على المتعامل معها أن يجمع بين مقاربة الأديب في تحليله النّصوص وبين نقد الباحث في تمحيصه ونقده لمضمون تلك النّصوص.

ولكون الرّحلة الاستكشافية من خلال دوافعها ومواضيعها وطريقة عرضها تعبر عن روح المغامرة لاستكشاف المجهول ومعرفة حقيقة الآخر، فإنّ مستواها ونوعيّتها ترتبط عادة بفترات تيقظ الأمم ومراحل رقي الشعوب. فقد كان العالم الإسلامي مبدعا في الرحلات عندما كانت ثقافته عالمية ذات نزعة إنسانيّة تهتم بكلّ ما يتصّل بالفرد في سلوكه وتطلّعاته، كما يلمس ذلك في مضمون العديد من الرحلات الاستطلاعيّة في البلاد البعيدة والأقاليم النائية، من قبيل رحلات التاجر سليمان السيرافي (264هـ/ 877م) في الشّرق الأقصى، وابن فضلان (309هـ/921م) في بلاد الترك والصّقالبة والبلغار، وأبي دلف مسعر الخزرجي في الصين والهند (ت 331هـ/942م)، وبنيامين بن يونة التطيلي (561 - 569هـ/1165-1173م) بأوربا وبلاد العجم والروم، وابن بطوطة (779هـ/1377م) الذي جاب العالم من الصين وجزر الغربية إلى بلاد السودان وغيرهم، وهذا ما جعل أدب الرحلة في فترة عطاء الحضارة العربية الإسلامية (ق 1-7هـ/-7 13م) من خلال ما تتضمنه كتب البلدان والأقاليم

والمسالك والممالك وفضائل المدن والبلدان ورواية المسافرين وتقاليد التجار والحجاج، يشكل رصيدا معرفيا يعبر عن الحاجات الثّقافية والمتطلبات الاجتماعية والتوجيهات الفكرية والميول الروحية للشعوب والجماعات؛ ويجعل منها مظهرا معبرا عن واقع الحضارة الإسلامية في أي بلد أو قطر من العالم الإسلامي.

لقد كان تراجع إسهام المسلمين في أدب الرحلة الاستكشافية منذ القرن الثامن الهجري الرابع عشر للميلاد مؤشرا على أنّ المسلمين قد فقدوا الرغبة في الاطلاع والاستكشاف بعد أن فضلوا الانكماش على أنفسهم ليجتروا تراثهم ويتغنوا بماضيهم، في الوقت الذي بدأ فيه الأوربيون يتطلعون إلى فرض وجودهم الحضاري، فاندفعوا لريادة الفضاءات الإنسانية خارج قارتهم، فكان السبق فيي الرحلات الاستكشافية للإيطاليين ومن تأثر بهم، من امثال ماركو بولو الذي سافر عبر آسيا ووصل إلى الصين وتعرف على بلاط إمبراطور المغول ببكين في رحلته التي استمرت حوالي ربع قرن (1271 - 1295م)، وجيوفانو فيرازانو (1524م)، ومونزر أندريا نافا جيرو (1526م)، وإنياس سيلفيوس، وليوناردو ألبيرتي، وخيرونيمو (1495م).

لقد أصبحت الرحلة الاستكشافية بفعل روح النهضة التي عمت المدن الإيطالية أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر، حسب ما لاحظه المؤرخ ياكوب يوركهارت "نتيجة طبيعية لتحرر العقل الإيطالي من القيود ليكتشف حقائق العالم الخارجي ويستوعب حقائقه"، وهذا ما جعل أغلب تلك الرحلات تعبر عن توجهات عصر النهضة الإنسانية من حيث عمق ثقافة أصحابها وقوة ملاحظتهم ودقة وصفهم وعمق إحساسهم. فجاءت الرحلة في شكل عرض سياحي ممتع لكل ما يتصل بالفرد أو يتعلق بالأشياء التي يستعملها أو يتصل بالسلوك الذي يصدر عنه، فتعددت مناظرها واختلفت صورها من مكان إلى مكان عبر العوالم التي ارتادها الأوربيون، بحثا عن المجهول ومنطلقا للتواصل مع الآخر ورغبة في تكوين صورة واقعية عن المجتمعات في أوربا وخارج أوربا التي كانت تسعى للتواصل معها.

لقد تضمنا الرحلة الاستكشافية معلومات في غاية الأهمية عن واقع الحياة واهتمامات الناس ومظاهر العمران بدءا من مراحل الطريق ومحطاتها، وانتهاء بمعالمها الأثرية ومظاهرها الطبيعية، وهذا ما جعل هذه الرحلات الأوربية باختلاف أنواعها وتعدد أصنافها وتباين أشكالها تتوفر على معلومات غنية ومتنوعة من حيث المواضيع التي تتناولها والقضايا التي تثيرها والمواضيع التي تعرضها، بحيث أصبحت هذه المادة الخبرية بالنسبة لأي باحث في التاريخ ومستقرئ للتراث مصدرا أوليا ومرجعا أساسيا لا يمكن الاستغناء عنه لتلمس مظاهر الحياة والتعرف على حراك اجتماعي ونشاط اقتصادي وللتعرف على الأوضاع السياسية والنشاطات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية ونوعية الحياة الثقافية والروحية السائدة في أي إقليم أو قطر أو بلد.

وهذا ما يفرض على الباحث أن يحدد كيفية التعامل معها والاستفادة منها، فلا يكتفي بالاطلاع على الجداول والفهارس الإحصائية التي ترصد الرحلات الاستكشافية الأوربية، وإنّما ينصب اهتمامه على قراءة تحليلية ومقاربة نقدية لاستخلاص أهم الخصائص والمميزات وتحليل معطياتها المعرفية، لكون ذلك خطوة أولية وعمل أولي في المسعى الهادف لإحياء التراث وإعادة بعث الماضي حيا.

وما دام الإلمام بمختلف أصناف الرحلات الاستكشافية الأوربية على مستوى البلاد العربية يتطلب مشروع بحث متكامل يتجاوز طاقة الجهد الفردي، فسوف نقتصر في عرضنا هذا على ما

يتصل منها بالبلاد الجزائرية التي كانت وجهة كثير من الرحالة الأوربيين، نظرا لدورها المميز في الصّدام البحري العثماني الأوربي بغرب المتوسط ولاحتكاكها بأوربا، ولتحولها منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر ميدان تجربة عملية للمشروع الاستعماري الذي وفرت له الرحلات الاستكشافية الخلفية الثقافية والسياسية وساعدت في رسم توجهاته الاقتصادية والعسكرية.

هذا وحتى نتجاوز العرض العام لهذه الرحلات الاستكشافية الأوربية في الجزائر، إلى التعرف على واقعها وآفاقها فقد انصب جهدنا على رصد مجمل هذه الرحلات منذ أواسط القرن السادس عشر وإلى أواخر القرن العشرين، فتمكنا من إجراء مسح إجمالي لهذه الرحلات ووضع قائمة تشتمل على 250 رحلة مرتبة زمنيا حسب تاريخها ستكون موضوع دراسة مفصلة مستقبلا، على أن نقتصر في عرضنا هذا على تحديد توجهات وأهداف أهم هذه الرحلات الاستكشافية التي أثبتنا لها بيبليوغرافية باللغات التي نشرت بها في آخر البحث (أنظر الملحق).

فالرحلات الاستكشافية الأوربية في الجزائر تتضمن مذكرات الرحالة وتقارير القناصل وانطباعات المسافرين وحكايات البحارة وإفادات الجواسيس وتقاييد رجال الدين. وهي مع اختلاف أهدافها وتباين اتجاهاتها وتضارب معلوماتها في بعض الأحيان، تعتبر مصدرا تاريخيا من الدرجة الأولى، نظرا للمعلومات التي توفرها للباحث ولتنوع وجهات النظر التي تعبر عنها والظروف التي كتبت فيها، فهي لا تقل أهمية عن الكتابات المحلية وحتى السجلات الرسمية، بل تصبح لقلة الوثائق الأرشيفية وشح المصادر المتعلقة بتاريخ الجزائر مصدرا أساسيا لا يمكن أن يستغني عنه أي باحث في دراسته للحياة الاجتماعية والثقافية، أو دارس للنشاط الاقتصادي والوضع السياسي، أثناء العهد العثماني أو فترة الاحتلال الفرنسي للفترة الحديثة من تاريخ الجزائر.

إنّ تنوع المعلومات الّتي تضّمنتها هذه الرحلات الأوربية تعود في أساسها إلى اختلاف ميول وثقافة أصحابها وتباين وجهة نظرهم من أوضاع الجزائر وطبيعة علاقتهم بحكامها، فإذا تجاوزنا الوصف الجغرافي والملاحظات الشخصية فإن هذه الرحلات يمكن أن تصنف حسب الغرض الذي كتبت من أجله والهدف الذي كانت تسعى لتحقيقه، إلى خمسة أصناف، وهي:

1). صنف له طابع سياسي، يهتم بالوضع السياسي للجزائر والتنظيمات المعمول بها لتولي الحكم، ويسجل الأحداث المتعلقة بتعاملها مع الدول الأوربية، وبنشاط بحريتها وما يترتب علي من معاهدات واتفاقيات، مثل ما كتبه: لوسيور فرانسوا روكوفيل (1675م)، وبول كروبي (1817)، وفيليبو بانانتي (1820م).

2). صنف يركز على الجانب الاقتصادي، فيسجل معلومات تتعلق بالتبادل التجاري، وما يترتب عنه من امتيازات جمركية ومعاملات تفضيلية واحتكار للمواد الأولية كانت الأسواق الأوربية في حاجة لها، من كتابه جاك سافري (1679) والضابط لوفيردو (1833م) وإيلي دو لابريمودي (1860م).

3). صنف له نزعة دينية، ارتبط بالنشاط التبشيري الذي كانت تتكفل به الإرساليات الدينية وخاصة منها سلك الرهبنة من جزويت وبندكتيين وأوغسطينيين، فحرص مبعوثو هذه التنظيمات الكنسية على تسجيل كل ما يتعلق بالمسيحيين بالجزائر، وخاصة ما يتعلق بالأسرى المسيحيين وكيفية معاملتهم وإجراءات إطلاق سراحهم، وقد اشتهر منهم لوسيور إيمانويل دارندا (1642) والأدب لوسيان هيرول (1643م) والآباء ف. كاملان وج.

بيرنارد وف. دولاموت (1720م) والآباء دو لافاي وماكر ودارسيزاس ولوروا (1726م).

4). صنف له أهداف عسكرية ومخططات استعمارية، ساهم به ضباط عسكريون ومبعوثون دبلوماسيين، أغلبهم من القناصل والمفوضين والجواسيس، توجه اهتمامهم إلى تقديم تقارير دقيقة عن حالة الجزائر وأوضاعها وخاص دفاعات المراك الساحلية وتحصينات مدينة الجزائر. وممن كتب في هذا الصنف الأميرال البندقي أنجيلو إمو (1766م) والعقيد بوتان (1808م) وفال باريزو (1830م).

5). صنف له صبغة علمية، سجله علماء باحثون مرتبطون بالدوائر العلمية والبعثات الاستكشافية، بعضهم توجه للبحث عن الآثار القديمة وخاصة الرومانية منها، والبعض الآخر انصب اهتمامه على رصد المعالم الطبيعية والتعرف على نوعية النباتات والحيوانات وخصائص المعادن والمياه والتربة. ومن هؤلاء العلماء الباحثين: سيور بول لوكا (1684م) وجان أندري بايسونال (1725م)، ولوي روني دي فونتان (1784م) وج. أو. هابنسريت (1732م).

إنّ أهمية الرحلات الاستكشافية الأوربية في الجزائر تكمن في كونها تكمل الكتابات المحلية من دفاتر الغدارة وسجلات المحاكم وتآليف خاصة، فالمحتوى المعرفي للرحلات الاستكشافية يسمح لنا بالتعرف على جوانب مهمة من ماضي الجزائر في مختلف جوانبه، فهي:

1 – تتوفر في مجملها على معلومات وملاحظات دقيقة عن أوضاع الجزائر، فهي تلقي الضوء على فترة مهمة وخطيرة من تاريخ الجزائر تمتد من مستهل القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين، فتتعرض للحياة بالبلاد الجزائرية في مختلف مظاهرها منذ أن ارتبطت بالدولة العثمانية (1518م) في خضم الصراع العثماني– الإسباني وأثناء تحولها إلى كيان سياسي مستقل بشؤونه في القرن الثامن عشر، إلى أن تحولت بفعل الغزو العسكري الفرنسي (1830م) إلى مشروع استعماري عمل جاهدا على القضاء على مقومات الشعب الجزائري ماديا ومعنويا، قبل أن تتمكن الحركة الوطنية الجزائرية والثورة التحريرية (1954– 1962م) من تصفيته ومحو آثاره.

2 – تتناول في أغلبها العلاقات الاجتماعية والنشاط الاقتصادي والواقع البشري، وهذا ما يجعل هذه الرحلات مصدرا مهما لدراسة حالة سكان الريف والمدينة وأوضاع الفئات والطوائف والقبائل والجماعات وطبيعة الصلات والروابط والمعاملات التي كانت تميز حياة الطبقة المتنفذة من حكام وعلماء ومشايخ وتجار وأعيان، فضلا على أن هذه الرحلات تمدنا بمعلومات قيمة عن واقع الحياة اليومية من نوعية ونمط الغذاء والملبس والمأكل ومواصفات العملة وشبكة المواصلات، وتنوع العادات والتقاليد والأعراف التي تصفح عن نفسها في أمور الثقافة ومسائل العقيدة وقضايا التاريخ والأدب.

3 – تضمن روايات مفصلة عن علاقة الحكام بطوائف السكان بالمدن والمجموعات القبلية في الريف، وتعرفنا على طبيعة الكيان السياسي للجزائر العثمانية الذي اكتسب مواصفات الدولة المستقلة بعد أن ألغي المنصب الشرفي للباشا الممثل الشخصي للسلطان لفائدة الداي، فأصبح حكام الجزائر المعروفون "الدايات– الباشوات" مستقلين فعليا عن الدولة العثمانية منذ 1717م. كما تمدنا تلك الرحلات بشهادات حية عن صلاحيات الديوان وسلوك الحكام ومكانة الجيش (فرق الإنكشارية) في النظام السياسي وخاصة الفرق المتجولة في الريف (المحلات) التي تعتبر أساس النظام السياسي والهياكل الإدارية، كما تعرفنا على طبيعة السياسة الدفاعية للحكام وطريقة تعاملهم مع الدولة الأوربية.

4 – تقدم عرضا شاملا وملاحظات دقيقة عن طرق استخلاص المكوس والجباية التي انتهجها حكام الجزائر في العهد العثماني والقائمة على تجريد الحملات العسكرية، وانتهاج أسلوب الشدة مع سكان الريف، كما تعرض لنا وجهة نظر خارجية عن صلة السلطة الحاكمة (البايليك) بالسكان الخاضعين (الرعية)، وما يرتبط بها من إجراءات إدارية وتنظيمات عسكرية، وما يتصل بها من حركات عصيان وتمرد كان لها أثر ملموس في ضعف نظام الحكم بالجزائر وجعله منغلقا على نفسه وعاجزا عن مواجهة الضغوط الأوربية المتزايدة منذ أواخر القرن الثامن عشر.

5 – تؤكد تواصل الأوربيين مع الحضارة الرومانية، وتظهر مدى عنايتهم برصد الآثار الرومانية بالجزائر، فقدكانت هذه الآثار الشغل الشاغل لأغلب الرحالة، فهم يحرصون على الوقوف عليها، ويحاولون جاهدين التعرف على مضمونها، وهم بذلك يعبرون عن توجه أوربي لإحياء معالم الحضارة الرومانية بشمال إفريقيا، قبل أن تتكفل البعثات الأثرية بالتنقيب عن الآثار الرومانية ودراستها في القرن التاسع عشر.

6 – تظهر مدى اهتمام الأوربيين بعالم البحر المتوسط وخاصة الولايات العثمانية منه، وتوجههم لدراسة الأوضاع الطّبيعية والأحوال الاجتماعية والإمكانات الاقتصادية السائدة به، مما سوف ينفر للسياسيين والعسكريين في فترة لاحقة معلومات تساعدهم على تحديد سياساتهم وتنفيذ مخططاتهم الاستعمارية. كما تعكس كذلك الجو العدائي مع الدول الأوربية بفعل غارات البحرية الجزائرية على السواحل الأوربية وهجمات الأساطيل الدول الأوربية على المراكز الساحلية الجزائرية وفي مقدمتها مدينة الجزائر.

ورغم هذه المعلومات التاريخية والغنية التي جعلت الرحلات الاستكشافية الغربية في الجزائر مرجعا لا يمكن الاستغناء عنه، فإنها من حيث توجهاتها ووجهة نظرها تعكس الصورة النمطية التي شكلها المخيال الأوربي عن أوضاع المغرب العربي وخاصة الجزائر، والتي هي في الأساس صورة سلبية إن لم تكن غير موضوعية نظرا للعلاقات المتوترة بين الجزائر والعديد من الدول الأوربية وبفعل الأطماع الاستعمارية لتلك الدول وهذا ما جعل العديد من كتاب هذه الرحلات الاستكشافية الأوربية يرون في الوجود العثماني هيمنة واستعمارا وتأخرا وجمودا، ويعتبرون الجهاد البحري قرصنة واعتداء، وتصدي حكام الجزائر لمخططات الهيمنة الخارجية موقفا عدائيا غير مبرر، أمّا الجهاز الإداري المحلي للجزائر فهو في حكمهم مجرد آلة مسخرة لممارسة الظلم وتكريس الاستعباد، بينما غدت العادات والتقاليد بهذه النظرة مجرد مظاهر للتأخر والانغلاق.

إنّ هذا التصور الأوربي لتاريخ الجزائر في الفترة العثمانية من خلال الرحلات الاستكشافية الأوربية والذي ينطلق من اعتبارات سياسية ويعبر عن موقف عدائي، جعل الدارسين لتاريخ الجزائر الحديث في موقف حرج، بل في تناقض مع شروط المنهجية سواء من حيث المواصفات الموضوعية أو المعالجة العلمية، فهم لا يستطيعون بحكم حاجتهم إلى المضمون التاريخي لهذه الكتابات الأوربية أن يستغنوا عنها، كما أنهم من جهة أخرى لا يمكنهم قبول توجهاتها الاستعمارية أو التسليم بأحكامها المتحيزة.

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن الرحالة الألمان والإسكندنافيين والهولنديين والروس وإلى حد ما الإنكليز والأمريكان، امثال: وليم لايثغو الأسكتلندي (1614) (W. Lithgowم)، ج. أو. هابنسترايت الألماني (1732م) (J.E.Hebenstreit)، الدكتور توماس شو الإنكليزي (1738) (Dr. Th. Shawم)، كو كوفتسوف الروسي ((M.G. Kokovotsov

1777))، جيمس ل. كاثكارت (J.L. 1785) (Cathcartم)، فون ريهبندر الألماني (1800) (J.A.D. Von Rehbinderم)، وليم شالر الأمريكي (1826) (W. Shalerم)، ليسكين البولوني (1830) (Liskenneم)، سيمون بفايفر الألماني (1830) (S. Pfeiferم)، كانوا اكثر موضوعية وحيادا ولعل ذلك يرجع إلى أنهم لم تكن لهم خلفيات معادية للوجود العثماني ولم يتأثروا بالمخططات الاستعمارية الهادفة للسيطرة على البحر المتوسط واحتلال أقطار المغرب العربي.

فقد كانت كتابات هؤلاء الرحالة العلماء من الأنكلوساكسون والجرمان والسلاف أقرب إلى الاتزان وأميل إلى الموضوعية بالمقارنة مع نظرائهم اللاتين من الفرنسيين والإسبان والإيطاليين وخاصة منهم بعض رجال الدين المنتمين إلى إرساليات تبشيرية وهيئات دينية، من امثال: مارمول دال كارفاخال (L.D. 1600) (Marmol y Carvajalم)، دييغو دو هايدو ((P. Diego de Haedo 1612)م)، الأب دان (1637) (P. danم)، داراندا (1642) (E. D'Arandaم)، الأب أو. دابر (1668) (O. Dapperم)، الأب دولاموت (1703) (De la Motteم)، كامولان (1720) (P.F. Camelinم)، الأب لافاي (1726) (J.B. Lafayeم)، فقد عرفوا بموقفهم العدائي ونظرتهم المتحيزة فيما سجلوه عن أقطار المغرب العربي في العهد العثماني، هذا دون أن نقلل من الأهمية العلمية لبعض الرحلات الفرنسية والإسبانية والإيطالية، التي حاولت رصد الواقع من قبيل رحلات الفارس دارفيو (Le Chevalier 1702) (L. D'Arvieuxم)، بايصونال (1725) (J.A. Peyssonnelم)، لاكوندامين (1731م)، وج. ب. طولو (1732م)، دي فونتان (1784) (L.R. Desfontainesم)، فانتور دو بارادي ((Venture de Paradis 1789)م)، العقيد بوتان (Colonel 1808) (Boutinم).

لقد حظيت العديد من هذه الرحلات الأوربية منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر باهتمام الكتاب الأوربيين، وكان للفرنسيين السبق في ذلك، إذ حققوا ونشروا العديد منها، وهذا ما ساعد على توفرها في المكتبات ومكن الباحثين من الانتفاع بها، فغدت المرجع الأساسي للعديد من المؤلفات التاريخية التي تتعلق بالجزائر خاصة منها ما يتعلق بالعهد العثماني، على أن المعطيات المعرفية والميول النفسية والتوجهات الحضارية التي تعبر عنها الرحلات الاستكشافية تطرح على الباحث إشكالية كيفية التعامل مع التراث وطريقة الاستفادة منه، والتي لا نجد أجوبة لها في غياب مشروعات بحث محددة الهدف ومقننة المناهج، ولعل أولى الخطوات في هذا المسعى هو رصد مضان هذا التراث ووضع فهارس متخصصة تعرف بمصادره ومضمونه ونشر ما ظل مهملا أو مجهولا منه ليتمكن الباحثون من استغلالها.

وما دامت نقطة الضعف في تعاملنا مع الرحلات الاستكشافية يكمن في التسليم بمضمونها وتقبل معلوماتها كما هي دون نقد أو تمحيص أو مقارنة، فإن مقاربة موضوعية تفرض علينا تجاوز الممارسات التقليدية في التعامل مع نصوص الرحلات الاستكشافية وإخضاعها لقراءة نقدية تلتزم بالمنهج "الوضعي" في معالجة مضمونها؛ وتأخذ بمفهوم الاحتمالات بالمنهج البنيوي والأسلوب الإحصائي، ووضع جداول إحصائية لحصر معلوماتها وتحليل دلالاتها ومضامينها المعرفية واستخلاص المعطيات التي تساعد الباحث على الانتفاع بتلك الرحلات، وهذا ما يطمح هذا العرض إلى إثارته وتوجيه الانتباه له، عسى أن يندرج ذلك في الجهد الهادف لوضع سياسة ثقافية جادة تقوم على المحافظة على الذاكرة

التاريخية، وأن يكون لبنة في بناء مشروع حداثي مستقبلي في استقراء أدب الرحلات الاستكشافية وتوظيفه لتنمية المواهب الخلاقة للفرد وتحفيز الطاقات الإبداعية للشعب.

الملحق: قائمة بالرحلات التي ورد ذكرها في البحث:

- Le Sieur François Rocqueville, Relatoin des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger, Paris, Olivier de Varennes, 1675, (112 p).
- Consul C. Ph. Vallière, Mémoire, Pub. Par Lucien Chaillou sous le titre: L'Algérie en 1781, Toulon, s.d. (78 p).
- Paul Crombet, Souvenirs inédits, Pub. Sous le titre: «Alger au temps des Turcs», in Revue de Paris, 56ème année, 1958, pp.80-87.
- Pilippo Pananti, Relation d'un séjour à Alger (1815- 1817) contenant des observations sur l'état actuel de cette régence, Les rapports des États barbaresques avec les puissances chrétiennes,L'importance pour celles-ci de les subjugues, Trad. De l'italien par Blanquière, Paris, Le Normand, 1820, (Éd. Italienne), 1817.
- Jacques Savary, Le parfait négociant, 2ème Éd. Paris, J. Guignard, 1679.
- Lieutenant-colonel Loverdo, De la Régence d'Alger et des avantages que la possession de ce pays peut procurer à la France, Extrait du Spectateur militaire, Paris, Anselin, 1833 (36 p).
- M.F. Élie de la Primaudie, Le commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête française, Extrait de Revue algérienne et coloniale, T. 21860/3-, (Pub. A part, Paris, Ch.Lahure).
- Le Sieur Emanuel d'Aranda, Relation de captivité et de liberté de Sieur Emanuel d'Aranda, mené esclave à Alger en l'an 1640 et mis en liberté l'an 1642, Bruxelles, Jean Mommart, 1662, Pub. Récemment par Latifa El-Hasser-Zeghari sous le titre: Les capitfs d'Alger, Alger, Éd. Casbah, 2004 (les éditions françaises: Paris, 1657, Bordeaux, 1665).
- Le R.P. Lusien Hérault, Les larmes et clameurs des chrétéens français de Nation, captifs en la ville d'Alger en Barbarie, Paris, D. Houssaye, 1643.
- Le R.P. Lucien Hérault (Héron), Les victoires de la charité ou les relations des voyages de Barabarie faits à Alger coste de Barbarie (1643- 1645), Mémoire, Paris, 1646 et 1660, Pub. Par P. Boyer Sous le titre: «Alger en 1645 d'après les notes du R.P. Hérault», in Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée,

1725, Pub. Par Dureau de la Malle, Paris, L.D. Guide, 1838 (1er Volume), Dernière édition, Paris, La Découverte, 1987 (268 p).
- Louis-René Desfontaines, Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger (1783- 1784), Pub. Par Dureau de la Malle, Paris, Gide, 1838 (Vol. 2, 185 p).
- J.E. Hebenstreit, Lettres à Frédéric Auguste II Roi de Pologne, Pub. Par Bernouillies, Berlin-Leipzig, Trad. Française par Eyriés sous le titre: «Voyage à Alger, Tunis et Tripoli en 1732», in Les nouvelles annales de voyages, T. 161830/, pp 590-.
- William Lithgow Thetotall, Discourse of the Rare Adventures and Painefull Peregrinations of Long Nineteene Years Travayles from Scotland to the most Kingdoms in Europe, Asia and Africa, London, 1614, Trad. et Pub. en français par Pierre Grandchamp sous le titre: Voyage dans les états barbaresques (1615- 1616), in Revue africaine, T.911947/, p. 213- 234.
- Le Dr. Thomas Shaw (1692-1751), Voyage dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant, contenant les observations su les royaumes d'Alger et de Tunis, la Syrie, l'Egypte, l'Arabie petrée, Oxford, 1738, 2ème Éd, London, 1757 (1ère Trad. français, La Haye, chez Jean Neaulme, 1738, 2 Vols; 2ème Trad. Française abrégée par n°17/ 1973, p. 19- 41, n°19/ 1975, pp. 29- 741712.
- Les Pères F. Camelin, J. Bernard et Ph. De la Motte de l'Ordre de la Sainte Trinité dit Mathurins, Voyage pour la rédemption des captifs aux Royaumes d'Alger et Tunis fait en 1720, Paris, Louis Anne Seveste et P.F. Giffart, 1721.
- Le Pére Jean-Baptiste de Lafaye, Denis Macker, Augustin d'Arcisas, Henri Le Roy, Relation en forme de journal de voyage pour la rédemption des captifs aux Royaumes du Maroc et d'Alger pendant les années 1723- 1724 et 1725, Paris, L.Seveste, 1726 (Alger, Éd. Bouchène, 2000).
- Le Colonel Boutin, Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger, Pub. Par G. Esquer, Coll. De documents inédits sur l'histoire de l'Algérie, Paris, H. Champion, 1927.
- L'Amiral vénitien Angelo Emo, «Les fortifications d'Alger, Trad. De l'italien sous le titre: La mission à Alger du Consul de Venise», in Revue africaine, T.951951/, pp. 187- 190.
- Val-Paul Lucas, Voyage fait par ordre du Roy dans la Grèce, l'Asie mineure, la Macédoine et l'Afrique (1684), Paris, chez Nicolas Simart, 1712.
- Jean-André Peyssonnel, Voyage dans les Régences de Tunis et d'Alger fait en 1724-

sur la Régence d'Alger et ses dépendances», in Esquisse historique, politique et géographique de l'État algérien, ce qu'il est indispensable de savoir, Paris, Guyonnet, 1830.

- Luis del Marmol y Carvajal, Descripcion general de Africa, Granada, 1600, Trad. En français par Nicolas Perrot d'Ablancourt, sous le titre: L'Afrique de Marmol, en trois volumes, 1606, Trad. En arab par M. Hadji et autres, Rabat-Beyrouth, 1989 (3 Vols).

- Le Père Diego de Haedo, Topographia et historia general de Argel repartida en cinco tratados, Valladolid, A. Coello, 1612. (Les cinq traités traduits en français: 1. La topographie d'Alger, par A. Berbrugger et Dr. Monneau, in Revue africaine, T.14- 151870-/ 2 .1871. Epitome de Los Reyes de Argel (Histoire des Rois d'Alger), par H.D. de Grammont, Alger, A. Jourdan, 1881. 35-4-. La captivité, les martyrs, les marabouts, par Moliner-Viole, Alger, A. Jourdan, 1911.

J. Mac Carthy, Paris, 1830, 405 p) (مكث في الجزائر بين 1720 و1732)

- M.G. Kokovtsov, Journal de voyage et diverses avec diverses observations (1776- 1777), Pub. par M. Canard sous le titre: «Une description de la côte barbarespue au XVIIIème siècle par un officier de la Marine russe M.G. Kokovtsov», in Revue africaine, T.951951/, pp 121- 186.

- James Leander cathcart, The Captives J.L. Cathcart (1785-1796), Pub. par J.B. Newkirk, Laporte, 1899, Trad. En arabe par Ismail Larabi, Alger, O.P.U, 1982 (Capturé à Alger en 1785).

- J-Ad. Frhn Von Rehbinder, Nachrichten und Bemerkungen under den Algirschen Staat (Observations sur Alger), Altona, 1798- 1800 (3 Vols) (Utilisé par René Lespès), Présenté par M. Mersiol sous le titre: La Régence d'Alger vue par un allemand à la fin du XVIIIème siècle, in 2ème Congrès national des sciences historiques, Alger, 1930, pp. 307-312.

- William Shaler, Esquisse de l'État d'Alger considéré sous les rapports politlque, historique et civil, Trad. De l'anglais par M. X. Bianchi, Paris, Ladvocat, 1830 (Éd. Originale, Boston, 1826, Nouvelle Éd. Présentée par A.C. Bontemps, Paris, Éd. Bouchène, 2000).

- Liskenne, «Coup d'œil

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث (مرتبة ألفبائيا):

1. بوركهارت، ياكوب، حضارة عصر النهضة في إيطاليا، ترجمة عبد العزيز جاويد، ج.2، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005.

2. تومسون، ج.و. وآخرون، حضارة عصر النهضة، ترجمة عبد الرحمن زكي، القاهرة، 1961.

3. جرودا، بيير، الرحلة إلى الشرق، رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر، ترجمة مي عبد الكريم وعلي بدر، الأهالي للطباعة، دمشق، 2000.

4. سعيدوني، ناصر الدين، ورقات جزائرية (أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر العثمانية)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.

5. سعيدوني، ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.

6. كراتشوفسكي، أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمه عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

7. مؤنس، حسين، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988.

8. هبنسترايت، ج. أو، رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1732)، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008.

9. مزوري، عبد الرحمن صالح، تطور الفكر الجغرافي عند العرب المسلمين حتى نهاية العصر العباسي (556هـ/1285م)، دار السويدي للنشر، أبو ظبي، 2007.

10. George Yver, et Autres, Histoire et Historiens de l'Agerie, E. Alcan, Paris, 1931.

مساهمة الأمير خالد في بناء الحياة السياسية في الجزائر (1919 - 1924م)

أ-غانم بودن
جامعة بن خلدون تيارت
- الجزائر-

الملخّص :

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع النشاط السياسي للأمير خالد الجزائري خلال الفترة مابين (1919–1924) الذي يندرج في إطار حركة اليقظة الفكرية و السياسية التي عرفتها الجزائر في مطلع القرن العشرين، وإبراز مواقفه من مختلف القضايا و تحليل مطالبه و مقارنتها في سياقها التاريخي قصد التعرف على خصائص تلك المرحلة، فهو يعتبر في نظر الكثير من المؤرخين رائدا للوطنية الجزائرية ومؤسسا للفكر السياسي الوطني المعاصر باعتبار أن التنظيمات السياسية الجزائرية التي ظهرت منذ 1926 قد استلهمت برامجها من فكره المطلبي، و يكون بذلك قد أسس لمشهد سياسي جديد في الجزائر كان ثورة على الوجود الفرنسي عقب الحرب العالمية الأولى، كما هيأ الأرضية للتنظيم الحزبي الثوري الذي جسده نجم شمال إفريقيا سنة 1926.

Résumé :

Le but de cette étude consiste à suivre l'activité politique de l'Emir Khaled, dans la période (1919-1924), qui entre dans le cadre du mouvement de vigilance intellectuelle et politique que l'Algérie avait connue dans le début du vingtième siècle, et aussi cette étude montrer les attitudes de l'Emir Khaled dans les déférentes affaires, et analyser ses réclamations en les comparant dans ses globalités historiques pour identifier les caractéristiques de cette époque-la. Dans la vision de beaucoup d'historiens l'Emir Khaled se considère comme le pionnier du mouvement national et le fondateur de la pensée politique nationale contemporaine, étant donné que les organisations politiques Algériennes qui apparaissaient depuis 1926 avaient inspiré ses programmes de ses pensée réclamatives, et par cela, il avait fondé à une scène politique nouvelle en Algérie. il était une révolution contre l'existence française après la Première guerre mondiale, et il avait fait une plateforme pour l'activité partisane révolutionnaire que l'étoile nord Africaine avait concrétise en 1926.

◄ مقدمة :

عرفت الجزائر مع مطلع القرن العشرين تغيرا في أساليب المقاومة الوطنية تماشيا مع التوسع الاستعماري بالانتقال من العمل المسلح الذي جسدته المقاومات الشعبية إلى العمل السياسي المعتمد على المطالب والعرائض بواسطة النخب الوطنية، وفي هذا الإطار يندرج نشاط الأمير خالد بن الهاشمي بن الأمير عبد القادر الجزائري الذي أحدث في الجزائر خلال فترة (1919 – 1924) ثورة في الفكر المطلبي أكثر وطنية من مطالب بقية الشبان الجزائريين، خاصة فيما تعلق بالتجنس والادماج، مستخدما كل وسائل العمل السياسي للتعبير عن أفكاره وإقناع الجماهير الشعبية بها دون أن يغفل دور المجتمع الدولي وإمكانية تأثيره على النظام الاستعماري لصالح القضية الوطنية، لذلك سأحاول إبراز المشهد السياسي الجديد في الجزائر الذي خلقه نشاط الأمير خالد وتأثيره على العمل الوطني الجزائري فيما بعد.

◄ 1 – بدايات الأمير خالد في الجزائر:

إن دراسة حياة الأمير خالد الجزائري (1875–1936) تبين طابع التحدي والمقاومة في شخصيته، فعلى الرغم من نشأته في دمشق وانتسابه إلى كلية سان سير (Saint-Cyr) العسكرية سنة 1893 وتخرجه برتبة ضابط سنة 1897 إلا أنه شُغل مبكرا بالقضية الوطنية لتمتعه بفكر مستقل، مما جعله يبدأ في انتقاداته للإدارة الاستعمارية بعد فترة قصيرة قضاها في الجزائر عند عودته من دمشق سنة 1892[1]، كان رجل الرفض والمقاومة، فقد رفض لبس الزّي الفرنسي الموحد في الجزائر، ورفض الحرب ضد العرب، واستقال من كلية سان سير(Saint-Cyr) ثم عاد إليها، وبصق على العلم الفرنسي، وأظهر تعلقه بالقيم الثقافية والدينية للإسلام[2].

رغم مهارته العسكرية التي اعترف بها قوّاده إلا أن تدخلاته السياسية جعلت منه مزعجا حقيقيا للسلطة الاستعمارية سواء في الجزائر أو في المغرب مما جعله يقدم استقالته لكنه منح عطلة استثنائية لثلاث سنوات في 15جوان 1913،[3] ومنذ هذه الصائفة دخل الساحة السياسية في الجزائر كبقية الشبان الجزائريين[4] الذين نشطوا منذ بداية القرن العشرين محليا وجهويا في محاولة لبناء المجتمع الجزائري الجديد بالاستفادة من عناصر الحداثة الأوربية، ولكن باحترام الانتماء الإسلامي للشعب الجزائري،[5] فهؤلاء الشبان لم يكونوا متجانسين في أفكارهم وبرامجهم وفي نشاطهم الذي ركز على المطالب الفئوية والجهوية التي لا تؤثر على الشعور العام للجزائريين بوجود اهتمام موحد ووطني. و لكن مع مجيء الأمير خالد إلى الساحة السياسية فإنه أعطى للجزائر الجديدة المجمّع (رجل الإجماع) الذي كان ينقصها بحكم تاريخ أسرته، فمعه لأول مرة أخذت الدورة التاريخية بعدا وطنيا فكان هو المحفز للوحدة وخط الوصل بين التطلعات الشعبية وسلوكات المجدّدين من الشبان الجزائريين، وكان يمثل في نظر الجزائريين استمرارا للمقاومة.[6]

مع نهاية سنة 1913 نقل معركة المطالب إلى فرنسا مستغلا في ذلك عطف بعض الفرنسيين على الأهالي وسخطهم على تسلط المعمرين في الجزائر، وقدم محاضرات حول الأوضاع السياسية والاجتماعية للجزائريين، ودافع عن برنامج الشبان الجزائريين بدبلوماسية حيث أكد:»نحن أبناء عرق له تاريخ وله قدرة وليس عرقا دونيا، علمونا ساعدونا أشركونا في ازدهاركم و عدالتكم، سنكون معكم في ساعة الخطر،»[7] كان ينتقد السياسة الفرنسية في الجزائر من خلال ممارسات المعمرين وإدارة الحكومة العامة التي تتناقض مع سياسة الجمهورية الفرنسية، فقد صرح بأن الأعداء الحقيقيين للمسلمين الجزائريين

هم المعمرون فرنسيو الجزائر والحكومة العامة، وهم المسؤولون على قضية الأهالي ومعاناتهم من قانون الانديجينا والمحاكم الاستثنائية، مما جعل خطابه يلمح إلى تجريد الإدارة الاستعمارية من سلطتها في الجزائر،[8] وفي المقابل حاول تعريف الأهالي بفرنسا الحقيقية التي لا يعرفونها بسبب السحب الكثيفة التي تحجبهم عنها من طرف المعمرين ومعظم الجرائد الجزائرية وإدارة الاحتلال.[9]

أبرزت مطالبه شكلا جديدا للمقاومة السياسية «الرفض و الحوار»، رفض انتقائي للفرنسة وللتعسف الاستعماري لكن قبول بالمطالبة بالحقوق السياسية والتعليم، فهو حوار متعالٍ مؤسس على شرعية تاريخية[10] باعتبار نسبه إلى الأمير عبد القادر، هذا الرفض الانتقائي والحوار المتعالي أسّس لجزائر جديدة، وجعل منه محاورا للنظام الاستعماري بصفته ناطقا بطموحات الشعب.[11] على خلاف بقية الشبان الذين اعتمدوا على المصالحة، والتوفيق بين خوفهم من الاستعمار ورفضهم لسياسته بإخفاء ذلك الرفض بواسطة تصريحات حول العدالة والوطنية الفرنسية،[12] وهذا ما منحه قاعدة شعبية آمنت به و وثقت في برنامجه.

◄ 2 – مساهمة الأمير خالد في الحياة السياسية:

منذ دخول الأمير خالد للجزائر بدأت معالم حركة جديدة تتأسس على أرضية ميزتها مطالب معتدلة لا تعبر عن الطموحات الحقيقية للجماهير الجزائرية التي كانت تئن تحت ضغوطات الإدارة الاستعمارية وبعدها عن اهتمامات النخبة المتفرنسة التي نادت بالتجنس و الاندماج و سيطرت على تمثيل الجزائريين في مختلف المجالس بدون فعالية، ولهذا فإن حركة الأمير خالد ستغير من طريقة الطرح السياسي الوطني وتحظى بتأييد جماهيري كبير تعكسه الإنتخابات.

2 . 1 – موقفه من التجنس و الإدماج:

شكلت قضية التجنس والإدماج محورا رئيسا في اهتمامات نخبة الشبان الجزائريين مع مطلع القرن العشرين لأنها تفتح أمامهم أبواب الوظائف الفرنسية السامية، وتخرجهم من صفة الأهالي المحرومين من كل الحقوق، فحركة الشبان كانت تحاول بواسطة مطالبها المحتشمة الإفلات من دكتاتورية المستوطنين، ولم تكن تلك المطالب تخرج عن نطاق الاستفادة من الحقوق التي تنص عليها سياسة الإدماج الرسمية.[13]

وعند مجيء الأمير خالد فإنه تعاون مع الشبان الجزائريين لكنه سرعان ما ابتعد عنهم بعض الشيء بعد أن أصبح يطالب بعد استقراره في الجزائر العاصمة بالحقوق السياسية لأبناء البلد الأصليين، بينما بقيت حركة الشبان الجزائريين تطالب بإعطاء الجنسية للجزائريين والسماح للمثقفين أن يمثلوا الجزائر في البرلمان الفرنسي.[14] فهذا الاختلاف حول وضع الجزائريين في مطلع القرن العشرين سيقدمه كسياسي بمكانة عالية، يعرف جيدا حاجيات الأهالي الذين كرس نفسه لهم، فهو المخلص المتمسك بتقاليده التي يقدرها جيدا،[15] ولأجل ذلك سيدافع عن الأحوال الشخصية الإسلامية للجزائريين رافضا التجنس خارج إطارها، وكان قد رفض أثناء خدمته في الجيش الجنسية وفضل البقاء ضابطا أهليا.

وكان الأمير خالد رفقة قايد حمود[16] وحمو حاج عمار[17] قد وقفوا ضد التجنس، واتخذوا من قضية التجنيد وسيلة للحصول على الحقوق مع التأكيد على الحفاظ على الأحوال الشخصية والهوية العربية الإسلامية،[18] وهي النقطة التي تكرّس الاختلاف مع بقية النخبة وتفضي إلى الانفصال عنها سنة 1919، وهي سنة صدور قانون الرابع فبراير المتضمن مشروع الإصلاحات التي أوقعت في

صفوف النخبة الجزائرية وبين الشبان الجزائريين بالذات انقساما في الرأي حول طريقة التعامل معها وكيفية الاستفادة منها، وبالأخص من بعض بنودها المتعلقة بالتجنس،[19] فهذا القانون يتيح لفئة من الجزائريين فرصة الحصول على المواطنة الفرنسية الكاملة شريطة التنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية، وهذا ما أدى لانقسام الحركة إلى تيارين: تيار يأمل الانتفاع بالتجنس وبالتمثيل في غرفة النواب، وتيار ثانٍ يرفض التنازل عن الوضع الإسلامي استنادا إلى رفض الجماهير لمثل هذا الإصلاح غير المضمون بحكم معارضة الأوربيين الشديدة له، وهذا التيار تزعمه الأمير خالد.[20]

فالأمير خالد باعتباره معارضا لإدماج الجزائريين بالتجنيس فصل نفسه عن جماعة النخبة مبينا أن الجزائريين لا يستطيعون قبول المواطنة الفرنسية داخل أي إطار غير إطارهم الخاص، و قال «أنه حلم أن نسأل الفرنسيين تغيير شرطهم لأنه أولا شرط لا تريده الجماهير، وثانيا أن فرنسا نفسها لن تصدر أبدا قرارا بالتجنيس الجماعي لأنها تخشى أن ترى الكولون تحت رحمة خمسة ملايين جزائري»،[21] وبهذا الموقف فجّر الأمير خالد تجمع الشبان الجزائريين في الإنتخابات البلدية للعاصمة في ديسمبر 1919،[22] وأصبح تياره الذي نادى بالمساواة هو الأبرز على الساحة الوطنية باكتسابه سمعة كبيرة في أوساط الجماهير المسلمة التي كانت تتابع باهتمام النقاش الدائر حول موضوع جوهري كالتجنس،[23] فهو عبّر عن رفض يتقاسمه مع أغلبية الجزائريين لأنه كان يريد أن يكونوا متساوين مع الفرنسيين ورفض أن يكونوا فرنسيين.[24]

وفي مقابل رفض الأمير خالد للإدماج فقد قدم البديل الأفضل وهو «المشاركة» مع تقديم برنامج[25] يمثل رغبات الجزائريين المسلمين،[26] فلا ينبغي الحديث عن الإدماج أبدا وإنما العمل على إنجاح سياسة المشاركة بين العنصرين الجزائري والفرنسي في ظل احترام أحدهما للآخر،[27] وهو بهذا يدعو لمبدإ المساواة الذي ترتكز عليه حركته السياسية التي أربكت المعمرين والشبان الجزائريين معا، ويعبر عن عدم رضاه على قانون فبراير 1919 وتأسف على أنه لم يلمس لدى الفرنسيين حركة أخوّة وتقارب، وعلى تواصل العداء تجاه الأهالي الذين وعلى الرغم من كونهم رعايا إلا أنهم قدموا ضريبة الدم بشجاعة،[28] لكن رغم ذلك نصح الأهالي باغتنام إيجابيات القانون الجديد خاصة فيما يخص التمثيل.[29] فهذا رفض انتقائي لكل ما يمس بالأحوال الشخصية الإسلامية مع أخذ ما يناسب للحصول على الحقوق السياسية للجزائريين كحق اختيار ممثليهم الأكثر جدارة واستحقاقا في مختلف المجالس الجزائرية، وحتى في فرنسا للتعبير بصدق عن طموحاتهم، فقد اعتمد مبكرا على مبدأ «خذ وطالب» وأدخل طرحا سياسيا جديدا في الجزائر .

وتجدر الإشارة إلى أن رفض الأمير خالد للتجنس يُنم عن فكر سياسي متنور، ذلك أنه لما طلب أن يُسمح للجزائريين أن يصبحوا فرنسيين داخل أحوالهم الشخصية كمسلمين لم يكن يتحدث باسم الدين بل باسم الديمقراطية التي تعني حرية العقيدة والتفكير، إن القانون الفرنسي بالنسبة إلى القضية الجزائرية كان معاديا للديمقراطية وغير متسامح.[30]

2 . 2– معركة الانتخابات والتمثيل:

كانت قضية تمثيل الجزائريين في مختلف المجالس من المحاور الرئيسة التي ناضل من أجلها الأمير خالد باعتبار أن الممثلين ينبغي أن يعكسوا طموحات الجماهير، وأن يعملوا على تحقيق أهدافهم لذلك فاختيارهم يعتمد على الكفاءة والجدارة ومدى تقديمهم لمصالح الجزائريين، وكانت إدارة الاحتلال قد استعانت بمن يقوم بتمثيل الجزائريين في المجالس

المحلية من بعض رؤساء الأسر الكبيرة والإقطاعيين الذين كانوا مستعدين أن يقولوا نعم أو لا «بني وي وي» مقابل حمايتهم وحماية مصالحهم، ومع ظهور الإصلاحيين والليبراليين بدأت عملية التمثيل النيابي للجزائريين على إثر المشاركة في انتخابات 1919.[31]

لقد كانت هذه الانتخابات فرصة للجزائريين للتعبير عن حرية اختيار ممثليهم، وفرصة للأمير خالد ونخبة الشبان لجس نبض الشارع الجزائري حول قدرته على التمييز بين البرامج، لذلك اعتمد الأمير خالد على وسيلة العمل الانتخابي لتحقيق مطالبه الإصلاحية،[32] وتجريد الأعيان الخاضعين للإدارة الاستعمارية من احتكار تمثيل الجزائريين في المجالس المحلية والنيابات المالية باصطناع نخبة سياسية جديدة مستقلة بالنسبة للإدارة الاستعمارية.[33]

وكانت انتخابات 30 نوفمبر 1919 هي المناسبة التي واجه فيها نخبة الشبان الاندماجيين حيث تقدم للانتخابات البلدية بالعاصمة مع الحاج موسى، [34] ضد قائمة القابلين للتجنس بقيادة ابن تامي،[35] وركز الأمير خالد في حملته الانتخابية على الإسلام والكفاح البطولي للأمير عبد القادر متهما بن تامي و من معه بالردة، و كان جمهور الجزائريين يرهفون السمع لمثل هذه المواضيع التي تخاطب ذاكرتهم الجماعية وتحيي فيهم آمالا عريضة،[36] بينما أُعتبر في نظر خصومه من الجزائريين والمستوطنين محرضا خطيرا ومتحدثا باسم الوطنية الإسلامية الوليدة، [37] وبالمعاداة لفرنسا فقد اتهمه بن تامي قائد الشبان الجزائريين الذي لم يحصل إلا على (332) صوت بالتآمر على السلطات الفرنسية وباستعمال التأثير المرابطي واتهمه بالتعصب الإسلامي،[38] ولكن رغم هذا فالجزائريون التفوا حول برنامجه لأنهم رأوا فيه استمرارا للمقاومة وأحقية في تمثيله لهم، فانتخبوا بقوة لصالحه وهم من طالب به، وكانت نجاحاته مدوية فاقت التخيل وأعطته شهرة في العمالات الثلاث.[39]

وبفوز مجموعة الأمير خالد[40] ازداد تخوف الإدارة الاستعمارية من ظهور فكر المحافظين الأهالي و تصاعد التعصب الإسلامي،[41] لذلك و على الرغم من فوز قائمته بالعاصمة فقد ألغى مجلس العمالة انتخابه شخصيا بدعوى أنه من مواليد دمشق وبالتالي لم يكن من الرعايا الفرنسيين فضلا عن مساهمته في إيقاظ التعصب الإسلامي بدعايته المناهضة لفرنسا.[42]

لقد استحضر الجزائريون خلال هذه الانتخابات مآثر الأمير عبد القادر، فالهزيمة الساحقة التي تكبدها المثقفون المتشبعون بالحضارة الفرنسية سجلت إفلاس هذا الحزب أمام المحافظين المسلمين بقيادة النقيب خالد، وفي المقابل بينت بقاء الأهالي الجزائريين مرتبطين بأحوالهم الشخصية وإيمانهم الإسلامي المتصلب،[43] كما كانت هذه الانتخابات البلدية نقطة انطلاق جديدة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، فقد أدت من ناحية إلى تقسيم النخبة إلى اندماجيين ومعادين للاندماج، وأدت من ناحية أخرى إلى ظهور زعيم جديد هو الأمير خالد، كما كشفت عن حقيقة الرأي العام الجزائري الذي كان ضد الاندماج.[44]

وفي انتخابات 1920 تعززت مكانة الأمير خالد في الساحة السياسية الجزائرية بفضل اتساع دائرة ثقة الجماهير فيه وفي برنامجه، فقد كانت لها مدلولات سياسية تجلت في الإقبال الكبير عليها على المستوى البلدي والولائي والمالي حتى وصفت أنها ثورة انتخابية، [45] عبرت عن جزائر جديدة رفضت الإدماج وطالبت بالحرية بأوسع معانيها بواسطة منتخبين جدد،[46] فقد أسفرت الانتخابات عن نجاح تسعة مستشارين عامين من بين تسعة

وعشرين، وستة نواب ماليين من بين ثمانية عشر وكلهم ينتمون سياسيا إلى كتلة الأمير خالد،[47] ففي العاصمة سحق ابن التهامي الذي شكل قائمة بالمثقفين المتجنسين أمام قائمة الأمير خالد الرافضة للتجنس، ونال صاحبها مقعدين من عشرة مقاعد في المجلس العام، ومقعدين اثنين من تسعة في المجلس المالي،[48] ومما يعكس شعبية الأمير خالد وقائمته وتراجع خصومه الاندماجيين الفرق الشاسع في الأصوات فقد فاز في المجلس المالي بـ (7000) صوت ضد (2500) صوت لصالح زروق محي الدين، وفاز في المجلس العام بـ (2505) صوت ضد (256) صوت لصالح الدكتور تامزالي.[49]

لقد بينت انتخابات 1920 كيف فاز فيها من كانوا مع الهوية الإسلامية وضد الإدارة على من كانوا ضد الهوية ومع الإدارة الفرنسية،[50] التي دقت ناقوس خطر الوطنية الجارفة لأتباعها ولسياستها، فقد كانت الانتصارات ربيعا جزائريا وهجوما ضد التعسف الاستعماري، والنواب المعمرون بُهتوا وهم يسمعون لصوت الجزائر الجديدة،[51] لذلك صعّدوا من احتجاجاتهم ضد قانون 1919 الذي منح الحقوق الانتخابية للأهالي الجزائريين حيث قام النائب البرلماني ورئيس فيدرالية رؤساء البلديات بالقطر الجزائري غابريال أبو (Gabriel Abbo) بتنظيم مؤتمر لرؤساء البلديات الجزائرية في ماي 1920، واحتج بعنف ضد البرلمان الفرنسي الذي منح للجماهير الأهلية حقوقا انتخابية مخالفة لحالتهم الاجتماعية، وتعهد بالثورة على هذه القوانين التي وضعت خارج الجزائر.[52]

كما سخّرت الإدارة الإستعمارية صحافتها لإثارة الرأي العام في الجزائر وفرنسا ضد هذه الإصلاحات، داعية إلى إلغاء نتائج الانتخابات لأن «الجزائر أصبحت في خطر» ومُطالبةً بحجز المحرضين من جماعة خالد، [53] كما شن والي ولاية الجزائر لوفبير (Le Febure) حملة على الفائزين واتهمهم بالتشدد الإسلامي والتعصب الديني ومضادتهم للإدماج و تحاملهم على الاندماجيين بوصفهم كفرة وحملة شابوهات، معتبرا الأمير خالد زعيما لحزب سياسي.[54] كما لم يسلم من انتقادات المنتخبين الإداريين والأعيان الذين هددتهم شعبيته إلى حد أن ابن تامي طالب بإجراءات صارمة ضده لأنه محرض وعدو لفرنسا، وأشار النائب زروق محي الدين إلى التحريض الخطير والنظام الرهباني الذي يحدث في الجزائر بواسطة حفيد الأمير عبد القادر وأصدقائه[55]

لكن هذه الانتقادات لم تزد الأمير خالد إلا شعبية وانتصارا، وأصبح نجما في نظر المسلمين الجزائريين وقبلته كخصم منتصر على الإدارة،[56] فتعززت زعامته وانتشرت سمعته فعُد رئيسا حقيقيا للسان الجزائريين المعارضين للسياسة الفرنسية، وكانت جماعته يطلق عليها أحيانا الحزب المارابوتيكي، وحينا آخر بالحزب الوطني الإسلامي، وهذا ما يفيد المعارض لفرنسا وغير الوفي لها والراغب في الانفصال عنها.[57]

كان الأمير خالد يعلم خطورة اتهامات خصومه لذلك حاول الحفاظ على وجوده السياسي في الجزائر، وعلى ما حققه من مكاسب بخطاب لين تجاه السلطات الفرنسية، حيث كتب في 24 فيفري 1920 رسالة إلى الحاكم العام: "حاول خصومي تمثيلي كمسلم معاد لفرنسا، يمكن القول أن هذا الهجوم صبياني لأن كل حياتي العسكرية تبين إخلاصي الحار." [58] وفي المقابل كثف جهوده السياسية ضد النظام الاستعماري والصحافة الأوربية فتحول إلى خطيب سياسي وصحفي، وكانت جريدة الإقدام l'Ikdam[59] وجمعية الأخوة الإسلامية[60] وسيلتان لتبليغ أفكاره ومواجهة خصومه الذين قاد ضدهم حملة في مختلف المجالس، فبصفته مستشارا عاما عبر عن رغبته في إلغاء كل القوانين والمحاكم

الاستثنائية، وكنائب مالي احتج ضد إيداع مشروع قانون لإعادة السلطات العقابية،[61] لكنه فشل أمام معارضة أتباع الإدارة، لذلك اقتنع بأن العاصمة بيد الأوربيين ولا شيء يرجى منهم فلجأ إلى باريس، وكرس وقته للمطالبة بدون جدوى من أعضاء مجلس الشيوخ عدم التصويت على إعادة قانون الأهالي.[62]

واصل الأمير خالد معركته ضد الإدارة بالاعتماد على شرعية الصناديق وثقة الجماهير فيه التي ما انفكت تنادي به زعيما وطنيا، حيث شارك في انتخابات 09 جانفي 1921 ونجحت قائمته كلها، وتمكن من الحصول على ثقة الهيئة الناخبة للمرة الرابعة،[63] وخسرت قائمة ابن تامي، ونجد أن هذه الانتخابات أكدت تعلق الجزائريين بأحوالهم الشخصية الإسلامية، وأن الأهالي والأوربيين يجب عليهم التركيز على ازدهار الجزائر والذي يكون بالمشاركة الصادقة بين كل أبنائها.[64] وبعد التمثيل المحلي اتجهت مطالب الأمير خالد إلى التمثيل في البرلمان الفرنسي حيث استغل زيارة الرئيس الفرنسي ميليران Millerand وقدم أمامه خطابا في 20 أفريل 1922 طالب فيه بالحريات وبتمثيل الجزائريين في البرلمان الفرنسي،[65] مبينا أن التمثيل في الصالح الوطني لأن فرنسا ستربط قلوب الجزائريين المسلمين الذين أظهروا جدارتهم واستحقاقهم لتعويضات أكثر من (100) ألف جزائري ماتوا من أجل العلم المثلث، خاصة بعد موافقة مجلس النيابات المالية على اقتراحين لتمثيل الجزائريين في البرلمان سنة 1922[66]

وبين أنه من غير العادل بأن الجزائر التي تمثل عنصرا مهما في القوة العسكرية لفرنسا لا تُمثل إلا بشكل قليل في المجالس الجزائرية، و زيادة على ذلك غائبة تماما في البرلمان الذي يقرر مصير هذا البلد،[67] وعبثا حاول الأمير خالد إقناع الفرنسيين بضرورة منح الجزائريين حق التمثيل البرلماني، بل ألّب ضده حملات الصحافة الجزائرية والفرنسية التي اضطرته إلى مغادرة المشهد السياسي في الجزائر.

◄ 3 – نفي الأمير خالد:

إن انتصارات الأمير خالد المتتالية في الانتخابات واتصالاته بممثلي الحكومة الفرنسية حول التمثيل البرلماني أدت إلى المزيد من التخوف من تحركاته والعمل على ضرورة إيقافها، فاتفقت مجهودات المسؤولين الأوربيين في باريس والجزائر لتُضيّق الخناق حول الأمير خالد الذي وجد نفسه وحيدا أمام أمة منقادة طائعة قصارى ما تستطيع عمله هو أنها توصله إلى كرسي النيابة، وأصبح من الصعب عليه أن يواجه بمفرده قوة استعمارية آلت على نفسها أن تمحي اسمه من الوجود في الجزائر فاضطر إلى الانسحاب من الميدان السياسي سنة 1923،[68] وكان رئيس الجمهورية ميليران Millerand والحاكم العام ستيغ Steeg قد لمسا خطورة مطالب الأمير خالد سنة 1922 الذي أشار إلى أن أيدي و قلوب الجزائريين متجهة نحو فرنسا و أنه يأمل ألا تُدفع إلى اتجاه آخر، فأصبحت السلطات قلقة من نشاطاته الوطنية فقررت سنة 1923 نفيه من الجزائر بتوصية من فيدرالية رؤساء البلديات التي اتهمته بنشاط معادي لفرنسا،[69] في حين أن الحكومة والصحف الفرنسية قد هاجمت الأمير خالد بصفته شيوعيا اتفق مع البلاشفة ضد الفرنسيين،[70] وهي تهمة تهدف من ورائها إلى دفعه للانسحاب وإجهاض الثورة التي بدأها في الجزائر ضد الإدارة الاستعمارية.

وجاء قرار النفي قبيل إجراء انتخابات تجديد النيابات المالية المقررة في 18 أفريل 1923، حيث كان الأمير خالد غادر العاصمة إلى عين البيضاء على أن يعود في الرابع من أفريل لتحديد قائمة المترشحين، ولكن المفاجأة أن الصحافة نقلت رسالة الأمير خالد إلى الحاكم العام تتضمن اعتزاله من كل المناصب والعهدات والانسحاب نهائيا من السياسة،[71]

وهذا ما أحدث صدمة في نفوس أصدقائه الذين خسروا الانتخابات، وأعلنت الصحافة الاستعمارية عن فشل الحزب المتطرف في الجزائر.[72] وقد لعبت الحكومة العامة دورا في عزل خالد عن محيطه للضغط عليه قبل نفيه حيث استخدمت الرشوة لدى بعض أتباعه، واستدعاه الحاكم العام وخيّره بين تقاعد جيد أو عقوبات صارمة، ولأجل التأثير عليه أظهر له عريضة ممضاة من بعض الأعيان طالبوا بتوقيفه، وكان تحت الرقابة فاختار المنفى.[73]

وكانت السلطة الاستعمارية مدفوعة بخوفها من يقظة جزائرية وسلطة مضادة للأهالي في المستعمرة قد انتصرت مؤقتا بإبعاد الأمير خالد،[74] الذي نقل نشاطه ونضاله من منفاه في مصر إلى فرنسا في أوساط المهاجرين الأفارقة، وذلك بعد نجاح اليسار في انتخابات ماي 1924 ومجيء هيريو Heriot المتعاطف مع الجزائريين،[75] وقد بعث له الأمير خالد في 14 جوان 1924 رسالة من منفاه مستبشرا بحكمه، وبعد شهر بعث برقية عبّر عن نفسه أنه أحد المدافعين عن القضية الجزائرية الذي كان قد نُفي لدفاعه الصريح عن المصالح الحيوية لمواطنيه.[76] وفي جويلية 1924 وصل الأمير خالد إلى باريس ليكون المدافع عن القضية الأهلي،ة و قدم محاضرات لمهاجري شمال إفريقيا وباقي المستعمرات في شكل مرافعات رائعة،[77] كانت الأولى في 12 جويلية والثانية في 19 من نفس الشهر برعاية الاتحاد العالمي الشيوعية، وقد وُصف بالمغامر المخيف للبلشفية والمعادي لفرنسا،[78] كان يُنظر إليه كممثل وحيد للفكر الإسلامي وحارس ملاك للشعب الجزائري، طالب في محاضراته بتمثيل برلماني بنسبة عادلة للأوربيين الجزائريين أي ستة نواب في البرلمان وثلاثة في مجلس الشيوخ بالنسبة لخمسة ملايين ساكن،[79] وقدم مرافعات موثقة عن الممارسات اللاإنسانية للاستعمار والفساد الإداري وغِش الإمبرياليين الذين رموا الأهالي في الجحيم،[80] وأصبحت السلطات الاستعمارية تتوجس خيفة من نشاطه فزادت من اضطهادها له في منفاه، فحوكم في الإسكندرية في أوت 1925 بحجة حمله لجواز سفر مزور رغم صحته، وخوفا من ميلاد حركة وطنية في باريس قامت الحكومة بإرساله إلى سوريا، ولم يُسمح له بدخول الجزائر من جديد حتى توفي بالمنفى بدمشق 1936.[81]

إن حركة الأمير خالد لم تمت بنفيه وعزل حزبه فقد استمر سواءً في باريس أو الشرق الأدنى في إيقاد شعلة نار الحركة الوطنية، والوحي إلى أتباعه بحملها إلى الأمام ولم ينتظر أتباعه طويلا، ففي ربيع 1926 أنشأوا حزبا ثوريا إنفصاليا هو نجم شمال إفريقيا، فقد كان حزب الأمير خالد الإصلاحي ومؤتمر العمال الأفارقة في ديسمبر 1924 أعطى النجم نموذجا وقاعدة، ولما تأسس النجم أُعلن عن الأمير خالد رئيسا شرفيا له.[82]

◄ 4 – رسالته إلى ولسن:

لقد كان لنشاط الأمير خالد دور كبير في تغيير الطرح السياسي للقضية الجزائرية محليا وخارجيا مستغلا المناخ الدولي كورقة ضغط على فرنسا الاستعمارية بحكم التغيرات التي طرأت على العلاقات الدولية عقب الحرب العالمية الأولى وبروز الدور الأمريكي، فما إن انتهت الحرب حتى شكل وفدا من الجزائريين وتقدم إلى الرئيس ولسن Wil-son وهو في فرنسا يطالبه بتطبيق المبادئ الولسنية على الأمة الجزائرية ،[83] في عريضة تصف الظروف الصعبة للمجتمع وتطالب بتقرير مصير الجزائر،[84] فقد طمع الأمير خالد وكل زعماء الحركات التحررية في مساندة الرئيس الأمريكي لمطالبهم المشروعة،[85] ورأى أن يرمي بدلو الجزائر بين الدلاء ويعرض قضيتها على الرئيس ولسن Wilson أثناء انعقاد مؤتمر فرساي، حتى إذا نجحت حركة تحرير الشعوب

كان الشعب الجزائري من جملة من يشملهم ذلك التحرير.[86]

ففي 23 ماي 1919 قدم وفد جزائري [87]برئاسة الأمير خالد الحسني إلى باريس واتصلوا باللجنة الأمريكية للمفاوضة على السلام وتقدموا بالعريضة إلى الملازم (جورج ب نوبل) ضابط المشاة باللجنة وقد امتنعوا من توقيعها ومن ذكر أسمائهم خوفا من متابعة السلطات الفرنسية لهم، إلا الأمير خالد فإنه أعلن اسمه للضابط الأمريكي وطلب منه توصيل العريضة إلى الرئيس ولسن Wilson ومنحه وصلا يثبت اتصال الرئيس بها.[88] وقد تطرقت العريضة إلى شرح أوضاع الجزائر المزرية طيلة الـ 89 سنة من التسلط الفرنسي عبر تسلسل كرونولوجي منظم يعكس دراية واسعة بواقع الجزائر المستعمرة، وإظهار سلبيات السياسة الاستعمارية على الشعب الجزائري في جميع المجالات، مستجدية في الأخير الرئيس الأمريكي المساعدة:»**و رغم هذا فإننا جئنا باسم مواطنينا نستنجد بالمشاعر النبيلة لسيادة رئيس أمريكا الحرة، إننا نطالب بإرسال نواب مختارين بحرية من طرفنا لتقرير مصير مستقبلنا تحت إشراف عصبة الأمم**»[89]

فالأمير خالد كان مقتنعا بفكرة تقرير المصير ومبدأ الديمقراطية الولسنية لتحقيق تعويض سياسي من فرنسا لبلاده،[90] فهو كغيره من زعماء الحركات التحررية أراد حمل القضية الجزائرية إلى عصبة الأمم الناشئة فطالب في اجتماع سنة 1919 من المشاركين إمضاء اقتراح يرسل إلى ولسن Wilson وإلى مؤتمر السلام ضد الإدارة الاستعمارية الفرنسية لأجل استقلال الجزائر، وكانت حركة جريئة بالضغط عبر وساطة أمريكية على فرنسا لوضع انتداب دولي على الجزائر.[91]

لكن مؤتمر الصلح خيّب أمال الأمير خالد وباقي زعماء الحركات التحررية نظرا لسيطرة الدول الاستعمارية الكبرى وضعف عصبة الأمم الناشئة، فكان الرئيس الأمريكي ولسنWilson يحاول عبثا فرض بنوده التي نادى بها زمن الحرب، ومنها حرية سائر الأمم في تقرير مصيرها. [92]

وعلى الرغم من هذا فإن عريضة الأمير خالد وجماعته كانت إدانة للاحتلال الفرنسي، وربطا لحاضر المقاومة بماضيها، وفتحا في تطور الشعور الوطني،[93] كما أبانت عن مقاصدهم الوطنية بمطالبتهم فيها إدخال القطر الجزائري تحت رعاية جمعية الأمم، وتحت إشراف دولة تختارها تلك الجمعية،[94] وهذه المقاصد الوطنية استغلها خصومه للنيل منه وإثارة الرأي العام الفرنسي ضده، فاتهمه ابن تامي وصوالح والدكتور موسى بالتآمر والتعصب وعدم الإخلاص لفرنسا، بينما وجهت له الصحافة الفرنسية تهمة «الوطنية» التي تعد من الكبائر لما تعنيه من انفصال عن فرنسا، و ما قد يترتب عنها من عواقب خطيرة، وعليه فقد سارع الأمير خالد إلى إنكار تلك التهمة.[95] خاصة بعد انقطاع الأمل من الموقف الأمريكي و المجتمع الدولي في إطار عصبة الأمم التي ولدت ميتة.

◄ 5 – الطرح السياسي الجديد في نضال الأمير خالد:

إن القراءة المتأنية لمطالب الأمير خالد الإصلاحية التي تضمنها برنامجه السياسي في إطارها الزماني الذي طرحت فيه، وبالنظر إلى التوسع الاستعماري في كل المجالات مع مطلع القرن العشرين يجعلنا نصنفها كثورة مطلبية على الإدارة الاستعمارية التي أَلِفت المطالب الإدماجية لجماعة «بني وي وي» البعيدة عن تطلعات الجماهير الشعبية، فكان نضاله يكتسي مغزىً وطنيا حقيقيا، فهو ما انفك يندد باللامساواة في مختلف مظاهرها ويحث المجتمع

الجزائري على التعلق بإسلامه وقيمه مطالبا بتعليم اللغة العربية، منتقدا بشدة المتجنسين من الجزائريين، وأصبح من كبار رجالات البلد بفضل مساهمته في الكشف بوضوح عن الشعور الوطني بمضمونه العصري، ولم يكن ذلك بخافٍ على إدارة الاحتلال التي سارعت بطرده من الجزائر سنة 1923.[96] وقد تمكن من عقد صلة مباشرة هي الأولى من نوعها مع الجماهير الشعبية كممثل لجماعة سياسية جزائرية، فقد تجاوز هذا المغزى مجرد الاهتمام بلائحة مطالب معتدلة في حقيقتها ليبعث من جديد صلات الشعب الجزائري العاطفية نحو حبه لوطنه وتعلقه بتاريخه،[97] وهذا البعث كان ثورة على الإرث الثقيل للسياسة الإستعمارية التي راهنت على قطع صلة الجزائريين بماضيهم وأمجادهم.

فمطالبه وإن كانت إصلاحية فإنها تفضي إلى الانفصال الذي تفطنت له إدارة الاحتلال فشنت ضده حملات إعلامية انتهت بطرده من الجزائر، مدّعية أنه يشكل اضطرابا ضد فرنسا ويحرض على حرب أهلية وعلى الانفصال،[98] وكانت عريضته إلى الرئيس ولسن قد عزّزت فكرة الانفصال من خلال بحثه عن دعم خارجي جديد يضغط به على النظام الاستعماري للاستفادة من حق تقرير المصير، مما جعل الفرنسيين يحسون بتصاعد تهديد الأهالي الدولي الذي كانت «الخالدية» هي المتحدث الرسمي له.[99]

وقد أشار الأمير خالد إلى أنه لم يكن زعيما دينيا، وأن حركته ليست دينية ولكنها أساسا حركة سياسية، لأن القضية هي قضية استقلال جميع أقطار العالم الإسلامي،[100] وبما أن الجزائر تدخل في هذا الإطار فإن استعمال كلمة «الاستقلال» قد ذكرت لأول مرة،[101] ومطلب المساواة دون الاستقلال لم يكن حبا في الحكم الفرنسي، لقد كان وضعا ضروريا، فالجزائر لم تكن محمية ولا مستعمرة بل أُعلنت مقاطعة فرنسية، وفي وقائع التطور الإنساني يصبح طلب المساواة من رعايا في مقاطعة مساويا لطلب الاستقلال من مواطنين في محمية.[102]

وكان التخوف الكبير للسلطات الاستعمارية من نشاطاته وقدرته الخطابية على تعبئة الجماهير الشعبية قد وضّح أكثر ثورية مطالبه –رغم كونها إصلاحية– على الوجود الفرنسي بالجزائر، فوصفت الصحافة الاستعمارية نجاحاته بموجة التعصب الديني التي تُغرس في الجزائر ومنشؤها خالد الذي فُتن بالمبادئ الولسنية، وأدخل المسلمين (الجاهلين) في حركة خطيرة على الاستقرار الشعبي والسيطرة الفرنسية،[103] كما أن الحاكم العام ستيغ (Steeg أقر بأن الأمير خالد هو القائد الوحيد الذي يمثل الحزب العربي المعادي لفرنسا الذي يشخص الاستقلال الإسلامي للجزائر،[104] وفي تقرير للحكومة العامة إلى وزارة الداخلية ورد فيه أن الجزائر لم تعرف أي كتلة إسلامية أكدت إرادتها على التحرر من السيطرة الاستعمارية، والحركة الأولى في هذا الصدد هي التي نفذها الأمير خالد بن الهاشمي، شخص طموح مبالِغ في أهميته ظن أن الوقت قد حان كي يلعب دورا تاريخيا.[105]

فنشاطه الوطني جعل الشعب الجزائري يعيش سنوات ما بعد الحرب كتحرير مسبق حيث مجّد الإسلام، نصح بالوحدة، نادى بالكفاح السياسي، عبر بإيجاز عن دلائل الجزائر المتفتحة، كان جرس الإنذار للبرجوازية الكولونيالية التي كانت تصرخ بقوة ضد الوطنية العربية،[106] لذلك فهو يعتبر في نظر العديد من المؤرخين أول زعيم سياسي جزائري في القرن العشرين ناضل سياسيا لاسترجاع كرامة الجزائريين ونقل مطالبهم المشروعة إلى كل المؤسسات المسؤولة في الجزائر وفرنسا والهيئات الدولية وأصر على الاستجابة لها.[107]

◄ خاتمـة:

إن الأمير خالد جسّد في نضاله استمرارية المقاومة الوطنية التي بدأها جده الأمير عبد القادر الجزائري و عكست وطنيته القوية الرافضة لوضع الشعب الجزائري تحت السياسية الاستعمارية.

أحدث توازنا في الفكر المطلبي الجزائري من خلال معارضته للتجنس والإدماج للحفاظ على الهوية الوطنية وتكريس فكرة انفصال الشعب الجزائري عن الأوربيين فأعطى بنشاطه في هذا المجال نوع من الحصانة للشخصية الجزائرية.

كان نشاطه السياسي يعبر بصراحة عن يقظة الشعور الوطني الجزائري ويعكس اهتمامات الجماهير الشعبية المتطلعة إلى التغيير.

أربك الإدارة الاستعمارية التي كانت متحكمة في التمثيل النيابي وخلط حساباتها السياسية وأدخل المستعمرة «الهادئة» في حالة ثورة فكرية وانتخابية.

أظهر حنكة سياسية باستغلال المناخ الدولي لصالح طرح القضية الوطنية في مؤتمر الصلح بالاستعانة بالمبادئ التي نصت عليها عصبة الأمم للضغط على النظام الاستعماري الفرنسي وفضح ممارساته في الجزائر وهي خطوة متقدمة كثيرا.

كان أسلوبه في العمل السياسي جديدا وفعّالا من خلال اعتماده على الصحافة لإدراكه أهميتها في تبليغ أفكاره إلى الجماهير الشعبية، والمحاضرات والتجمعات في الأماكن العامة والتعبئة العمالية الوطنية و العالمية في فرنسا وهي ما أكسبته صدى واسعا.

شكلت مطالبة أرضية للتيارات السياسية الجزائرية التي جاءت بعده خاصة نجم شمال إفريقيا الحزب الثوري الذي تزامن ظهوره مع نهاية نشاط الأمير خالد في فرنسا خلال لقاءاته بالعمال المهاجرين.

◄ الهوامش:

1-Kaddach Mahfoudh: Histoire du nationalisme Algerien,question nationale et politique Algerienne (1919,(1951-1981,2 édition,société nationale d'édition et de diffusion,Alger, t1, p97.

2 -Djeghloul abdelkader:Element d'histoire culturelle lgerienne,enal,Alger,1984,p210

3 -Charles robert Ageron:Enquête sur les origines du nationalisme Algérien,l'Emir khaled petit fils d'Abdelkader fut-il le premier nationaliste Algérien,revue de l'occident musulman et de la Méditerranée,n 2,1966,p1213-.

4-Ahmed KOULAKSSIS, Gilbert MEYNIER: l'Emir khaled premier zaim! identité Algérienne et colonialisme Fançais,1987,édition l'Harmattan,Paris, p71.

5 - Djeghloul:opcit,p209.

6 - ibid,p210.

7 - Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien ,opcit,p15.

8 - Ahmed KOULAKSSIS,Gilbert MEYNIER: opcit,p79.

9- Kaddach Mahfoudh: opcit,p99.

10 -Djeghloul: opcit,p210211-.

11-ibid,p211.

12 - Kaddach Mahfoudh: opcit,p86.

13 – أحمد مهساس:الحركة الثورية في الجزائر (1914–1954)، 2007،طبعة خاصة،وزارة المجاهدين،دار المعرفة،الجزائر،،ص42.

14 – عمار بوحوش:التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962،1997،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،ص219.

15 - Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien , p15.

16 – مهندس زراعي، من أنصار الأمير خالد،نائب بلدي و مالي، كاتب صحفي،من محرري مذكرة تقرير مصير الجزائر إلى مؤتمر الصلح.

17 – مستشار بلدي لمدينة جيجل من المقربين من الأمير خالدو من مؤيديه، كان ضن الوفد الذي رافقه إلى باريس لتسليم المذكرة إلى ولسن بباريس.

18– عبد الحميد زوزو:الفكر السياسي للحركة الوطنية الجزائرية و الثورة التحريرية،2012،دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، ج1،ص 24.

19 – نفسه:ص149.

20 – أحمد مهساس:المرجع السابق،ص44.

21 – أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية الجزائرية(1900–1930)، 1992،ط4،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،ج2،ص362.

22 - Charles robert Ageron:Une politique Algérienne libérale sous la troisième république (1912 - 1919),revue d'histoire moderne et contemporaine, avril-juin 1959,t VI,p147.

23 – أحمد مهساس:المرجع السابق،ص 44.

24 -Gilbert MEYNIER:l'Algérie révélée(la guerre de 1914 - 1918 et le premier quart du xx siècle, 2010,édition el Maarifa, p 718719-.

25 – إلغاء كل القوانين الإستثنائية – تمثيل الجزائريين في البرلمان و مجلس الشيوخ – التعليم الإجباري باللغتين – إنشاء جامعة عربية – إلغاء البلديات المختلطة و الحكم العسكري – ربط الجزائر بفرنسا – منح الجزائريين حقوق المواطنة الفرنسية في إطار الأحوال الشخصية الإسلامية.

26 - Kaddach Mahfoudh: opcit,p108.

27 - Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien , p26.

28 -l'Emir khaled:Bien faire et laisser dire,l'Ikdam,n5,05- 04 -1919.

29- Kaddach Mahfoudh: opcit,p104.

30 – أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق،ص369.

31 – بوسعيد سمية:الأحزاب الجزائرية و التجربة الإنتخابية (1919–1954)،المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية،ع2،جوان 2010،جامعة سيدي بلعباس،ص69.

32 – أحمد مهساس:المرجع السابق،ص 49.

33 - Djeghloul:opcit,p212.

34 – ضمت حاج موسى،الأمير خالد،قراد خليفة،حاج عمار حمو،قايد حمود،سيدي بومدين بشير،الدكتور بن العربي،بن رضوان براهيم،سيدي مبارك الحلوي،بن سمان إلياس،بن مرابط احميدة،محمد بن يحي. أنظر: 27)،l'Ikdam,n34-11-1919).

35 – ضمت بلقاسم بن تامي،بوضربة عمر،LADMIRAL Maurice،وليد عيسى مصطفى،بوليفة بن عمار،براهم موهوب،صادق دندان،جعفر ساطور،قلاتي محمد،حسان حفيظ،صوالح محمد،تامزالي عبد النور.أنظر: 20)،l'Ikdam,n33-11-1919).

36 – أحمد مهساس:المرجع السابق،ص 44.

37- Kaddach Mahfoudh: opcit,p99.

38- Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien , p21.

39 - Kaddach Mahfoudh: opcit,p100.

40 – حاج موسى 940،الأمير خالد 925،،الدكتور بن العربي 901،قايد حمود 873 ،حاج عمار حمو 867،،قراد خليفة 824، سيدي مبارك الحلوي 784، بن رضوان براهيم 753،سيدي بومدين بشير 747،محمد بن يحي 720،بن مرابط احميدة714 ، بن سمان إلياس653.بينما لم يحصل بن تامي إلا على332 صوت و بوضربة 128.أنظر: 11,18)،l'Ikdam,n35,(décembre1919).

41 - Ageron : Une politique Algérienne libérale sous la troisième république, opcit, p147.

42 – أحمد مهساس:المرجع السابق،ص 45.

43 - Kaddach Mahfoudh: opcit,p101.

44 – أبو القاسم سعد الله:المرجع – أبو – أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق،ص290.290.

45 – عبد الحميد زوزو:المرجع السابق،ص 160.

46 - Kaddach Mahfoudh: opcit,p104.

47 – عبد الحميد زوزو:المرجع السابق،ص 165.

48 – نفسه:ص 166–167.

49 - Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien , p21.

50 – عبد الحميد زوزو:المرجع نفسه،ص 156.

51 - Djeghloul:opcit,p212.

52 - Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien , p22.

53 -ibid,p22.

54 – عبد الحميد زوزو:المرجع السابق،ص 167.

55 - Kaddach Mahfoudh:opcit,p106.

56 - Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien ,opcit, p24.

57 – عبد الحميد زوزو:المرجع السابق،ص 168.

58 - Kaddach Mahfoudh :opcit,marge 11 du p100.

59 – نتجت عن دمج جريدتي الإسلام l'Islam و الرشيدي le Rachidi تدافع عن المصالح السياسية و الاقتصادية لمسلمي شمال إفريقيا بدأت في الصدور سنة 1919 للتعبير عن الجزائر السياسية الجديدة و بعد نفي الأمير خالد أصبحت في يد نجم شمال إفريقيا.

60 – تأسست بالعاصمة في 1922/01/23 برئاسة الأمير خالد هدفها البحث عن الوسائل للدفاع و تحسين الوضع المادي و المعنوي و الثقافي و الاقتصادي و السياسي للسكان المسلمين الجزائريين.للمزيد أنظر: 11)،l'Ikdam,n91-08-1922).

61 - Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien , p27.

62 - Kaddach Mahfoudh:opcit, p106.

63 - l'Ikdam,n19,(14- 01- 1921).

64 - l'Ikdam, n20,(21 - 01- 1921)

65 - Djeghloul:opcit,p211.

66 -l'Emir khaled :la représentation des indigènes Algériens au parlement, l'Ikdam,n12,(23- 12

université de Mascara,p54.

85 – مولود عويمر:الأمير خالد الجزائري من خلال مجلة الشهاب و جريدة البصائر،البصائر،ع 788،(2015/12/28- 2016/01/03)،ص15.

86 – عبد الحميد زوزو:المرجع السابق،ص 213.

87 – كان من خمسة أعضاء الأمير خالد و هو الوحيد الذي صرح باسمه للضابط الأمريكي(جورج ب نوبل) و قايد حمود بالإضافة إلى ثلاثة آخرين.

88 – أبو القاسم سعد الله:أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر،ج2،طبعة خاصة،عالم المعرفة للنشر و التوزيع،الجزائر،2009،ص50.

89 – نفسه،ص58.

90 – أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية،المرجع السابق،ص370.

91 - Kaddach Mahfoudh: opcit,p111.

92 – أحمد توفيق المدني:هذه هي الجزائر،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،ص 163.

93 – أبو القاسم سعد الله:أبحاث و آراء،المرجع السابق،ص52.

94 – عبد الحميد زوزو:المرجع السابق،ص 169.

95 – نفسه:ص158.

96 – أحمد مهساس:المرجع السابق،ص 49.

97 – نفسه،ص45.

98- Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien,opcit , p37.

99- Ahmed KOULAKSSIS,Gilbert MEYNIER: opcit,p183.

100 – أبو القاسم سعد الله:الحركة الوطنية،المرجع السابق،ص369.

101 – نفسه:ص370.

102 – نفسه:ص295–296.

103 - Kaddach Mahfoudh: -1922).

67 -Annales Africaines,n20,(18 - 05 -1922),p834.

68 – عمار بوحوش:المرجع السابق،ص 225.

69 – أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق،ص363–364.

70 - Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien,opcit, p38.

71 - Annales Africaines,n35, (29- 08- 1924),p551.

72 – أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق،ص364.

73 - Kaddach Mahfoudh: opcit,p117.

74 - Ahmed KOULAKSSIS, Gilbert MEYNIER: opcit,p195.

75- Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien , p41.

76 – أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق،ص365–366.

77 - Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien , opcit, p42.

78 - Ahmed KOULAKSSIS,Gilbert MEYNIER: opcit,p121.

79 - Ageron: Enquête sur les origines du nationalisme Algérien,opcit , p43.

80 - Annales Africaines,n35, (29- 08 -1924),p549.

81 – أبو القاسم سعد الله:المرجع السابق،ص368.

82 – نفسه:ص372.

83 – علال الفاسي:الحركات الاستقلالية في المغرب العربي،ط 6،2003،مؤسسة علال الفاسي،الدار البيضاء،ص11.

84-Messaouda YAHIAOUI:Islam et identité nationale pendant l'entre deux guerres 19191939/ en Algérie. El-Nahda et reactions coloniales, El Mawaqif,n spécial,avril 2008

opcit,p115.
104 -ibid,p119.
105 - Ahmed KOULAKSSIS,Gilbert MEYNIER:opcit,p167.

106 - Gilbert MEYNIER:l'Algérie révélée,opcit,p737.

107 – مولود عويمر:المرجع السابق،ص15.

◄المصادر و المراجع:

1/المصادر باللغة الأجنبية:

الجرائد و المجلات:

-l'Ikdam:(1919- 1921 -1922).
-Anales Africaines:(1922- 1924)

2/المراجع باللغة العربية:

الكتب:

1 – الفاسي علال:الحركات الاستقلالية في المغرب العربي،ط 6،مؤسسة علال الفاسي،الدار البيضاء،2003.

2 – المدني أحمد توفيق:هذه هي الجزائر،مكتبة النهضة المصرية،القاهرة.

3 – بوحوش عمار:التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،1997.

4– زوزو عبد الحميد:الفكر السياسي للحركة الوطنية الجزائرية و الثورة التحريرية،ج1،دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع،الجزائر،2012.

5 – سعد الله أبو القاسم:أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر،ج2،طبعة خاصة،عالم المعرفة للنشر و التوزيع،الجزائر،2009.

6 – سعد الله أبو القاسم:الحركة الوطنية الجزائرية(1900–1930)،ج2،ط4،دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان،1992.

7 – مهساس أحمد:الحركة الثورية في الجزائر (1914–1954)،طبعة خاصة،وزارة المجاهدين،دار المعرفة،الجزائر،2007.

المجلات و الجرائد:

1 – بوسعيد سمية:الأحزاب الجزائرية و التجربة الإنتخابية (1919–1954)،المجلة المغاربية للدراسات التاريخية و الاجتماعية،ع2،جوان 2010،جامعة سيدي بلعباس.

2– عويمر مولود:الأمير خالد الجزائري من خلال مجلة الشهاب و جريدة البصائر،البصائر،ع 788،(2016/01/03 2015–/12/28).

3/المراجع باللغة الأجنبية:

1 -DJEGHLOUL abdelkader: Element d'histoire culturelle Algerienne,enal,Alger,1984.
2 -KADDAGH Mahfoudh: Histoire du nationalisme Algerien,question nationale et politique Algerienne (19191951-),t1,2 édition,société nationale d'édition et de diffusion,Alger,1981.
3 - KOULAKSSIS Ahmed , MEYNIER Gilbert:l'Emir khaled premier zaim! identité Algérienne et colonialisme Fançais,édition l'Harmattan,Paris,1987.

4 - MEYNIER Gilbert:l'Algérie révélée(la guerre de 19141918- et le premier quart du xx siècle,édition el Maarifa,2010.

المجلات:

1- Ageron charles robert:Enquête sur les origines du nationalisme Algérien,l'Emir khaled petit fils d'Abdelkader fut-il le premier nationaliste Algérien,revue de l'occident musulman et de la Méditerranée,n 2,1966.

2- Ageron charles robert:Une politique Algérienne libérale sous la troisième république (19121919-),revue d'histoire moderne et contemporaine,t VI, avril-juin 1959.

3- YAHIAOUI messaouda:Islam et identité nationale pendant l'entre deux guerres 19191939/ en Algérie. El-Nahda et reactions coloniales,El Mawaqif,n spécial,avril 2008 université de Mascara.

الانعكاسات الاجتماعية للاستيطان الأوربي في المغرب على عهد الحماية الفرنسية

د/ جلال زين العابدين
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس
فاس - المملكة المغربية -

مقدمة:

أدت الهيمنة الاستعمارية والسياسة الفلاحية التي اتبعتها سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب إلى إحداث تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة في الوسط القروي؛ حيث ستتم هيكلة بناه الإنتاجية على أساس مقتضيات السوق الفرنسية والمراكز الرأسمالية، فاحتكر الأوربيون الفلاحة العصرية المعتمدة على التقنيات والمفاهيم الزراعية الحديثة والتي تحظى بمختلف أشكال الدعم من إقامة بنيات تحتية، ونظام المكافآت المتعددة والمتنوعة للمستوطنين الزراعيين لتسهيل غرس جذورهم في التربة المغربية أولا، ولتسهيل اندماجهم في الاقتصاد الفلاحي الفرنسي ثانيا.

وإلى جانب الفلاحة الكولونيالية، نجد الفلاحة المغربية التي أحاطتها سياسة الحماية بحزام من البؤس والتخلف، فكان من نتائجها تجميد وتفتيت هذه الفلاحة رغم أهميتها الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة للسكان الحضريين والقرويين على السواء، فأغلقت أمامها جميع أبواب الطموح لتجاوز وضعية الفلاحة المعاشية، وقد أدت الأشكال الجديدة من الاستغلال التي رافقت الاستيطان الأوربي إلى ظهور تناقضات اجتماعية عميقة مست الأسر والقبائل، وأعادت تصنيف المجتمع المحلي حسب المهن والدخل ومستوى المعيشة، كما أدت إلى زعزعة كيان المجتمع المغربي، وإلى تصدع البنى والعلاقات القبلية لتحل محلها علاقات الإنتاج المبنية على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والفردانية التمايز الاجتماعي، وإلى بروز علاقات اجتماعية لم يألفها المجتمع المغربي الذي كان مبنيا على التآزر والتضامن وعلى أساس علاقات القرابة وروابط الدم وأواصر التضامن القبلي.

◄ أولا– الفلاحة المغربية في استراتيجية سلطات الحماية الفرنسية:

1 – الفلاحة المغربية قبل الحماية: كانت الفلاحة تلعب دورا اجتماعيا واقتصاديا مهما في حياة المغاربة، وقد ظلت لوقت طويل تقوم على علاقات بين عاملين: الإنتاج المحلي والاستهلاك الذاتي للسكان، فكانت تقوم بتلبية حاجياتهم كما ونوعا. غير أنها عانت من توالي سنوات الجفاف التي كانت تدوم أحيانا لمرات طويلة، كان آخرها الجفاف التي امتد لخمس سنوات بشمال المغرب بين سنتي 1978 و 1883، وإلى سبع سنوات في الجنوب أي إلى حدود سنة 1885. كما عانت من الاجتياح الكثيف لجحافل الجراد، إذ يبرز نيكولا ميشيل(Nicolas Michel) أنه بين 1800 و 1912 اجتاح الجراد 32 مرة جهات مختلفة من المغرب في ظل انعدام إمكانية محاربته[1]. يضاف إلى هذه المشاكل مشكل البنية العقارية المعقدة وغير المساعدة، والتي لم تمنح السلاسة والمرونة الكافية للاستثمار في الفلاحة، حيث أن الملكية الخاصة للأرض لم تكن منتشرة في المغرب قبل الحماية، وكانت محصورة جدا في أراضي بعض العائلات الكبرى[2]. وكانت الأرض تتوزع من الناحية القانونية إلى:

– الأراضي الجماعية أو أراضي القبائل، وهي أراضي في ملكية الجماعة ولا يمكن التصرف فيها أو تفويتها.

– أراضي المخزن، وهي أراضي تابعة للدولة وتشمل الأملاك المخزنية وكل ما ما لا يمكن امتلاكه لأنه في مصلحة العموم مثل الشواطئ والغابات.

– أراضي الجيش، وهي أراضي تابعة للدولة أقطعتها لبعض القبائل مقابل تقديمها لخدماتها العسكرية لصالح المخزن.

– أراضي الأحباس، وهي الأراضي التي تم توقيفها على الأحباس، وهي كذلك لا يمكن تفويتها.

– أراضي الخواص، وهي أراضي في ملكية الأفراد لكن كما سبقت الإشارة إلى ذلك ظل انتشارها محدودا[3].

لم يكن التعقيد الذي ميز البنية العقارية في المغرب غير محفز للإنتاج والاستثمار الفلاحي بالنسبة للمغاربة فحسب، بل شكل حاجز صد قانوني بالنسبة للأوربيين الطامعين لامتلاك الأراضي المغربية مما جعلهم يناورون عن طريق المخالطة والحماية القنصلية، قبل أن يطرحوا الموضوع للتفاوض على أساس أحقيتهم في امتلاك العقار مقابل أدائهم للضرائب الفلاحية، وهو موضوع تطرقت إليه المواد 11 و 12 و 13 من مؤتمر مدريد، والمادتين 59 و 60 من مؤتمر الجزيرة الخضراء[4].

وإذا كان إنتاج هذا القطاع قد ظل تحت رحمة التقلبات المناخية وعاني من البنية العقارية المعقدة ومن الأساليب التقليدية المستعملة، فإن عوامل أخرى أسهمت في تغيير ملامحه، وخاصة الإكراهات الجديدة التي أفرزها التدخل الاستعماري. ذلك أن دخول المستعمر إلى المغرب وما تبعه من جحافل المعمرين، أدى إلى خلخلة هذا التوازن من خلال استيلائهم على أجود وأخصب الأراضي الفلاحية، فأخذت وسائل العيش تتضاءل بالنسبة للفلاحين تدريجيا بسبب نقص مساحة الأراضي الصالحة للزراعة، ويقول القبطان روميو (Capitaine Romieu) في هذا الصدد عن بني وراين «إن دخولنا البلاد قد أخل بالتوازن العريق بين أعداد السكان وبين الإنتاج، وهو توازن كان يفيد السكان أنفسهم، فأعطي المعمرون أزكى الأراضي التي كان الناس يستغلونها (...) وحددت مناطق الغابات وأسندت إدارتها إلى مصلحة المياه والغابات، وذلك ما

اعتبر نقصا من حقوق السكان على هذه المناطق»[5].

2- الاستيطان الزراعي وانعكاساته على الفلاحة المغربية: كان الجنرال ليوطي حذرا منذ البداية في تعامله مع مسألة الأرض في المغرب، فقد كان يدرك أن»مس آلة دقيقة على شاكلة التنظيم الاجتماعي للمغرب (...)، يمكن أن تكون له انعكاسات خطيرة جدا على أمن وتنظيم البلاد. ويجب التحرك باحتياطات دقيقة، وعدم الإقدام على تغيير الوضعية القانونية للأراضي الجماعية إلا بعد أن تكون قواعد الغزو قد ترسخت، وحتى تكون الإدارة قد بدأت تسير بشكل طبيعي»[6]. ولم يكن من السهل العثور على صيغة تمنع الابتزاز.

الذي جرى في الجزائر، وتحول دون تجريد الفلاحين المغاربة من أراضيهم [7]، مع ما عرفوا به من تعلق وارتباط غريزي بأرضهم وغيرتهم عليها[8]، فنشط تفكير ساسة الحماية على مستوى التحليل والتشريع واستنباط الحلول، لوضع أسس بناء ضخم من التأويلات والنظريات والنصوص القانونية، تشرع وتبرر ابتزاز الفلاحين والسيطرة على أراضيهم، تارة باسم استرجاع أراضي الدولة التي استولى عليها السكان في مراحل ضعف السلطة المركزية، وتارة بحجة الحصول عليها بتواطؤ مع عناصر قيادية في السلطة المركزية، وتارة أخرى لعجز الفلاحين وعدم قدرتهم على الإدلاء بالوثائق الضرورية التي تؤكد ملكيتهم للأرض.

وهكذا سنت إدارة الحماية مجموعة من التشريعات شكلت القاعدة القانونية للنهب والابتزاز[9]، فأصدرت ظهير 12 غشت 1913 الذي نص على تسجيل العقارات، وضرورة التدقيق في الوثائق المدلى بها[10]. فأصبح لكل قطعة أرضية بمقتضاها سند عقاري يحمل اسما ورقما وتصميما للملكية، وسهل ذلك تسلط الأجانب على الأرض لجهل المغاربة بالإجراءات القانونية الجديدة. ثم صدر ظهير 7 يوليوز 1914 فجعل الأراضي الجماعية وأراضي الأحباس وأراضي الكيش، غير قابلة للتفويت، ووضعها تحت حماية الدولة التي أصبح لها حق مراقبتها تسييرها[11].غير أنه بعد سنتين (1916) تم تأسيس «لجنة استعمار الأراضي «من أجل تشكيل وتوزيع القطع الأرضية القروية، وقررت سلطات الحماية انسجاما مع مبادئ الاستعمار المختبرة، تدعيم الاحتلال العسكري بإسكان عائلات فرنسية في القرى المغربية، وسيكون لهذه العائلات تأثير حضاري على الفلاحين المغاربة بالمثل الذي ستعطيه لهم[12]. وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى، صدر ظهير جديد في 27 أبريل 1919 جعل الأراضي الجماعية تحت رقابة مجلس وصاية له صلاحيات تفويت أراضي الجماعات لطرف ثالث، فاقتطعت أجزاء مهمة من الأراضي تحت غطاء المصلحة العامة، وسهلت الاستيلاء عليها لفائدة الكولون بطرق شرعية غير منازع فيها[13] ، فتدهورت الجماعات ولحق التفقير بأفرادها وتغيرت الهياكل الزراعية التقليدية مما انعكس على الوضع الاجتماعي لسكان البوادي.

إن ما تجب الإشارة إليه هو أن السيطرة والاستيلاء على أراضي الفلاحين في المغرب، قد ارتبط إلى حد كبير بالغزو العسكري، فالمستوطنون المزارعون كانوا يسيرون على حد تعبير أحمد تافسكا، في عصابات مسلحة خلف القوات الاستعمارية التي تتولى إبادة ومطاردة السكان لتتيح المجال للمستوطنين للحصول على أملاك فلاحية، وتزيل كل ما من شأنه أن يشعرهم بأنهم غرباء في مجتمعهم الجديد، وتصفهم الصحافة الاستعمارية بأنهم ''طلائع جيش قوي''[14]. لذلك قامت السلطات الفرنسية بتمهيد الطريق أمام الاستيطان الزراعي وتدعيمه، لأنه هو الذي يعطي حضورا واستمرارا للنفوذ الفرنسي بالمغرب، وهو ما يوضحه كاديل (Cadile. J) بقوله: «لقد

تم الاستيطان الرسمي بشرق تازة في 1924، وفي الريف ما بين 1926 و1930 بالموازاة مع التهدئة العسكرية».[15] وقد وصل هذا الاستيطان إلى أقصى تأثيره في حياة الفلاحين، كما يؤكد ذلك ألبير عياش حيث يقول «في الريف الشرقي وسهول ما بين تازة ووجدة وزعت القبائل الرحلية سابقا فيما بينها أراضي فقيرة تزرعها بالحبوب (...) غير أن الهجرة نحو السهول المستعمرة تبدو مفروضة»[16].

ونشير إلى أن الاستيطان الزراعي كان قد تعرقل تطوره في بداية الحماية بسبب تمسك المغاربة بأراضيهم، واستمرار المقاومات المسلحة في عدة مناطق بشكل أعاق الاستيطان الأوربي. وبعد القضاء على هذه المقاومات أصبح الفرنسيون أحرارا وسارعوا إلى الحصول على المزيد من أراضي الأهالي المغاربة مما أدى إلى تدمير القاعدة الاقتصادية للفلاحين المغاربة الذين تزايدت أراضيهم المغتصبة والمسلوبة، وتحول قسم كبير منهم إلى «خماسة»، أو إلى عمال في المزارع الأوربية[17]، كما تحول الوسط القروي إلى مصدر واسع النطاق للهجرة سواء كان داخل البلاد أو إلى خارجها.

وهكذا وجدت تشكيلة من المعمرين نافسوا الفلاحين المغاربة الذين أصبحوا في درجة دنيا مقارنة معهم، لأن زراعاتهم التقليدية ذات الإنتاج البسيط لم تصمد أمام الزراعات المنتجة في الضيعات الأوربية العصرية المستفيدة من الأسمدة الكيماوية، والبذور المنتقاة، كما أن الفلاحين المغاربة لم يستفيدوا من الامتيازات المختلفة التي منحتها سلطات الحماية للمعمرين الأوربيين. فرغم أن الظهائر لم تميز بين الأهالي والمستوطنين من حيث حق الاستفادة من المنح والمكافآت، إلا أن إمكانيات الفلاحين المغاربة المتواضعة لم تسمح لهم باستيفاء الشروط المحددة لنيل هذه المكافآت. فكيف يمكن الحديث عن إدخال تقنيات وأساليب حديثة في عملية الإنتاج أو الزراعة على الطريقة الأوربية لفلاحين جردوا من أراضيهم الخصبة؟

لقد ظل الفلاح المغربي خارج منظومة الإرشاد الكولونيالي، الذي ركز على توعية الكولون الأوربي بأهمية وضرورة استعمال الأساليب العصرية في الفلاحة، كما حرص الفلاحون الأوربيون على عدم انتقال المعرفة بهذه الأساليب العصرية إلى جيرانهم الفلاحين المغاربة، ليحافظوا على تفوق إنتاجهم، فبقي الفلاحون المغاربة يعتمدون على ما ورثوه عن أسلافهم من طرق ووسائل زراعية تقليدية، وهو ما كان يدفع أحيانا بعض الفلاحين المغاربة إلى ''التجسس المعرفي''على الكولون الأوربي عبر استخدام معارفهم وأصدقائهم العاملين في مزارع الأوربيين، لاكتشاف سر تخلف إنتاجهم عن إنتاج الأوربيين، أو سر عدم تأثر حقول الكولون بأمراض تجتاح المنطقة، أو طرق تخلص الأوربيين من أعشاب ضارة تعجز الأساليب التقليدية عن مكافحتها[18].

وواجه الفلاحون المغاربة بالإضافة إلى تربص المعمرين بأراضيهم، عوامل طبيعية أرهقتهم وزادت من بؤسهم مثل الجفاف، والعواصف الرعدية والثلجية والجراد وهو ما أسهم في تأزم وضعية الفلاحين وتراجع مستواهم المعيشي، كما دفعتهم في العديد من الأحيان إلى الخروج عن القبيلة، في إطار هجرات جماعية للبحث عن مصدر عيش ملائم، يعوض النقص الحاصل في المدخول الفلاحي[19].

أما الضريبة الفلاحية (الترتيب) فقد شكلت إلى جانب العوامل السابقة عبئا ثقيلا على الفلاحة الأهلية، مما زاد في تأزمها. ولم تكن مصلحة الضرائب تأخذ في الحسبان ظروف الفلاحة المغربية، حيث كانت تحدد مبلغها بناء على تقديرات اللجنة الجهوية المكلفة بوضع تقديرات إنتاج المغاربة، وعلى ضوء ذلك كانت تتم عملية تحديد الترتيب الواجب

على كل فلاح، وكذلك إعداد تقديرات الإنتاج الفلاحي[20]، كما أن هذه التقديرات لم تكن تتم على أساس بحث موضوعي لوضعية الفلاحة والأشجار المثمرة ورؤوس الماشية التي توجد في حوزة المغاربة، بل كانت تتم بناء على تصورات أعوان السلطة المحلية التي غالبا ما كانت تجانب الواقع، ليجد الفلاح نفسه ملزما بمبالغ تفوق إلى حد كبير محصوله الفلاحي[21].

◄ ثانيا– بعض الإجراءات الإصلاحية للحماية في مجال الفلاحة المغربية:

اتخذت الإدارة الفرنسية عدة مبادرات، لتظهر أنها تريد النهوض بالفلاحة المغربية التقليدية وإصلاح العالم القروي، فتم التفكير في إنشاء تعاونيات فلاحية تقوم بتخزين المنتوج وتحويله وبيعه وتقديم قروض لصغار الفلاحين لحمايتهم من المرابين، ويتعلق الأمر بما كان يعرف بالجمعيات أو»الشركات الاحتياطية الأهلية» (Sociétés Indigènes de Prévoyance) أو (SIP) التي أنشئت ونظمت بمقتضى ظهير 26 ماي 1917[22] المغير بظهير 19 يوليوز1917، وظهير 12 أبريل 1912، وظهير 28 نونبر 1921، ثم ظهير 28 يناير 1922؛ وهي عبارة عن مؤسسات مدنية تحدث بقرار وزاري يحدد دائرتها الترابية، تشمل إلزاما كل الفلاحين الأهليين غير المحميين المسجلين في قائمة الترتيب[23]. وتهدف إلى إعانة الفلاحين بالقروض، مادية كانت أو عينية، ليتمكنوا من مواصلة أعمال فلاحتهم ومن توسيع نطاقها، واعتماد التقنيات الحديثة الضرورية في ميدان الفلاحة وتربية الماشية والمساهمة في تطبيقها، وتهدف إيضا إلى حماية الفلاحين الأهالي من المضاربات العقارية (الربا– الاحتكار)، كما يمكنها أن تقوم مقامهم عند الحاجة بإلغاء كل رهن أو التزام يبدو لها مبالغا أو العمل على الحد منه، والمساهمة كذلك في عقد تأمينات ضد الكوارث الفلاحية (حريق ،موت المواشي،جراد...)[24].

وإضافة إلى تقديم السلفات و الإعانات، كان بإمكان الشركات الاحتياطية الأهلية، إحداث جمعيات تعاونية يعهد إليها هي الأخرى بصيانة المنتوج وتحويله وتسويقه وفق الشروط المتبعة في المؤسسات الصناعية (مضاربة، احتكار، تحقيق القيمة المضافة...)، وذلك– كما ينص عليه ظهير24 أبريل –1937 بعد الحصول على ترخيص من إدارة الداخلية استنادا إلى موافقة إدارة الفلاحة والتجارة والغابات، وكذا المسؤول عن الصناعة التي قد يهمها الأمر[25] وفي هذا الصدد شهدت سنة 1937 بالمغرب تأسيس 11 «تعاونية أهلية فلاحية» المعروفة باسم: (Coopérative Indigène Agricole أو CIA) بمقتضى ظهير 24 أبريل 1937 في مجموعة من المدن، الرباط، البيضاء، القنيطرة، مكناس، فاس، تازة، وجدة، واد زم، مازاكان، آسفي، ومراكش[26]. وحتى لا نعطي لإجراءات سلطات الحماية أبعادا أكثر من حجمها، نتساءل ماهي حقيقة وفعالية هذه المحاولات التحديثية؟

لم تؤد هذه المجهودات في الواقع إلى النتائج المرجوة من طرف الأهالي لأسباب عديدة، ذلك لأن إدارة الحماية كانت تسعى من وراء كل المبادرات التي اتخذتها في هذا المجال إلى الاستحواذ على أقصى ما يمكن من الأراضي لتوزيعها على المستوطنين، وإلى تكوين «طبقة»متوسطة من الفلاحين الذين يزكون سياستها، والحد في الوقت نفسه من الهجرة القروية للحفاظ على حشود العمال الفلاحين الذي يمكن استثمارهم في ضيعات المعمرين[27]. فالقبائل ارتفعت معاناتها من هذه القروض التي كانت تمنحها هذه التعاونيات المحلية[28] بفوائد عالية[29]، كما أن هذه القروض لم يكن يستفيد منها إلا الفلاحون الميسورون، أما صغار الفلاحين فقد كانوا في حالة

عدم تأدية ديونهم في الأجل المحدد عرضة لفقدان أراضيهم، أضف إلى هذا أن عدم إشراك الفلاحين، وهم المعنيون الأساسيون بكل ما تقرره الشركات الاحتياطية الأهلية (SIP) والتعاونيات الفلاحية الأهلية (CIA) في اتخاذ القرار، أفرغ الجانب التعاوني التي تدعو إليه هذه المؤسسات من كل مضمون حقيقي، وجعل منها مجرد مجال لتكوين الأطر التقنية والمراقبين أكثر منها مجالا لتكوين الفلاحين وتحسين أوضاعهم[30].

وأنشأت الإقامة العامة إضافة إلى هاتين التعاونيتين، مركزية التجهيز الفلاحي للبيزانا Central d'Equipement Agricole du Paysanat) أو C.E.A.P) بظهير 26 يناير 1945؛ وهي مؤسسة عمومية تتمتع بالشخصية المدنية والاستقلال المالي[31]، تهدف إلى تنمية الفلاحة وتربية الماشية، بتقديم قروض للفلاحين وتأطيرهم تقنيا وبيع المعدات الفلحية أو كرائها لهم[32].

ولإنجاز مهامها، اعتمدت مركزية الـ: (C.E.A.P) على مكاتب محلية تقوم بتقديم معلومات حول التكوين الكيميائي للتربة ونوعية الأسمدة التي ينبغي استخدامها وطريقة محاربة التعرية والأمراض النباتية لقطاع التحديث الفلاحي (Modernisation du Paysanat Secteur de أوS.M.P) المنشأ بظهير 5 يونيو 1945[33]، وهو عبارة عن مؤسسة عمومية تسيرها السلطة المحلية ترمي إلى تحقيق أهداف مادية واجتماعية وأخلاقية تتمثل في تحسين الإنتاج وتوجيه الفلاحين نحو زراعات جديدة والعمل على تطبيق مخطط للتنمية وتحسين أوضاع الفلاحين الاجتماعية، وذلك ببناء المدارس والمستوصفات ودور السكن قصد تحسين أوضاع الفلاحين الاجتماعية، وإشراكهم في مداولات مجالسS.M.P قصد تهيئتهم لتحمل مسؤولياتهم مستقبلا[34]. وعموما كانت ترمي «البيزانا» من خلال تدخلاتها هاته تحقيق تغيير جذري وإصلاح شامل في حياة الفلاح المغربي. فالتعليم الإجباري، والمراقبة الطبية ضد الأمراض، والمساعدة الاجتماعية واستخدام الآلات...، ستسهم في توعية الفلاح وتجعله يتحرر من الاعتقادات الروتينية والقيود التي كانت تقف عائقا أمام تقدمه. وبلا شك فالإصلاح سيكون صدمة نفسية صادرة عن المكننة، وهو ما سيؤدي إلى زعزعة أنماط الانتاج التقليدية والرفع من القدرة الإنتاجية للفلاح ثم تغيير نمط عيشه[35].

◄ ثالثا : مظاهر التطور الحاصل في العلاقات الاجتماعية

بعد أن فرضت فرنسا سيطرتها على المغرب وتوغلت داخل أراضيه وجدت أمامها عدد من خدام المخزن، وهم الفئات الحاكمة المكونة من شيوخ القبائل والقواد والأعيان وبعض الزوايا. وقد أبقى الاستعمار على معظم هذه الفئات وامتيازاتها الأدبية والاجتماعية، ومنحها مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية عند إدخال نظم تسجيل الأراضي لكي تكون دعامة وسندا للمحتل، ولكنه جردها في المقابل من نفوذها السياسي الحقيقي لأنه أصبح الحاكم الفعلي للبلاد. وظلت هذه الفئات أداة مسخرة من طرف الاستعمار حيثما يريد واجهة لإضفاء الشرعية على بعض سياساته الاستيطانية[36].

وقد أدت الهجرة القسرية بفعل التدخل الاستعماري في القرى إلى فقدان المغرب لتوازنه السكاني جغرافيا، حيث أفرغت البادية من سكانها، وازدحمت المدن بعشرات الآلاف من المهاجرين الفلاحين، الذين فقدوا كليا أو جزئيا صلتهم الماضية بعالم الزراعة ولا رابطة تاريخية لهم بعالم المدينة ومجتمعها، وفجروا الإطار التقليدي للمدن

التاريخية المغربية، وشكلوا قاعدة كبيرة من العاطلين وأشباه العمال في خدمة الاقتصاد الرأسمالي الأوربي، ووضعوا بذلك اللبنة الأولى في تكوين الطبقة العمالية المغربية[37].

وبإدخال نمط الإنتاج الرأسمالي الاستعماري عملت سلطات الحماية على تفكيك الملكية الجماعية للقبائل المغربية، والتي هي أساس التضامن القبلي. ومركزت سلطات الحماية الملكية الفردية للأرض ووسائل الإنتاج الأخرى، وأصدرت من أجل ذلك سلسلة من القوانين لتدعيمها وتعميمها. واستهدفت من ذلك تسهيل عمليات انتزاع أجود الأراضي، وجعلتها تحت تصرف المعمرين. وأدى ذلك إلى فصل الفلاح عن أرضه، وبالتالي عن ''جماعته''وعشيرته وقبيلته. ووقع تحول وتدجين لدور''الجماعة''لدى القبيلة، وصدرت قوانين تحدد مهمتها الجديدة[38]. ففقدت»الجماعة» سلطتها السابقة، وأصبحت تابعة ومراقبة من طرف سلطات الحماية. ونفَذَت عن طريقها إدارة الحماية، بشكل أعمق لنسف جدور الحياة الجماعية القبلية.

وهكذا ظهر نمط الملكية الفردية للأرض، وتحولت العلاقات داخل القبيلة من علاقات عشرية في مفهومها التقليدي القديم إلى علاقات اقتصادية ترتكز على امتلاك رؤساء القبائل والقواد ورؤساء الطرق الصوفية للأراضي الزراعية الواسعة، وتحول سائر أفراد القبيلة بالتدريج إلى فلاحين أجراء في أراضي زعمائهم.

وما لحق الزراعة من تغير في نمط ملكيتها لحق تدريجيا ملكية الماشية، فقد تحولت هذه الأخيرة من ملكية عشيرة مشاعية إلى ملكية أسرية أو فردية، ولكن النشاط الرعوي لم يتطور في وسائله بالدرجة أو السرعة نفسها اللتان تطورت بهما الزراعة في البادية المغربية، لذلك يظل الفائض الاقتصادي المتولد من هذا النشاط، والقابل للتوزيع والاستحواذ من خلال الآخرين محدودا للغاية[39].

إن الاستعمار الذي أدخل الرأسمالية إلى البلاد لم يزد إلا في تأزمها، ولم يسهم إلا في «بلترة» أهاليها وتهميشهم، وتحويل أغلبيتهم إلى خماسة ومزارعين أو يد عاملة بخسة في متناول المعامل الاستعمارية التي تحول ثروات البلاد إلى بلدها الأصلي. صحيح أن الاستعمار قد ساهم في عصرنة الفلاحة بالمكننة وتقنيات الري الحديثة، ولكن ليس لصالح البسطاء من المغاربة بل لصالح المستوطنين أو لصالح «الأرستقراطية العقارية» التي ستستولى بعد الاستعمار، على ما سمي ب»أراضي المعمرين المسترجعة»؛ ولكن صحيح أيضا أن الرأسمالية الاستعمارية قد أسهمت في تفكيك المجتمع المغربي وأشكال تضاماناته التقليدية، وشردت العائلة وقتلت الآلاف من الأهالي المغاربة تحت ذريعة التهدئة والسلم[40]. فكان السلم والتهدئة الكولونياليين» مساهمة فعالة في إيقاف صيرورة التاريخ الاجتماعي الداخلي بتجميد البنيات المحلية، وبإدخال تحول اقتصادي اجتماعي وسلوكي»[41].

ومع تطور نظام ملكية الأرض، وظهور تقسيم العمل ونمو المبادلات التجارية بدأت تتبلور عملية التمايز الاجتماعي. وقد أصبحت هذه العلاقات تحل تدريجيا محل التمايزات القبلية التقليدية القائمة على أساس علاقات القرابة وروابط الدم وأواصر التضامن القبلي. وقد ساهم التغلغل التدريجي لعلاقات الإنتاج الرأسمالية في هذا التحول من غير أن تختفي تماما البنيات التقليدية بل حدثت عملية مزاوجة وتهجين بين الهياكل والتمايزات القبلية التقليدية والعلاقات والتمايزات الرأسمالية الحديثة[42].

وهكذا أخذت عمليات التمايز الاجتماعي تسير في اتجاهات متعددة. فالتغيير الذي أجراه الفرنسيون في شكل الملكية، لم يؤد إلى خراب الفئات

الإقطاعية، بل أسهم في تبلورها وصياغة معالمها ورسم حدودها لكي تكون سندا قويا للمستوطنين الأجانب. كما ظهرت فئة من المغاربة المكونين من كبار ملاك الأرض الذين لا يقومون بزراعة أراضيهم بأنفسهم. وغالبا ما كانوا يقومون بتأجير أراضيهم للفلاحين أو يستأجرون عمالا زراعيين لفلاحتها. وأغلبية هؤلاء الملاك كانوا يقطنون المدن، وبهذا لم يكن بينهم وبين قراهم وفلاحيها أية روابط وثيقة أو علاقات شخصية[43].

لقد أدت التغييرات الاستعمارية الكبيرة إلى تحول أعداد كبيرة من الفلاحين إلى عمال يتقاضون أجرا، فقد وجدت هذه الفئة من الفلاحين نفسها محرومة الملكية وعاجزة عن تطوير مقدرتها لامتلاك إنتاجها تدفعها حركة مزدوجة، فعليها من جهة أن تجد عملا مأجورا يضمن لها حياتها، وعليها من جهة ثانية، كي لا تفقد كل شيء، أن تحافظ على تضامن تقليدي معين عائلي قروي ورثته من ماضيها. وكان الوصول إلى ظروف العمل المأجور يحصل بعقد فردي شفهي بين العامل وصاحب المزرعة وهذا مما أدى إلى نشوء شكل جديد من تبعية العامل الذي كان قد تحرر من التبعية السابقة للإقطاعيين.

إن هذه الفئة من الأجراء التي نمت ونشأت في ظل السيطرة الاستعمارية قد تضخم حجمها بسرعة كبيرة، وقد حصل هذا التوسع في حجمها بشكل رئيسي على حساب الفئات الاجتماعية الأخرى والتي اضطرها الإفقار المتزايد إلى الالتحاق بسوق العمل، بسبب سياسة الدمج الاقتصادي للسلطات الاستعمارية[44].ونشير إلى صعوبة التحديد الدقيق لعدد اليد العاملة الزراعية وتوزيعها خلال فترة الهيمنة الاستعمارية، ويزيد في تعقيد هذه المهمة أن الزراعة الأوروبية كانت تعتمد على اليد العاملة المغربية اعتمادا كليا . وأن الكثرة الساحقة من هذه اليد العاملة موسمية تأتي من المناطق القريبة من مزارع الأوروبيين، أو من أقاليم بعيدة مثل سوس ودرعة وتافيلالت والأطلس والريف ودكالة والرحامنة وعبدة وبني حسن، أما العمال الدائمون في مزرعة أوروبية مساحتها 250 هكتارا فيختلف عددهم باختلاف المناطق والظروف، ويتراوح بين أربعة واثني عشر عاملا في أحسن الأحوال، منهم عامل أو عاملان أوروبيان متخصصان في تغيير آلات المزرعة والإشراف على عمل العمال المغاربة[45].

وعلى عكس العامل المغربي، كان العامل الأوروبي يتمتع بكثير من الامتيازات منها، عقود عمل مضبوطة، وأجرة مرتفعة، وسكنى، ومكافآت تراوح قيمتها بين ألفين وعشرة آلاف فرنك سنويا بالإضافة إلى امتيازات أخرى منها الاستفادة من خدمات المستوصفات، والمدارس لأبنائهم[46].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التنظيم النقابي في البادية المغربية قد واجه صعوبات عديدة لعدم استقرار العمال نتيجة للسياسة الاستيطانية والتقاليد الفلاحية، وعدم وجود الوعي السياسي والنقابي، وانتشار الأمية، ومحاربة سلطات الاحتلال لأي نوع من النشاط النقابي. أما «النضال الطبقي» في البادية فقد كان معدوما أيام الاستعمار الفرنسي لأن التناقض الرئيسي بين الاستعمار والحركة الوطنية قد غطى كل صراع.

كما تحولت أعداد كبيرة من الفلاحين إلى مزارعين بالمحاصة حيث يحصل المزارع على حصة عينية من المحصول بعمله هو وأفراد أسرته في أرض المالك. وتراوح نظم اقتسام المحصول بين «المرابعة» أي بربع المحصول و»المخامسة» أي بخمس المحصول حسب الترتيبات والأعراف السائدة في الوسط القروي[47].

يتضح من المعطيات السالفة الذكر، أن الاستعمار الفرنسي أحدث تحولات عميقة بالبوادي المغربية، تمثلت في تحول أخصب أراضيها إلى مزارع كولونيالية،

بعدما قامت إدارة الحماية بنسف المؤسسات والمبادئ التي كان يقوم عليها المجتمع المغربي، والتي كانت تشكل عائقا أمام احتلال الأرض المغربية، حيث غيرت الوضعية القانونية للأرض بسن ترسانة من التشريعات شكلت السند القانوني للاستحواذ على أراضي المغاربة، وتوزيعها على الكولون الأوربي، مما أدى إلى حدوث تحولات في شكل البنية العقارية. وحرص الأوربيون على تطبيق أشكال الاستغلال الرأسمالي في الأراضي المغتصبة، باعتبار الأرض بمثابة رأسمال يدر دخلا أي ينتج فائض قيمة، فركزوا على إنتاج مزروعات تسويقية يوجه إنتاجها لتلبية حاجيات الجاليات الأوربية، ويصدر جزء منها إلى الخارج لتلبية متطلبات المتربول، مستفيدين من مساعدة ودعم إدارة الحماية من إقامة للبنيات التحتية، ومن مختلف التسهيلات المالية والتقنية.

أما الفلاحة المغربية المحلية التي كانت تلعب دورا اجتماعيا واقتصاديا لأكثرية بشرية، فقد تعرضت خلال فترة الحماية إلى تحولات عميقة، نتجت عما لحقها في علاقتها بالاقتصاد الاستعماري الذي سيطر على أجود أراضي الفلاحين المغاربة بشتى الطرق والوسائل، وحصرهم في المناطق القاحلة، فتضاءلت وسائل عيشهم، كما تصدعت البنى والعلاقات القبلية على التآزر والتضامن وعلى أساس علاقات القرابة وروابط الدم وأواصر التضامن القبلي، لتحل محلها علاقات الإنتاج المبنية على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والفردانية التمايز الاجتماعي، وهي علاقات اجتماعية لم يألفها المجتمع المغربي بل كانت وليدة التحولات التي رافقت التدخل الاستعماري . و قد دفعت الأوضاع والمتغيرات الجديدة بالعديد ممن نزعت منهم أراضيهم إلى العمل كعمال في ضيعات المعمرين، أو الهجرة إلى المدن ليشكلوا النواة الأولى «للبروليتاريا».

◄ الهوامش:

1 – الطيب بياض، المخزن والضريبة والاستعمار– ضريبة الترتيب–، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2011، ص.32.

2 – الطيب بياض، " قرن من الفلاحة بالمغرب"، مجلة زمان، العدد7، 15 أبريل/15 ماي 2014/ ص.63.

3 – المرجع نفسه والصفحة نفسها.

4 – المرجع نفسه والصفحة نفسها.

5 – توفيق أكومي، "أربع عشرة سنة من المقاومة في ناحية تازة"، مذكرات من الثرات المغربي – تجزئة ومقاومة–، ج.5، الخزانة العامة والأرشيف بالرباط، 1985، ص:146.

6 أحمد تافسكا، الفلاحية الكولونيالية في المغرب (1912–1956)، مطابع أمبريال، الطبعة الأولى، الرباط، 1998،ص:35.

7 – أحمد تافسكا، تطور الحركة العمالية في المغرب (1919–1939)، دار ابن خلدون، بيروت، الطبعة الأولى، 1980، ص:12.

8 -Charles André Jullien, L'Afrique du Nord en marche:nationalismes musulmans et souveraineté française, vol.1, Tunis., 2000, p :210.

9 – أحمد تافسكا، الفلاحة...مرجع سابق ،ص:35–36.

10 - René Hoffherr, L'économie marocaine, Librairie du Recueil Sirey,Paris., 1932, p :126.

11 René Hoffherr,Op.cit, – .pp :126

12 – ألبير عياش، المغرب والاستعمار– حصيلة السيطرة الفرنسية– ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، مراجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1985، ص:174.

13 – أحمد تافسكا، الفلاحة...مرجع سابق ،ص:38–39.

14 –أحمد تافسكا، الفلاحة... مرجع سابق، ص:41.

15 - Mostafa EL arji, Immigration rurale et urbanisation à Taza (Maroc), Thèse de doctorat du 3ème cycle, Université de Toulouse de Mirail,1984, p :47.

16 – ألبير عياش، الفلاحة...مرجع سابق، ص:263.

17 - MostafaEL arji, Op.cit, p :51

18 – أحمد تافسكا، الفلاحة...مرجع سابق ،ص:102.

19 Bibliothéque nationale de-Rabat, Rapports Mensuels du Pro-tectorat, janvier1 1927, p.2.

20 – أحمد تافسكا، الفلاحة...مرجع سابق ،ص:102.

21 – المرجع نفسه ،ص:102.

22 –" ظهير شريف في احداث شركات احتياطية مختصة بالأهليين"،الجريدة الرسمية، العدد 215 ،11 يونيو 1917،الموافق ل20شعبان 1335.، ص:461–460.

23 – ظهير شريف في إلغاء الظهائر الشريفة المؤرخة برابع شعبان عام1335 الموافق لسادس وعشرين مايو سنة 1917 وبعشرين شوال عام 1937 الموافق لتاسع عشر يوليو سنة 1919، وبثاني وعشرين رجب عام 1338 الموافق لثاني عشر أبريل سنة 1920 المتعلق باشركات الاحتياطية الأهلية وتعويضها بهذا الظهير الشريف"، الجريدة الرسمية، العدد461 ،28 فبراير 1922، الموافق ل4 جمادى الثانية1340.، ص:248–242 .

24 – المرجع نفسه والصفحة نفسها.

25 – حليم، عبد الجليل، "الإصلاح القروي في عهد الحماية، البيزانا والتحديث"، مجلة المناهل، العدد 69/70، السنة السادسة، منشورات وزارة الثقافة، 2004،ص:53.

26 - Anonyme, Rapport général sur le mouvement cooperatif en milieu autochtone (19341950-), in C.H.E.A.M, Rabat, 1950, p :3.

27 – عبد الجليل حليم، "الإصلاح ... مرجع سابق،ص:54.

28 -Bibliothéque nationale de Rabat, Rapport mensuel du Protectorat, décembre, 1920, p :21.
- René Rosier, Les societés indigènes agricoles de prévoyance au Maroc, Librairie Emille la rose, 1925, p :126

29 - René Rosier, Les societés indigènes agricoles de prévoyance au Maroc, Librairie Emille la rose, 1925, p :126.

30 – عبد الجليل حليم، «الإصلاح ... مرجع سابق ،ص:54.

31 –"ظهير شريف في إحداث مؤسسة مركزية للتجهيز الفلاحي خاص بالفلاحين"، الجريدة الرسمية، العدد1688، 2 مارس1945/الموافق ل 17 ربيع الأول 1346.،ص:170.

32 - Abdeljalil Halim, Structures Agraires et Changement Social au

Maroc de l'iqtae au capitalisme, Imprimerie Info-Printe, Fès, 2000, p :103.

33 – عبد الجليل حليم، «البيزانا»، معلمة المغرب ، ج.6 ،نتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا.،1998،ص:1945-1944.

34 – المرجع نفسه والصفحة نفسها.

35 J. Berque,et J.Couleau, «Vers la modernisation du fellah marocain », in B.E.S.M, vol.7, n°26, juillet1945.,1945, p :20.

36 – عبد السلام أديب، الصراع الطبقي والتحولات الاقتصادية والسياسية في المغرب، منشورات النهج الديموغرافي، الرباط، 2005.ص:82.

37 – أحمد تافسكا، تطور...مرجع سابق ، ص:67.

38 -Abdeljalil Ben Abdellah, « Société et gestion des ressources dans le haut Atlas central, cas des Ait ougoudid », revue Abhath, n°4, 1994, pp.5657-.

39 – عبد السلام أديب، مرجع سابق، ص:82.

40 – الهادي المروي، القبيلة، الإقطاع والمخزن- مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844- 1934-، افريقيا الشرق، الدار البيضاء،2004، ص:312-311.

41 - Abdelatif Ben chrifa,Culture, Changement Social et Rationalité, in Pratiques et résistances culturelles au Maghreb, Sous la direction de Noureddine Sraib, Ed CNRS,1992, p :141

42 – عبد السلام أديب، مرجع سابق، ص:85.

43 – المرجع نفسه والصفحة نفسها.

44 – المرجع نفسه، ص:86.

45 – أحمد تافسكا، تطور...مرجع سابق، ص:89.

46 – المرجع نفسه، ص:90.

47 – عبد السلام أديب، مرجع سابق ، ص:87.

الثورة الجزائرية في الضمير العربي
الهادي إبراهيم المشيرقي أنموذجاً

أ/ بوركنة علي
جامعة عمار ثليجي الاغواط - الجزائر

الملخص

قدم الهادي إبراهيم المشيرقي خدمات جليلة للثورة الجزائرية في كل المجالات فكان سنداً حقيقاً يدعمها بالمال، وتوفير السلاح وضمان تدفيقه على الثوار، كما عمل على تعبئة الجماهير وتنظيمها ضمن اطر وفعاليات جمعوية والعمل على التنسيق فيما بينها، وصّب جهودها في مسار دعم للثورة، ولأجل القضية الجزائرية زار جل الدول الفاعلة وراسل الملوك والحكام ورؤساء المنظمات الدولية والاقليمية، يحثهم فيها على تقديم الدعم للقضية الجزائرية ووجوب انصافها.

Summary

El hadi Ibrahim el Mishirghi gave the Algerian revolution such a great services in all fields.He was a real support, giving money and providing weapons to the rebels and making sure that they reach them. El-Mishirghi also motivated and organised people in associations and worked to coordinate between them devoting all these efforts to back up the revolution. This man was devoted to the Algerian case , as a result he visited most of the effective countries and mailed the kings , governors , heads of international and regional organisations urginh them to provide the support to the Algerian case and the necessity of its fairness.

إن الدعم ليبيا للقضية الجزائرية ليس وليد حقبة زمنية بعينها، وإنما يعود بجذوره لكفاح شعب الجزائري، وزادت وتيرته وفق مقتضيات المراحل التاريخية، وساهم في ذلك أقطاب ورموز وطنية ليبية كان وقعها كبيراً في استقطاب مختلف الفئات والأطراف الفاعلة وحشدها لدعم القضية الجزائرية، ويعد الحاج الهادي إبراهيم المشيرقي من أبرز هذه الرموز التي قدمت خدمات جليلة، وساهمت بشكل كبير في الدعم المادي والمعنوي للثورة الجزائرية والتعريف بعدالة قضيتها داخلياً وخارجياً فما هي علاقة الرجل بالثورة الجزائرية، وما هي الخدمات التي قدمها، وكيف كانت طبيعة دعمه للقضية الجزائرية؟

1/ ترجمة الهادي إبراهيم المشيرقي

ولد الهادي إبراهيم المشيرقي في المدينة القديمة بطرابلس الغرب من عائلة محافظة ومعرفة بالعلم والاقتصاد في 19 جانفي 1908، بطرابلس الغرب قبيل احتلالها من طرف الايطاليين ترعرع في بيئة مكنته من الاستيعاب السريع لما يحدث في عالمه المحيط به، فوهب ضميراً حياً، وفهماً سوياً وإيماناً قوياً بقضيته الوطنية ضمن إطارها العربي ،فنما مدركاً لحجم التضحيات الواجب تقديمها خدمة لأبناء وطنه وأمته، منح الجنسية العثمانية والشهادة في قصر السلطان العثماني عبد الحميد الثاني[11].

تغلغل الحس الوطني والشعور الى الانتماء مبكراً نفسية المشيرقي خاصة بعد المأساة الوطنية الليبية في عمر المختار، لتكون منطلقا حقيقيا للهادي المشيرقي يتحسس طريقه في النضال السياسي، واستجمع جهوده مع جهود أقطاب الفعاليات السياسية في المهجر سواء في مصر أو الشام أو في تونس أمثال الزعيم بشير السعداوي ضمن هيئة الدفاع عن برقة وطرابلس في الشام، واحمد زارم في تونس، وعبدالرحمن دقدق وغيرهم.

ورغم حداثة عهده ابدى حنكة ومهارة، وعمد الى ارسال رسائل يومية للصحف والمجالات ومختلف الهيئات المحلية والدولية في شتي انحاء العالم يفصح فيها الممارسات الايطالية في ليبيا[2]، عوامل سرعت اهتماماته بالقضايا العربية والقومية، وزاد في ذلك التكوين السليم والشخصية المتزنة، والمستوي الثقافي والمعرفي للرجل، وعمق اتصالاته بأقطاب السياسية العالمية ورموزها في مرحلة هامة من تاريخ ليبيا والعالم المحيط بها، كما كانت له عدة رحلات لمناطق مختلفة من العالم العربي، افريقيا، أسيا، أوربا، وأمريكا لترويج لأفكاره العادلة وفي مقدمتها القضية الجزائرية[3].

توسعت افاق المشيرقي من قضيته الوطنية، لقضايا امته، فساهم بقوة في جمع التبرعات لفلسطين وكان ضمن من اشرفوا على اعداد المتطوعين وتهيئتهم للسفر إلي فلسطين، وباندلاع ثورة التحرير شغلت روح الرجل وفكره بأتم ما تحمله الكلمة من معني وساهم بكل جهوده في نصرتها، وكان التحامه معها كبير جداً منذ انطلاقتها في نوفمبر 1954. هذا وقد كانت مسيرة الرجل حافلة بالمناصب التي شغلها ضمن مشروعه النضالي نذكر منها:

- عضوا بارز بلجنة المتصرفية الاستشارية في عهد الادارة العسكرية البريطانية، غير انه انسحب منها بعد تأكده من الخفايا والدساس التي تحملها
- ساهم مع مجموعة كبيرة في تأسيس الحزب الوطني، واحد ابرز الفاعلين في هيئته السياسية والتنفيذية
- مثل ليبيا في مؤتمر الزيتون الاخضر لحوض البحر الابيض المتوسط بالجزائر سنة 1948
- ممثل طرابلس وبرقة بدمشق وفلسطين في ذكرى وعد بلفور سنة 1934
- عضو لجنة إيفاد المجاهدين الى فلسطين،

ومكلف بجمع المال والسلاح سنة 1948

- عمل ضمن البعثة التونسية لمساعدة الثوار بطرابلس، وكان حلقة وصل بينهم وبين الشعب الليبي حتي الاستقلال
- له مشاركات فعالية في نحو88 دولة ضمن مؤتمرات، وندوات، ملتقيات دولية في قضايا اقتصادية ومالية.

كما ترك عدة كتب منها: مشاهداتي في بلاد الهند، ليبي في اليابان، ذكريات وغيرها من المقالات والمناشير[4] توفي الحاج الهادي المشيرقي بليبيا مساء اليوم الأحد 14 أكتوبر 2007م عن عمر يناهز 99 سنة، تاركا بصمة خالدة في دعمه اللامتناهي للقضية الجزائرية ودفن بالجزائر تنفيذاً لوصيته.

2/ ارتباط الهادي المشيرقي بالقضية الجزائرية

2 – 1 قبيل إندلاع الثورة التحريرية

ارتبط المشيرقي بالقضية الجزائرية مبكراً ويعود ذلك الى سنة 1947، وهي فترة حساسة في نضال الشعب الجزائري، وان كانت تعوزنا المصادر عن طبيعة مشاركة المشيرقي في دعم القضية في تلك الفترة المبكرة، فان الراجح ان ليبيا كانت بئية خصب لنشاط المنظمة الخاصة التي عكف منتسبوها على جمع قطع السلاح والذخيرة من مخلفات الحرب العالمية الثانية من مناطق ليبية كانت بها قوات امريكية والمانية وايطالية[5].

توج هذا النشاط بتهريب كميات كبيرة بتسهيلات من المتعاطفين الليبيين أمثال المشيرقي والعاملين في نهجه، ومن ابرز العمليات ما قام بها ميحي البشير ومن معه بتهريب 103 بندقية ستاتي، عبر وادي سوف[6]، ليفتح المجال امام عمليات نوعية اخرى كعملية أحمد الميلودي بتهريبه لـ: 33 بندقية ايطالية الصنع وصناديق من الذخيرة عبر الحدود الليبية الى قسنطينة عبر بسكرة [7] وعملية تهريب 300 قطعة وكميات من الذخيرة والمتفجرات وأجهزة الاشارة ومعدات حربية[8]جزء كبير من هذه الاسلحة كان جاهزا لاستخدامه في عمليات الفاتح من نوفمبر حيث «... بدأت الثورة الجزائرية المسلحة بقليل جداً من السلاح 305-400 قطعة فقط من البنادق الايطالية وصلت من ليبيا»[9].

هذا وقد اولت ليبيا وشعبها بعد الاستقلال في 24 ديسمبر 1951، اهمية استراتيجية للقضية الجزائرية، في اطار البعد المغاربي، وارتبطت معها روابط رسمية وغير رسمية وتدعمت اكثر باندلاع ثورة نوفمبر وحاجتها الماسة لدعم بكل اشكاله في ظل الاهداف والتطلعات التي رسمتها الثورة في مواثيقها الرسمية باعتبارها قضايا بلاد المغرب قضية مشتركة وجب حلها حلاً شاملاً لما يحقق لها الوحدة والاستقلال لكون القضية الجزائرية قضية محورية للمغرب العربي برمته[10].

3/ جهود المشيرقي باندلاع الثورة التحريرية

ساهم الهادي المشيرقي بجهود جبارة وسلك مسلكاً متميزا في دعم القضية الجزائرية بكل ما يملك وتنوعت خدماته للثورة على مختلف الأصعدة الإعلامية، والمالية، كما بذل جهود معتبرة في توفير السلاح والعمل على انفاذها للثوار بالجبهة الجزائرية عبر وسائطه المختلفة.

3– 1 جهود المشيرقي في المجال توفير السلاح والمعدات الحربية

ان جهود الهادي المشيرقي في دعم القضية الجزائرية اتسمت في بدايتها بالسرية والتكتم، في ظل الاطار العام للسياسة الليبية، التي قبل رئيس حكومتها مصطفي بن حليم مقترح الرئيس المصري جمال عبد الناصر أواخر اكتوبر 1954 بإشرافه

الشخصي على استقبال شحنات السلاح والسهر على إنفاذها للجزائر وتسليمها لقادة الجبهة بكل الطرق المتاحة[11] كما قام بجهود سرية كبيرة في سبيل اقناع كبار رجال الدولة في ليبيا وقادتها العسكريين، وعدد كبير من المتعاونين[12].

ابدى هؤلاء ومعهم كتلة شعبية واسعة استعداهم الكامل في تقديم المساعد اللامتناهية من اجل دعم الثورة بكل الوسائل وفق ما تقتصيه المرحلة التاريخية، وتسارعت وتيرة التحضير باستقطاب عناصر من رجال الشرطة واعيان من العشائر اللبية المرابطة على الحدود الجزائرية الليبية، والشخصيات المؤثرة ، مع توفير كل المعدات والتجهيزات الضرورية لمثل هذه الاعمال وتكللت هذه الجهود بتمرير عدة شحنات من الاسلحة والذخيرة والمعدات الحربية.

على ان القرائن التاريخية تبين أن المشيرقي سرعان ما ساهم بقوة في مضمار نقل السلاح والعتاد ضمن جهود الحكومة السرية وكانت أول عملياته في 18 نوفمبر 1955[13]، تمثلت في تهريب كميات معتبرة من السلاح والذخيرة والمعدات الحربية وصلت الى ليبيا عبر مصر في 09 نوفمبر 1955[14] وعرفت هذه الحمولة بالإضافة الى كميتها التي قاربت 350 طن، نقلة نوعية في طبيعة الاسلحة والاعراض الموجه لها ولأهمية هذه الشحنة نوضحها في الجدول التالي[15].

إن الممتبع لطبيعة هذه الشحنات يخلص أن هناك تنسيق كبير بين مختلف الفاعلين الليبيين المساهمين في نقل السلاح الى الثورة، كما ينم على أن الهادي

عدد الصناديق	النوع	الاجمالي
200	رشاشات انجليزية عيار 303 ملم	بها 1000 رشاشة
200	رشاشات بيرتا عيار 9 ملم	بها 2400 رشاشة
200	رشاشات استر لنغان	بها 2000 رشاشة
10	مواد متفجرة	–
10	أدوية واجهزة طبية	–
500	ذخيرة إنجليزية لعيار 303 ملم	بها 500000 طلقة
300	ذخيرة مضاد للدبابات عيار303 ملم	بها 500000 طلقة
200	ذخيرة عيار 203 مم محرقة	بها 200000 طلقة
250	ذخيرة رشاشات	بها 375000 طلقة
100	مدافع هاون	بها 200 مدفع
500	قنابل هاون	بها 1500 قنبلة
360	قنابل يدوية إنجليزية	بها 8640 قنبلة
2	مسدسات بيرتا عيار 9 ملم	بها 200 مسدس
10	ذخيرة مسدسات عيار 9 ملم	بها 20000 طلقة
4	أجهزة لاسلكي إرسال كاملة	بها 08 أجهزة
600 لفة	بنادق إنجليزية عيار 303 ملم	بها 3000 بندقية

المشيرقي قد وظف خبرته الطويلة في دعم القضايا العادلة، سلكاً هذه المرة مسلكاً وعراً يعرف جيداً عواقبه الوخيمة على شخصه وبلده على السواء؛ ذلك أن ليبيا بعملها هذا تضع استقلالها الحديث على المحك، في ظل احكام السيطرة من طرف القاعدة الامريكية، والقاعة البريطانية علي البلاد، والاطماع الفرنسية المتزايدة والباحثة عن الحجة السياسية للتدخل في ليبيا، كونها بدأت تشكك في العلاقات السرية بين الثورة الجزائرية والنظام الليبي.

إن النجاح الباهر لهذه العملية فتح الباب أمام عدة عمليات اخرى، بتكثيف جهود لجنة المشيرقي مع الجهود الحكومية في ضمان توفير ونقل الاسلحة عبر ليبيا للثورة، وساهمت اللجنة حتى يوم 19ديسمبر 1957 في تسع عشرة (19) عملية[16].

إن الدارس لتواريخ عمليات تهريب السلاح يتضح له أن الجمعية كانت تنشط بشكل كبير حتى قبل التأسيس الرسمي لها، ويدخل ذلك في غطاء السرية الذي كانت الحكومة الليبية تستتر به. كما يميط اللثام عن طبيعة التقارب بين الطرفين ومكانة المشيرقي المحورية في دعم الثورة، ومن وراءه اللجنة التي تنامي دورها بشكل كبير جداً، اثر تشعب فروعها عبر ربوع ليبيا في المناطق الشرقية، والوسطي والغربية، وايمانها العميق بعدالة القضية الجزائرية ووجوب دعمها، كلها عوامل انعكست على قيمة الواردات المالية المخصصة للثورة وبالتالي تدفق الاسلحة والمعدات الحربية .

ولما كانت الثورة الجزائرية في حاجة متزايدة للسلاح مع سعي فرنسا الى تخفيف منابع التمويل والدعم بكل الطرق وضع المشيرقي أمواله رهن القضية الجزائرية في سبيل توفير القدر الكافي من المعدات الحربية مهما كان الثمن ولهذا نجده يقدم في العديد من الفترات صكوك باسمه للجهات أجنبية حتى لا تتأثر مواعيد تسليم الصفقات، ومن ذلك تقديمه 05 صكوك دفعة واحدة للبنوك مصرية في 16 جوان 1956 لأجل ضمان الامداد بالسلاح في وقته ،حتى لا ينعكس ذلك سلباً على جهود الثوار في الجزائر [17]وعمد المشيرقي بتاريخ 20 جانفي 1958 الى رهن بيته ومزرعته كضمان للبنك ليبي من أجل توفير المال لاستمرار تدفق السلاح على الثورة ودون تأخير [18].

دوره الفعال للمشيرقي جعله يحظى بمكانة كبيرة لدى أقطاب الثورة الجزائرية حتى غدا وسيطاً استراتيجي بين وزارة التسليح الجزائرية ووكلاء بيع السلاح في أوربا، بعد اتساع الفجوة بين قادة الثورة والطرف المصري اثر تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة[91] فساهم الرجل بسد النقص المترتب عن انقطاع الامداد المصري ولشركات السلاح ضمانات مالية باسمه، ومنها تقديمه لثلاث صكوك باسمه لضمان تزويد الثورة بالسلاح والذخيرة ومختلف المعدات الحربية في فترات الضائقة المالية التي عرفتها الثورة ما بين 1960-1961، وقدر الصك الاول بـ: 1.189.000 دولار، اما الصك الثاني والثالث فقد فاقا 1.5 مليون مارك الماني، وسافرا المشيرقي خصيصاً لشحن هذه المعدات من موانئ جنوب أوروبا وارسالها للثورة عبر لجانه المتخصصة في ليبيا[20]، أن القيام بمثل هذه المهام الحساسة جداً تنم على أن المشيرقي صار سنداً حقيقياً للثورة تلجأ اليه في الاوقات العصيبة، كما تميط اللثام على أن الرجل صار ركيزة محورية للثورة في قاعدتها المقيمة بليبيا.

3 – 2 جهود في مجال الدعم المالي وتعبئة الجماهير

اتسعت جهود الهادي المشيرقي من توفير السلاح ونقله للثوار، الى المساهمة الفاعلة في الدعم المالي

وتعبيه الجماهير لصالح القضية الجزائرية، رغم صعوبة الموقف، ففي حين كان تعامل وسائل الاعلام والصحف المختلفة مع الثورة الجزائرية بنوع من التكتم وخاصة الصحف اليومية التي كانت تتوجس خيفة من نشر أي احاديث واخبار عن الثورة الجزائرية كما فُرضت عليها رقابة شديدة، عمد الهادي المشريقي أثناء تقديم التهاني للشعب الليبي بمناسبة عيد الفطر بتاريخ 11 ماي 1956، تضمين كلامه رسائله واضحت المعاني تلفت المجتمع الليبي وفعاليته الى ما يحدث بالجزائر من انتهاكات ووجوب دعمها وكانت هذه العبارات على قلتها نقطة تحول كبيرة في مسار الدعم الشعبي للثورة الجزائرية [21].

يتضح من خلال هذا الاجراء ان الهادي المشيرقي اراد كسر الجمود الذي يحيط العلاقات الليبية الجزائرية، وهذا دليل اخر على مقربة المشيرقي من السلطة ومعرفته بانها تتحين الفرصة الى اعلان موقفها الرسمي من مما يحدث في الجزائر، وكانه بذلك ارا ان يدفع بعجلة الدعم العلني الى الامام، ولم تتوان الحكومة الليبية في اتخاذ هذا القرار خاصة بعدذ محاولة فرنسا تتبع وتصفية[٢٢]، أحمد بن بلة العقل المدبر لتزويد الثورة بالسلاح من ليبيا أواخر ١٩٥٥، هذه المحاولة الفاشلة كان تأثيرها البارز على مجريات الاحداث فيما بعد، فقد احرج الدعم السري الليبي للثورة الى العلن، وكشف عن نشاط الثورة في ليبيا ليدخل معها الدعم الشعبي من اوسع الابواب وينتظم ضمن اطر جمعوية وتنظيمات مختلفة مضت بالدعم الليبي اشواطا متقدمة للأمام.

– ميلاد الجنة الليبية لإعانة جيش التحرير الوطني الجزائري

إن تكاتف الجهود الشعبية والحكومية في دعم الجزائر مهدت لظهور جمعيات حملت لواء المساندة الى ابعد حدود، كما فتحت المجال على مصرعيه أمام الهادي إبراهيم المشيرقي الذي بادر بتكون «اللجنة الليبية لإعانة جيش التحرير الوطني الجزائري» في 18 ماي 1956 [23]، وتولي رئاستها «الشيخ محمود صبحي» وضمت نخبة من الاطارات الفاعلة في ليبيا[24]، وقدر لهذا التنظيم التي ظهر في طرابلس واتخذ من منزل الهادي المشيرقي مقراً له ان يكون «النواة الأولى لأول مشروع نضالي يقوم به الشعب الليبي تجاه الاشقاء في الجزائر، وبهذا العمل تكون أول رافد للثورة الجزائرية»[25] ،كما لعب دورا تاريخياً متميزا في دعم الثورة، وسرعان ما انبثقت عنها لجان فرعية عبر كامل مدن وقري ليبيا والتفت حولها مختلف الطبقات من السياسيين، المثقفين، الكتاب، الشعراء، التجار، ارباب المال ، والطلبة وجمعيات نسوية ومختلف فعاليات المجتمع واطيافه.

وضع الهادي المشيرقي نفسه وكل إمكانياته و إمكانيات أسرته في خدمة هذا اللجنة التي انهالت عليها التبرعات من كل طوائف المجتمع المختلفة، كلا بحسب إمكانياته فجسدت اسمى معاني التضامن وارقي مستوياته، كما عبرت عن رقي التفكير لدي المجتمع الليبي واهتمامه البالغ في جوهر قضايا الامة وواقعها، وبحكم علاقاته ومعرفته بالأحوال الاقتصادية واستطاع المشيرقي أن يعزز الجهود للجنة ويدعمها بشخصيات اقتصادية ويستفيد منها في دعم الثورة، أمثال: «يوسف مادي» الذي شيد بناية من طابقين بملحقاتها على طراز ذلك العهد لفائدة خمسين (50) يتيمة جزائرية وتزويدهم بمختلف اللوازم بما فيها الملبس والمأكل، ودعم اسرهم بالمال، كما شارك مع الفاضل الليبي محمد بن ساسي في ببناء مدرسة داخلية تأوي مئتين وخمسين (250) طفلا جزائرياً وتكفلا بكل نفقاتهم واحتياجاتهم[26].

والى جانب كونه امين صندوق الجمعية» اللجنة الليبية لإعانة جيش التحرير الوطني الجزائري «قدم لها بالإضافة الى عمله الدؤوب في تعبئة الجماهير، ومختلف فعاليات المجتمع المدني في دعم القضية

الجزائرية مادياً ومعنوياً، وتبرع بمبالغ مالية معتبرة وكان ينافس غيره بما يقدمه في اسابيع الجزائر رغبه في تحصيل اكبر العائدات، كما كان منزله دار ضيافة للمناضلات الجزائريات القادمات الى ليبيا لأغراض مختلفة سواء لاتخذها محطة عبوا إلى مصر أو تونس أو للمشاركة في مختلف التظاهرات التي تقام لأجل الثورة الجزائرية، وسهرت زوجته عادلة محمد بكير على رعاية شوئهن، ومن جهتها خدمت ابنته بهيجة القضية الجزائرية بمالها وأعمالها الفكرية في نشر المقالات والحصص في مختلف الصحف الليبية والحصص الاذاعية، وخصص المشيرقي غرفاً خاصة في فندقيه بطرابلس للثوار الجزائريين القادمين على ليبيا، وحرص على خدمتهم بنفسه بلا مقابل[27].

والى جانب جهوده الشخصية فقد عمل ضمن اللجنة على نشر افكارها والدعاية لها بكل الاساليب، عاملا سرع من تفرعها الى عدة لجان منها: لجنة أموال الزكاة التي استحدثت بتاريخ: 1956/08/14، وانصب اهتممتها على جمع اموال الزكاة دعماً للقضية الجزائرية، وارتفعت عائدتها بشكل كبير جداً عقب صدور فتوى موقعة من طرف نخبة من علماء ليبيا من المقربين من المشيرقي أمثال: عبد الحميد شاهين، محمود صبحي، على الشويطر...، الرامية الى وجوب دفع الزكاة لفائدة الثورة الجزائرية ونصرتها، كما انبثقت لجان مختلفة في مهام متحدة الاهداف واوجدت لها فروع مختلف المناطق من ليبيا تولى المتصرفون ورؤساء البلديات الاشراف على تفعيل نشاطاتها منها: لجنة الاتصالات، اللجنة الثقافية، لجنة أمانة السر، لجنة الحفلات هدفهم الاسمى العمل الطواعي للقضية الجزائرية[28].

عملت هذه اللجان بمختلف فروعها على جمع الاموال عبر نشاطاتها الدورية ضمن اسابيع الجزائر؛ من مساهمات شعبية، واقتطاعات المقاهي والحفلات والنشاطات الرياضية والسينمائية، ووسائل النقل، ومرتبات عمال المصالح الحكومية، ومختلف الشركات الصناعية، بالإضافة الى اموال الزكاة بكل اصنافها، وعائدات بيع جلود الاضاحي والمزايدات العلنية، الى جانب المساعدات العينية الموجهة للنازحين والايتام من أغذية وأدوية واغطية، وأموال وحلي ، وكذا عائدات التظاهرات الرياضية والفكرية، كما استفدت هذه اللجان بشكل كبير من المناسبات الدينية والوطنية التي عرفتها ليبيا.

استطاع المشيرقي من هذه اللجان الشعبية زيادة اللحمة بين الشعبين في اكثر من صعيد، واستطاع الرجل زيادة امكانياتها المالية المخصصة لدعم القضية الجزائرية، حيث قدرت مجموع عائدات المالية للجنة سنة 1956 بـ: 19.124.933 جنيه ليبي سلمت لممثل الثورة بطرابلس، وارتفعت المساهمات اللجان من سنة الى اخرى مما ينم عن التفاف الشعب الليبي حول اللجنة، كما ينم عن الدور الكبير المبذول من الهادي المشيرقي في تعبئة الجماهير والتفافها حول اللجنة، فارتفعت مداخيلها سنة بعد أخرى لتتجاوز سنة 1960م سقف 56.590.500 جنيه[29] بمختلف المناطق الليبية دون حساب قيمة المساعدات العينية التى مثلت جزء من أوجه التضامن الليبي للشعب الجزائري.

كما تنافست المناطق الليبية فيما بينها في تقديم الافضل ولعل وجود المشيرقي بطرابلس وبالقرب من اهم الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية جعلها تحتل الريادة في الدعم الموجه للثورة ما بين سنة 1956-1962 بأكثر من 54.531.138 جنيه ليبي من اجمالي عائدات اسابيع الجزائر، والزكاة العامة، وزكاة والقموح، وكان لكل منطقة خصوصيتها الاقتصادية وبالتالي طبيعة دعمها للثورة الجزائرية[30].

هذا وعززت اللجنة إتصالاتها بمختلف الهئيات الليبية، والمصالح الحكومية بمختلف قطاعتها [31]،

قصد إضفاء الشرغية على عملها، وصهر كل الجهود خدمة لثورة الجزائرية، كما حرصت اللجنة على التقشف في نفقاتها لأجل توفير أكبر قدر كافي من الاموال للثورة، كما شددت الرقابة على اعوانها في كل المناطق لردع أي مخالفة من شانها أن تضرب سمعة اللجنة امام الرأي العام المحلي والدولي.

كما سعى الهادي المشيرقي جاهداً توحيد الصف العربي بتأسيس الجنة العربية لدعم القضية الجزائرية ماديا ومعنوياً تتشكل من شخصية مرموقة من كل بلد[32]الى ان المشاكل التي كانت تتخبط فيها الدول العربية آنذاك حالت دون تفعيل تلك اللجنة، ولم يثنى ذلك من عزائم الراجل فواصل نشاطه الحثيث في اللجنة التي اتسع مجال عملها مع الزمن وتعاظمت مواردها، ومهدت الى تأسيس الهلال الاحمر الجزائري أواخر سنة 1957، ولمكانة الرجل المحورية في هذه اللجنة ثم انتخابه على رأس هذه الهيئة في افريل 1960م حيث أضفي عليها ديناميكية جديدة كان لها وقعها على مداخيل الجمعية واتساع نفوذها حتى داخل الاوساط الحكومية.

3 – 3 جهود المشيرقي في المجال السياسي والدعاية الاعلامية

رغم ان ابراهيم المشيرقي ليس رجل سياسية، الا انه بذل جهود كبيرة جداً في دعم القضية الجزائرية والترويج لها عربياً ومحلياً ودولياً بتكثيف زيارته لمختلف الاقطار عبر مختلف القارات فزار 88 دولة على حسابه الخاص، وقام بإرسال البرقيات المراسلات والنداءات في اكثر من مناسبة للملوك وقادة الدول العربية والاجنبية، كليبيا، مصر، المغرب، السودان السعودية، وعمان، لبنان، العراق، الكويت، اليمن، الجمهورية العربية المتحدة[33] مناشدا اياهم الاخذ بسبل الوحدة والتكتل والتعجيل بإمداد يد العون المادي والمعنوي بما في ذلك الاسلحة والمعدات الحربية للثورة الجزائرية كما ابرق العديد من الدول الغربية كالاتحاد السوفياتي، الصين، المانيا، تركيا، اليونان، يوغسلافيا، والولايات المتحدة الامريكية وغيرها من الدول مستعرضاً المظالم التي تعرفها الجزائر ووجوب التحرك الدولي لنصرتها والتعريف بقضيتها[34] وخص رؤساء المنظمات والهيئات الدولية ببرقيات على غرار الامم المتحدة في 8-01-1959، وجامعة الدول العربية في مناسبات مختلفة منها: 18-05-1956، 10-06-1956 التي طالب منها بتقديم دعمها للثورة، وتخصيص هيبات ومساعدات مالية، وطالب من اعضاء مؤتمر الوفود الاسلامية المنعقد بتونس في: 22-03-1956 تقديم الدعم للقضية الجزائرية، والامر نفسه مع مؤتمري التضامن الاسيوي– الافريقي بالقاهرة في: 24-12-1957، وكذا المشاركين في المؤتمر الدولي لشمال افريقيا بطنجة المغربية المنعقد في: 26-04-1958[35] وامتد مراسلاته الى مختلف القائمين على الجرائد والاذاعات الدولية، مذكراً اياهم بالانتهاكات التى تحدث في الجزائر ووجوب دعمها قصيتها العادلة، ولم يفوت المشيرقي فرصة تتاح له عبر رحلاته المختلفة الى الدول الاوربية والاسيوية، الا واجتمع مع الجاليات المسلمة مستعرضا امامهم اوضاع الشعب الجزائري وثورته، والانتهاكات التي يتعرض لها، طالباً منهم تشكيل لجان دعماً ومساعدة الثورة الجزائرية وتعد مذكراته سجلاً حافلاً بتلك المراسلات ومختلف الوثائق الهامة عن دوره البارز في دعم القضية الجزائرية، كما تعبر عن جهوده المضنية في الانتصار لها على مختلف الاصعدة المحلية والإقليمية والدولية[36].

كما كان رد فعل المشيرقي سريعا على اختطاف طائرة الزعماء الخمسة ففي: 23-10-1956وحيث ابرق العديد من الزعماء امثال جمال عبد الناصر، محمد الخامس، وبورقيبية، والسيد فارس

رئيس الجمعية التأسيسية، ورئيس المكتب العربي، والصحف والاذاعات الدولية يندد بهذا السلوك غير الاخلاقي والمنافي للأعراف الدولية، يطالبها فيها التنديد بهذا العمل، والضغط على فرنسا لإطلاق صراحهم، وحاول التواصل مع الزعماء المتحفظين بدون جدوي، الا عبر المراسلات الدورية مع بن بلة في عدة مناسبات منها: ايت أحمد بالخصوص في اكثر من مرة[37]وواصل جهوده ومراسلاته وحراكه الدؤوب حتى اطلق سراحهم ليكون في طليعة المستقبلين لهم في المغرب الأقصى [38].

كما ابدي إبراهيم المشيرقي احتجاجا شديداً بالسياسة الفرنسية تجاه الجزائر وبالتجارب النووية في الصحراء الجزائرية ونوه بخطورتها وخطط لمظاهرات واحتجاجات حاشدة بطرابلس واحوازها يوم 31 جانفي1960 ضد هذه الاعمال والسلوكات المشينة، وابرق حكومتي تونس والمغرب، وهيئة الامم المتحدة لوضع حد لهذه الممارسات الخطيرة والانتهاكات الحاصلة في الجزائر وصحرائها [39].

الخاتمة

سار المشيرقي على هذا النهج يتتبع المفاصل التاريخية لما يحدث من حراك سياسي وعسكري في الجزائر منذ انطلاقتها مجندا كل امكانياته للدفاع والتعريف بها بكل ما يملك، ولهذا نراه يقدم ما يملك في سبيلها، يجمع السلاح ويعبئ الجماهير، ويتابع التطورات ويعاينها ويشذب الاعمال الى قامت منظمة اليد الحمراء، وتتبع مسار المفاوضات مبرقا القيادة السياسية في الجزائر وفرنسا بضرورة التعجيل للحل السلمي، كما نادي بتفعيل العقل وتغليب المصلحة العليا وإذابة الخلافات بين قادة الثورة عشية الاستقلال، ليكون من اول المهنئين للقيادة السياسية يوم استقلال الجزائر، وشارك بهجة الانتصار في شوارع طرابلس.

لم يدخر المشيرقي جهداً في دعم القضية الجزائرية وطرق كل الابواب المتاحة أمامه بلا تردد، وكرس ماله ووقته واهله خدمة لثورة ورجالها يجوب الامصار ويراسل الكبار، ففاقت اتصالاته 700 رسالة وبرقية للملوك والحكام الدول، ورؤساء التنظيمات العالمية المحلية والإقليمية، واكثر من 400 رسالة في مختلف المناسبات، وهو على هذا الحال متيم بحب الجزائر يزورها في اعياد استقلالها حتى وفاه الاجل وكان قد اوصى بان يدفن بها، مع من شاركهم مسيرة الكفاح لأجلها.

الهوامش

(1) الهادي إبراهيم المشيرقي: قصتي مع ثورة المليون شهيد، ط1، دار الامة، الجزائر، 2000، ص 05.

(2) أحمد إبراهيم الفقيه: الهادي المشيرقي، جريدة الاهرام، السنة 132، العدد 44165، الأربعاء 26 من شوال 1428هـ/7 نوفمبر 2007، ص22

(3) محمد الصالح الصديق، الشعب الليبي الشقيق في جهاد الجزائر، دار الامة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2010، ص55.

(4) عن مختلف المهام والمناصب الى تولاها المشيرقي ينظر الهادي إبراهيم المشيرقي، المصدر السابق، ص5-7.

(5) زغيدي لحسن: مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956-1962، دار هومة، الجزائر، 2004، ص51.

(6) بن يوسف بن خدة:شهادات ومواقف، ط 1،دار الأمة، الجزائر، 2002، ص196.

(7) Ben youcef Ben khedda : les origines du 1er Novembre, éditions dahieb, Alger, 1989, p 123.
سعداوي مصطفى: المنظمة الخاصة ودورها في الإعداد لثورة أول نوفمبر، طبعة خاصة بوزارة الثقافة، الجزائر2008، ص ص 186، 187.

(8) مؤمن العمري: الحركة الوطنية في الجزائر من نجم شمال افريقيا إلى جبهة التحرير الوطني 1926-1954، دار الطليعة للنشر، الجزائر، 2003، ص 120.

(9) أحمد بن بله: مذكرات أحمد بن بله، ترجمة العفيف الاخضر، منشورات دار الآداب، بيروت، ص96.

(10) Mabrouk BELHOCINE: Courier Alger Le caire 1954 1956 et le congries de la soumamdans la révolution, ,CASBAH, Alger, 2000, P 102

(11) مصطفي أحمد بن حليم: صفحات مطويةمن تاريخ ليبيا السياسي- مذكرات رئيس وزراء ليبيا الاسبق، مطابع الاهرام التجارية، القاهرة، 1992، ص ص 350-351؛ محمد عثمان الصيد: محطات من تاريخ ليبيا الحديث – مذكرات محمد عثمان الصيد رئيس الحكومة الليبية الاسبق، ط1، منشورات طلحة جبريل، الرباط، 1996، ص 110.

(12) بن حليم، المصدر السابق، ص ص 351-354.

(13) بسمة خليفة أبو لسين: الليبيون والثورة الجزائرية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2008، ص ص 134-135.

(14) فتحي الذيب: عبد الناصر وثورة الجزائر، ط2، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1990، ص 130.

(15) بسمة خليفة أبو لسين: الليبيون والثورة الجزائرية، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2008، ص135.

(16) العملية العسكرية رقم1 بتاريخ: 18-11-1955، العملية العسكرية رقم2 بتاريخ: 10-5-1956، العملية العسكرية رقم3 بتاريخ: 14-4-1957، العملية العسكرية رقم4 بتاريخ: 27-4-1957، العملية العسكرية رقم5 بتاريخ: 5-7-1957، العملية العسكرية رقم6 بتاريخ: 28-8-1957، العملية العسكرية رقم7 بتاريخ: 23-8-1957، العملية العسكرية رقم 8 بتاريخ: 11-8-1957، العملية العسكرية رقم9 بتاريخ: 14-8-1957، العملية العسكرية رقم 10 بتاريخ: 23-8-1957، العملية العسكرية رقم11 بتاريخ: 23-9-1957، العملية العسكرية رقم12 بتاريخ: 3-9-1957، العملية العسكرية رقم13 بتاريخ: 5-10-1957، العملية العسكرية رقم14 بتاريخ: 7-11-1957، العملية العسكرية رقم15 بتاريخ: 17-11-1957، العملية العسكرية رقم18 بتاريخ: 27-11-1957، العملية العسكرية رقم19 بتاريخ: 19-12-1957.
بسمة خليفة: المرجع السابق، ص ص 134 ،146.

(17) الطاهر جبلي: الامداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية1954-1962، دار الامة للطباعة والنشر، الجزائر، 2012، ص359.

(18) محمد ودوع: المرجع السابق، ص 188.

(19) محمد العربي الزبيري: قراءة في كتاب عبد الناصر والثورة الجزائرية، المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007، ص149

(20) المشيرقي، المصدر السابق، ص 484 وما بعدها. بسمة خليفة، المرجع السابق، ص 153.

(21) محمد ودوع: الدعم الليبي للثورة التحريرية، مؤسسة كوشكار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص96.

(22) عن تفاصيل العملية ينظر أحمد بن بلة: المصدر السابق، ص ص 108-109.

23 المشيرقي، المصدر السابق، ص ص 102-103.

(24) من بين اهم اعضاء اللجنة نذكر: سعد علي الشريف، جميل المبروك، الهادي شنشن، الامين ابو حامد، محمد النجار، سعيد الشراج، محمد بن الطاهر، محمد البهيليل، أحمد راسم باكير. ينظر: المشيرقي، المصدر السابق، ص103.

(25) محمد الصالح الصديق، المصدر السابق، ص151.

(26) محمد الصالح الصديق، الشعب الليبي الشقيق في جهاد الجزائر، دار الامة ، 1999، ص163.

(27) نفسه، ص ص 184،185.

(28) نسمة خليفة، ص ص 29-36.

(29) نفسه، ص ص 31-41

(30) للاطلاع على تفاصيل العائدات اللجنة وجحمها وتنوع مصادرها من مساعدات مالية وعينية عبر مختلف مناطق ليبيا ينظر: بسمة خليفة، المرجع السابق، ص ص 96-117.

(31) من هذه المصالح: ميناء طرابلس(01-05-1959)، ناظر المواصلات (7-5-1959)، مراقب التجار والتموين(19-08-1959)، إدارة السينما (27-04-1960)، بنظارة الصحة ومختلف الاطباء بالبلاد(26-04-1962) وغيرها من المصالح. ينظر المشيرقي، المصدر السابق، ص 142 وما بعدها.

(32) المشيرقي، المصدر السابق، ص ص280-218.

(33) نفسه، ص ص 168- 502.

(34) نفسه، ص ص 137-362.

(35) نفسه، ص ص 149-346.

(36) نفسه، ص 35 وما بعدها.

(37) للاطلاع عن طبيعة المراسلات بين المشيرقي والزعماء، ينظر المشيرقي: المصدر السابق، ص ص 176-546.

(38) نفسه، ص579.

(39) نفسه، 402.

دور الشيخ البشير الإبراهيمي في التعريف بالقضية الجزائرية خلال رحلته المشرقية : العراق أنموذجا

أ/ آمال سالم عطية
جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر - الجزائر

◄ مقدمة:

تعتبر بداية الخمسينات مرحلة فاصلة في تاريخ جهاد الشعب الجزائري ضد الاستعمار، وكان أبناء الجزائر قد استفرغوا الوسع وبذلوا الجهد ولابد أن يتحملوا مسؤوليتهم التاريخية والدينية والوطنية تجاهه . وها هو الإمام الإبراهيمي يرفع صوته جهيرا من خلال الجهود التي قام بها من اجل تبيين حقيقة الاستعمار وفضح مخططاته وقد زار عدة دول إسلامية وعربية، ومنها دولة العراق التي تعتبر محطة بارزة في حياته وهو ما تجلى من خلال المقالات و الخطب التي ألقاها في الإذاعة العراقية وفي المحافل الثقافية والجمعيات والمساجد، والتي تؤكد في مجملها على أن العراق امتداد للجزائر وان الجزائر فلذة كبد العرب والمسلمين .فما هي الأسباب الحقيقة التي دفعت بالشيخ الإبراهيمي بالتعريف بالقضية الجزائرية في العراق؟ وبماذا تميز علاقته بالشعب العراقي مثقفين وحكومةً ، وما هي النتائج التي حققها؟

◄ 1- دوافع وأهداف الشيخ البشير الإبراهيمي في التعريف بالقضية الجزائرية في العراق:

رحل الإبراهيمي[1] إلى المشرق بتكليف من الجمعية في سنة 1371هـ/ 1952م وتعود دوافع هذه الرحلة إلى عدة أمور هي:

1 - العمل على إرسال بعثات عليمة من الشباب الجزائري إلى المشرق بغرض الدراسة في مختلف دارسه ومعاهده وجامعاته.

2- طلب المساعدة المادية لجمعية العلماء من الأشقاء العرب والمسلمين كي يستطيع مواصلة رسالتها في ميدان نشر التعليم العربي، والمحافظة على الشخصية العربية والإسلامية للشعب الجزائري التي تواجه محاولات كبيرة لهدمها من طرف الاستعمار الفرنسي ورجال التبشير المسيحي المتعاونين معه[2]، نورد ما جاء عنه حيث قال:... وفي عام 1951ميلادية رحلت إلى الشرق بتكليف من جمعيتي (يقصد جمعية العلماء) وكان الباعث على هذه الرحلة أمرين:

◆ **أولا**: السعي لدى الحكومات العربية لتقبل لنا بعثات من أبناء الجزائر.

◆ **ثانيا**: مخاطبة حكومات العرب والمسلمين في إعاننا ماليا حتى تستطيع الجمعية أن تواصل أعمالها بقوة لان الميدان اتسع أمامها، والشعب الجزائر محدود القوة المالية، فإذا لم يعنا إخواننا فربما تنتكس حركتنا.

وهذا ما ينتظره الاستعمار لنا[3].

◆ **ثالثا**: الدعاية للقضية الجزائرية وشرح ظروف الكفاح الجزائري إلى قادة الحكومات العربية والإسلامية التي زارها وتعريف الرأي العام العربي والإسلامي بمختلف جوانب كفاح الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي وما يقاسه من عدوان صارخ على مقدساته الإسلامية ولغته العربية وكرامته وسيادته الوطنية[4]، وهو ما أكده من خلال الكلمة التي ألقاها في إذاعة بغداد يونيو 1952م مما جاء فيها"...وأنا الآن في العراق، سأواصل رحلتي لبقية الأقطار الإسلامية لهذا الغرض، وهو الدراسة والتعرّف، فإن من النقائص التي لازمت المسلمين قروناً وفوتت وفوّتتْ عليهم خيراً كثيرا وكانت سبباً في إطالة آلامهم وأمراضهم، هذا التناكر الذي يسود مجتمعاتهم،...أن الأوان لان تجتمع هذه الأجزاء المتنافرة من الجسم الإسلامي الكبير، ... في العالم الإسلامي مؤسسات كثيرة وجمعيات وأحزاب وجرائد ومجلات، وهذه المؤسسات هي التي يجب عليها أن تتعارف بتبادل الزيارات والجرائد والكتب والنشريات، وان تقف جهودها كلها من نقطة ارتكاز وهي: تعريف المسلم بأخيه المسلم، وتقريب وسائل استفادة المسلم من أخيه المسلم، حتى يكون التعارف مثمراً ثمرات كاملة..."[5].

◆ **رابعا**: التأكيد على الوحدة الإسلامية وأن المستعمر واحد في الكلمة التي ألقاها في الموصل يوليو1952. والسعي وراء إحياء الجامعة الإسلامية التي هي خير ما يجتمع عليه الشرق وأممه ومللله[6].

◄ 2 – أهم الإعمال التي قام بها الشيخ البشير الإبراهيمي في العراق للتعريف بالقضية الجزائرية:

أقام الشيخ البشير الإبراهيمي علاقات متينة مع مثقفي العراق وحكومتها، وهي العلاقة التي أثمرت على عدة نتائج من خلال الرحلات التي أفادته إلى العراق ومختلف محافظاتها، وبرز دوره الجلي من خلال الخطب التي ألقاها واللقاءات التي جمعته مع الحكومة العراقية، ونذكر هنا الرحلة إلى العراق في 1952/06/12 حيث استقبل في بغداد من طرف "فاضل الجمالي" (مندوب العراق في هيئة الأمم المتحدة) ألقى كلمة مساء السبت 1952/6/14م بعد مأدبة الإفطار التي أقيمت على شرفه من تنظيم الأستاذ فهمي درويش، وهذا بحضور الأستاذ المجاهد الحاج طه الفياضل صاحب جريدة "السجل"، والأستاذ الصواف و الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، وقد انبهر الحضور من صحافيين من الخطبة لفصاحته حيث جاء في البصائر "... وقف الرئيس وتناول الصحفيون الأقلام لتسجيل الخطبة إلا أنهم وجموا وتركوها ناحية لأنهم اخذوا بالفصاحة والبيان وسحروا بالخطيب المفوه الذي كان ينحدر كالسيل ويقود السامعين إلى حيث شاء... ذاكرا كيفية تأسيس جمعية العلماء المسلمين ناثرا إليهم النصائح الغالية للمسلمين طالبا إليهم العمل وترك المجاملات ..."[7].

كما ألقى الشيخ البشير الإبراهيمي عدة خطب عبر إذاعة بغداد، ابرز فيها مدى وحدة العالم الإسلامي ومنها خطبة بعنوان" تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم"

حيث جاء في مستهلها"...أيها المستمعون الكرام:

أبعث إليكم على أمواج الأثير بواسطة راديو بغداد تحيات الإسلام الطيبات الزكيات، وأعرفكم في جمل قصيرة بمغزى رحلتي وبشيء من أعمال الجمعية التي أوفدتني، وسأحدثكم بعد الليلة بشيء من أحوال الشمال الإفريقي الذي هو قطعة من أوطان الإسلام..."[8].

كما سجلت دار الإذاعة اللاسلكية العراقية بعض الأحاديث الدينية ولا ريب أن هذه التسجيلات تعتبر ظافرا كبيرا لدار الإذاعة[9].

عندما كان الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله في العراق لم يلقي خطب في بغداد فقط بل خطب في عدة محافظات منها الموصل التي تعد المركز الثاني للبشير بعد بغداد حيث ربطته بمثقفيها رابطة قوية خاصة مع الشيخ عبد الله الحسو، وابنه محمد عبد الله الحسو الذي رافق الشيخ الإبراهيمي وأعطى تفصيلات لزيارته من خلال المقال الذي نُشر في مجلة البصائر بعنوان «الموصل الحدباء تستقبل سماحة العلامة محمد البشير الإبراهيمي» ومن خلال المقال نستشف درجة المكان التي بلغها عند الناس حيث قال:»...وتنادى الناس أن من لم يشهد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا فليشهد الإمام الإبراهيمي فإن فيه اقباسا من جمال الدين ولمحات من إصلاح محمد عبده، وفيوضا من علم رشيد رضا ...»[10].

وفي اليوم 22من شوال خطب الشيخ الإبراهيمي في الجامع الكبير وهو أضخم مساجد الموصل لأنه جامع اثري قديم، أنشأه محمود بن عماد زنكي، و قد امتلاء صحن الجامع لكثرة الجموع من الرجال والنساء والشباب وطلاب العلم[11]. وقد جاء الخطبة معبرة جدا عن الموصل حيث أبداها بالحديث عن تاريخ الموصل وعن الشخصيات الإسلامية التي

صنعت التاريخ ودورها فيه، وأكد على ضرورة الاتحاد في وجه الاستعمار الذي لا يهدد الجزائر فقط بل كل العالم الإسلامي وعلى ضرورة التكاتف ضده[12].

كان للشيخ الإبراهيمي أيضا كلمة في» نادي القلم» ببغداد وقد أثنى الشيخ على القائمين عليه بالتسمية في إشارة منه أن التسمية جزء من العمل الذي يقوم به المسيرين عليه، وخلال الكلمة بين أهمية القلم الذي أصبح هو القوة الكبرى في العالم وعلى أن القلم هو المحرر الشعوب واللسان المعبر والعقل المدبر فإذا ضاعت هذه فالوجود هو العدم[13].

خطب الشيخ البشير على شباب الأحوان (جمعية الأخوة الإسلامية) في المركز العام كان عنوان الخطبة «حركتنا حركة إحياء» حيث أثنى في البداية عليهم العمل الذي تقوم به جمعية الأخوة الإسلامية وابرز مدى تشابه حركة الجمعية بجمعية العلماء المسلمين في الأهداف، وان الأمة الإسلامية تعول عليهم، وان سبب استعمارنا هو الانغماس في الكماليات السخيفة التي غمرونا بها والتي تملأ حياة المسلمين، وعلى ضرورة الاستعداد الروحي وانو يكونوا قدوة صالحة للمسلمين[14] .

وكانت له معهم أيضا خطبة عندما قدم من مصر مع الورتلاني وهذا مساء الخميس 1954/1/7 في جامع الإمام الأعظم (أبي حنيفة النعمان بن ثابت) جاء في خطبته:» كل أمة تكثر فيها الأقوال تقل فيها الأعمال وكل امة تكثر فيها الأعمال تقل فيها الأقوال ...هذه سنة طبقوها على أنفسكم...وتحدث عن مأساة فلسطين قائلا: أنها ما ضاعت ونحن قليل بل من كثير...»[15].

أسبوع الجزائر في العراق والذي بث كلمة للشيخ حول مشاركة الجزائر في العراق في برنامج صوت الجزائر اليوم وجاء فيها:»... إنما هي صوت من الجزائر يجب أن يسمع في هذا الوقت والجمع حافل، فعزيز على الجزائر ان يقام لها في العراق الشقيق أسبوع، ثم لا يكون لها فيه صوت مرفوع...»[16].

وخلاصة الكلمة انه ابرز فيه الدور الكبير الذي تقوم جبه التحرير الوطني لتحرير الجزائر، داعيا جميع العرب من شعراء وخطباء وكتاب بضرورة الإشادة

بالثورة الجزائرية، وكذلك طلب يد المساعدة لمساعدة المجاهدين في ميدان المعركة، مؤكدا على أن الجزائر والعراق وطن واحد و أن حياة الجزائر حياتهم، وانتصارها انتصارهم، واندحارها اندحارهم[17].

◄3– شهادات لعابد توفيق ومحمد غانم وأحمد عبد الله الحسو وما قالته الصحف العراقية عن الشيخ الإبراهيمي:

* كان للشيخ الإبراهيمي مكانة مميزة جدا في العراق حيث لم يكونوا يفوتون الفرصة دون استقباله وسماع خطبه، وتعبيرا على مدى الحب الذي يكنه الإخوة العراقيين له كتب الشاعر وليد الأعظمي[18] قصيدة عن الشيخ البشير الإبراهيمي عند زيارته بغداد جاء فيها:

بَاسِمُ الْأُخُوَّةِ أُسْتَهَلُّ كَلاَمَي

وَبِهِ أُفِيضُ عَلَى الْوَرَى أَنْغَامَي

أَبَشيرَنَا بِالْعِزِّ جِئْتِ فَمَرْحَبًا

بِكَ يا بَشيرُ النَّصْرِ وَالْإِقْدَامِ

لَا زِلْتِ يا نَعَمْ الْإِمَامُ مَنَارَةً

مِنْ نُورِهَا ينجاب كُلُّ ظَلَامِ

لَكَ فِي الْأُمُورِ(بَصائِرَ) نقّاذةٌ

تَسْوَدَّ مِنْهَا أَوَجْهُ اللَّوَّامِ

أَمَّا الْبَيَانَ فَقَدْ مُلِكْتِ زِمامَهُ

وَلُبِسْتِ تَاجَ الْعِزِّ وَالْإِكْرَامِ

لِلهِ دُرُّكَ مِنْ إِمَامِ نَاصِحٍ

حُرٍ أَبِي عَالَمٌ مِقْدَامِ

اللهُ أَكْبَرِ فِي الْجَزَائِرِ ثَوْرَةً

قَامَتْ عَلَى الْآمالِ وَالْآلاَمِ

أ– شهادة الدكتور عابد توفيق الهاشمي[19]

« ... تتلمذت على عدد من الأعلام والمفكرين بالعراق، فمَنْ منهم حاز على إعجابك وكان له الأثر الكبير في حياتك؟ – ممن تتلمذت عليهم والدي السيد توفيق زين العابدين (يرحمه الله)، الذي نشَّأني تنشئة إسلامية ...كما تعرفت إلى فضيلة الشيخ محمد بشير الإبراهيمي، رئيس علماء الجزائر، في أوائل الخمسينيات في الجامع «النوري» صاحب منارة الحدباء الشهيرة، وخطب ثلاث خطب متتالية، ابتدأها بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ } (التوبة:38)، استمرت ثلاث ساعات (من 4 عصراً إلى أذان المغرب) في الصيف، وامتلأ المسجد بأكثر من ألف شخص، وفي اليوم الثاني غصّ المسجد وساحته بأكثر من ألفي مصل، فأكمل الآية، وشرح الآية التالية، وفي اليوم الثالث شرح الآية التي بعدها في ثلاث ساعات، فامتلأ المسجد وساحته والشوارع المحيطة به، وفي اليوم الرابع اجتمعت الآلاف...»[20]

ب – مقابلة مع المرحوم حمودات[21] أجراها الأستاذ الدكتور ذنون الطائي

«...وقد زار الموصل عام 1951 كبير علماء الجزائر الشيخ محمد بشير الإبراهيمي وألقى 3 دروس في الجامع الكبير، ورأى شدة إقبال أهل الموصل على هذه الدروس. وقال ان الهبّة التي سترد للعالم الإسلامي هيبته ستهب من هذا البلد الأمين...»[22].

ج – لأول مرة شهادة الأستاذ الدكتور احمد عبد الله الحسو عن الشيخ البشير الإبراهيمي[23]:

" أشكر كثيرا الأستاذ الدكتور الحسو لتقديم شهادته " .

ما إن عرفت الموصل أن الشيخ الإبراهيمي في طريقه إليها في يوم من أيام سنة 1952حتى غمر الناس فيها فرح لا أكاد أجد له وصفا فهو انعكاس لاعتزازهم بثورة الجزائر ، وللشعور بوحدة الوطن العربي ؛ مشرقه ومغربه ، وبشخصية عظيمة وهبت نفسها للحق ولمقارعة الظلم والطغيان..كانوا يتابعون أخبار تحركاته وخطبه العصماء في عاصمة بلادهم بغداد وغيرها من مدن العراق..قرؤوا ترحيب رئيس تحرير جريدة السجل البغدادية به وهو يقول : مرحبا بالإبراهيمي، مرحبا بجاحظ العصر.. وقرؤوا وصف الصحف الأخرى له بنابغة المغرب الذي (أعاد إلى الأذهان ذكرى التوحيدي وابن المقفع) فتشوقوا إلى رؤيته وصاروا يعدون الأيام للقائه والاستماع إليه ..لقد رأوا فيه ثورة الجزائر العظيمة وشعبها المكافح . وما زلت أتذكر يوم وصوله (1951) كيف هرع الناس لاستقباله دون أن يقتصر الأمر علي كبار علماء البلد ومثقفيه بل شمل جيلنا نحن الشاب آنذاك (كنت آنذاك في الرابعة عشرة من العمر)..كانت الشوارع تغص بالناس في متجه واحد هو الجامع النوري (المعروف بالجامع الكبير) لرؤية الرجل والاستماع إليه في ثلاث محاضرات كان الناس فيها يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم. و كنت أشاهد الشيخ الجليل محمد محمود الصواف رئيس جمعية الأخوة الإسلامية محيطا به ومقدما له كما رافقه مدة مكوثه في الموصل وكتب عنها أخي الأديب محمد الحسو كان لعلماء الموصل ورجالها لقاءات وحوارات معه ومنهم والدي الشيخ عبد الله الحسو والشيخ بشير الصقال والشيخ بشير النعمة والشيخ عبد الله الاربيللي والأستاذ محمد علي العدواني والأستاذ غانم حمودات والأستاذ عبد الحافظ سليمان والأستاذ عابد سيد توفيق وشخصيات أخرى كثيرة رحم الله الشيخ الجليل البشير الإبراهيمي وتغمده برحمته وأثابه على ما قدم خيرا بخير والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته الأستاذ الدكتور احمد عبد الله الحسو مدير مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية انكلترة 11/11/2013 م.

د– ما قالته الصحف العراقية:

تناولت الصحف العراقية أخبار الشيخ، وأجمعت على عظمته، وسلمت لإمامته، فيمن الصحف :

صحيفة السجل يوم 15 رمضان 1371هـ قالت:» مرحبا بجاحظ العصر وأمير البيان، مرحبا بالشيخوخة الصالحة التي لا تعرف معنى الراحة حتى تؤدي ما عليها من واجب الجهاد في سبيل العروبة...»[24].

صحيفة «البريد» البصرية في عددها 353 بتاريخ 19رمضان 1371هـ: ...أيها الواعظ الرشيد انه ليسعدنا أن نرحب بمقدمك الكريم ....ولعلنا نستنشق بعض اعطارك الزكية ورشادك القويم... ناضلت ورفعت ذكر الإسلام والمسلمين...»[25].

جريدة " اليقظة " في العدد 145 بتاريخ 16جوان 1952وكانت بعنوان تكريم البشير الإبراهيمي:»... وبالجملة فأن الإمام الإبراهيمي فلتة من فلتات العصر علما وجهادا وصدقا وإخلاصا، وكفاءة وفضيلة ...»[26].

صحيفة «الأخبار» العراقية عدد3475 الصادرة بتاريخ 17 جوان 1952:..ثم استمع الحاضرون إلى كلمة من المجاهد العظيم الأستاذ البشير الذي قام على منبر هو قلب كل مستمع فكان يهز الجميع هزا ... فكان خطابه مدعاة الدهشة والإعجاب والسرور، مدعاة الدهشة لأننا لم نرى لها ندا أو مثيلا...»[27].

جريدة «الزمان « العدد 4426 بتاريخ 17 جوان 1952:»... لا يزال سماحة العلامة الكبير الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كبير علماء الجزائر موضع الحفاوة والتكريم من جميع الهيئات الدينية والقومية التي تعرف سابقته في الجهاد، وماضيه اللامع في الكفاح الوطني...»[28].

◄ 5– نتائج رحلات الشيخ البشير الإبراهيمي إلى العراق:

تمكن من إرسال بعثة من الطلاب الجزائريين للدراسة على نفقة الحكومة العراقية، وهذا بعد الاجتماع الذي جمعه مع رئيس الوزراء السيد نوري السعيد ومعالي الأستاذ خليل كنة وزير المعارف[29]

تتكون البعثة من:

البعثة	السنة الثانية	معهد الحقوق بدار المعلمين العالمية(30)
–مسعود محمد العباسي	//	//
– المولود شرحبيل	//	//
– رابح منصر	//	//
– أبو العيد دودو		
– الزرق موساوي	//	//
– بشير كلشا		
– عبد المجيد بوذراع	//	//
– الجموع المشري	//	//
–الأخضر بو الطمين	//	//
– عبد العزيز خليفة	//	//
– عبد القادر قريصات	//	//

الدور الكبير الذي قام به الوفد العراقي الذي كان يترأسه محمد فاضل الجمالي في إضافة كل من فرحات عباس وحسين آيت احمد[31] .

وهنا نذكر شهادة محمد فاضل الجمالي حول المساعدات التي قدمها العراق للجزائر :»...كان العراق يثير قضية الجزائر في المحافل الدولية كلما تيسر له ذلك. ففي في ميثاق بغداد السرية وفي مؤتمر باندونغ ربيع 1955...»[32].

كان موضوع الجزائر من المواضيع التي أثارها الوفد العراقي الذي كان يرأسها محمد فاضل الجمالي وكذلك في الاتصالات الدبلوماسية مع الدول الصديقة. فقد كان حق تقرير المصير من الأمور التي اعتبرت غير قابلة للنقاش.

وأضاف قائلا قال :»...أما من الناحية المادية فقد كان الشيخ البشير الإبراهيمي يحض الحكومة العراقية على بذل أقصى ما يمكن من عون مادي للثورة الجزائرية. ولما كانت المبالغ المالية المخصصة في ميزانية الدولة متواضعة لا تتناسب مع ما يؤمل من العراق تقديمه للثورة الجزائرية تقرر تشكيل لجنة لجمع التبرعات من الشعب العراقي للثورة الجزائرية، وقد أوكل إلي شرف رئاسة اللجنة.

فكان أول ما قمنا به عقد اجتماع عام في بغداد تحت رعاية جلالة الملك وبحضوره .خطب الشيخ خطابا حرك الضمائر الحية. وبعد ذلك الاجتماع في بغداد بدأت اللجنة يرافقها الأستاذ المجاهد أحمد بودة في التنقل في شتى ولايات العراق لجمع التبرعات .»[33]

وفي الناحية العسكرية إرسال كمية من السلاح والعتاد إلى الثورة الجزائرية كان العراق تحصل على السلاح من حكومة فيشي في حركة السيد عالي الكيلاني ضد الانجليز سنة 1941.فكان يرسل

عبر طريق دمشق بتوجيه من أحمد بودة، ثم بدؤوا يرسلونه في طائرة عسكرية خاصة إلي ليبيا ليصل إلى الجزائر[34].

خاتمة:

كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي شخصية جمعت بين مجموعة من القدرات فهو الأديب المفوه، والمفكر والإمام المصلح، والمجاهد حامل راية الكفاح والنضال، إضافة إلى ذلك برز كسياسي محنك استطاع كسب الدعم للقضية الجزائرية في العراق وفي المقابل لم يبخل الشعب العراقي الشقيق في تقديم المساعدة، وهذا بفضل الجهود التي قام بها من خلال الخطب التي ألقاها في المساجد أو عبر الإذاعة العراقية والاجتماعات مع وزراء الحكومة العراقية والعلاقات الطيبة التي جمعته مع مثقفيها فرحمة الله على شيخنا محمد البشير الإبراهيمي و طيب الله ثراه.

الهوامش

1 – الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: ولد سنة 1889م بأولاد إبراهيم بالقرب من راس الوادي بولاية برج بوعريريج، حفظ القرآن ومتون العلم وهو ابن تسع سنين تربى في بيت عريق بالعلم خرج منه أفذاذ في علوم الدين والعربية رحل إلى المدينة مكث بها مدة، وبعد انتهاء الحربين العالمية الأولى رجع الى الجزائر، يعتبر الشيخ أحد اثنين في تكوين جمعية العلماء المسلمين مع عبد الحميد بن باديس (رحمه الله) توفي سنة 1965. ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله، احمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1997،ط1، ج5، ص272، 291.

2 – مجموعة من المؤلفين، الشيخ البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة، الجزائر،2007،ط2،ص224.

3 – آثار الإبراهيمي، المرجع السابق،ج5، ص291.

4 – مجموعة من المؤلفين، المرجع السابق، ص225.

5 – آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 96،97.

6 – المصدرنفسه،ج4،ص102،99.

7 – مجلة البصائر،رسالة العراق، العدد195، السنة الخامسة من السلسلة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط2006،1،ص117.

8 – أثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص96.

9 – مجلة البصائر،العدد 195، من السلسلة الثانية، ص118.

10 – محمد عبد الله الحسو، رسالة الموصل، مجلة البصائر، العدد200، ص 158.

11 – نفس المصدر، ص158.

12 –أثار البشير الإبراهيمي، ج4، ص102،101،100،99.

13 – المصدر نفسه، ص206،205.

14 – المصدر نفسه، ص211،210،209.

15 – البصائر، العدد 255، السلسة الثانية، ص233.

16 – أثار البشير الإبراهيمي،ج5، ص179.

17 – المصدر نفسه، ص182،181،180.

18 – وليد الأعظمي: ولد في الأعظمية، عام 1348هـ/1930م. حضر دروس العلامة قاسم القيسي مفتي بغداد كذلك حضر دروس الأستاذ الشيخ أمجد الزهاوي تخرج في معهد الفنون الجميلة ببغداد من قسم الخط العربي والزخرفة الإسلامية نال إجازة في الخط العربي من الشيخ محمد طاهر الكردي المكي (خطاط مصحف مكة المكرمة نال إجازة في فن الخط العربي من الخطاط المصري الشهير محمد إبراهيم

البرنس (خطاط المسجد الحرام بمكة). نال إجازة الخط العربي من الشيخ أمين البخاري (خطاط كسوة الكعبة المشرفةمن مؤلفاته: تراجم خطاطي بغداد، شعراء الرسول.، توفي سنة 2004م. من موقع http://ar.wikipedia.org/wiki

19 – عابد توفيق: من مواليد العراق سنة 1930، متحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم– السودان، عمل في التعليم الجامعي وتحصل على درجة الأستاذية سنة 1992، كما تولى عدة مناصب إدارية، بلغت كتبه المؤلفة 114 كتابا، مجالات القرآن الكريم والسنة المطهرة، والسيرة النبوية الشريفة، والتربية والمناهج وطرائق التدريس. http://safwan1970.arabblogs.com/archive/2010/4/1040743.html

20 – مع المربي والمفكرد. عابد توفيق الهاشمي، مجلة المجتمع، تصدر عن جمعية الإصلاح الاجتماعي، الكويت د، ت.

21 – غانم حمودات: يعتبر من ابرز المربين في الموصل، ولد في الموصل سنة 1930 ، نشأ في بيت محافظ، وقد ختم القرآن قبل أن يدخل المدرسة الابتدائية، وحصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية سنة 1953، عمل في مدارس عديدة ينظر: إبراهيم خليل العلاف، غانم حمودات والكلمة الطيبة الصادقة، موقع دنيا الرأي -http://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2008/03/03/125163.html

22 – المعطيات الفكرية للداعية الإسلامي الأستاذ غانم حمودات، حوار أجراه معه أ/الدكتور ذنون الطائي، مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية، انجلترا.

23 – شهادة الستاذ الدكتور أحمد عبد الله الحسو مدير مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية عن الشيخ البشير الإبراهيمي، انكلترا، 11/11/2013م.

24 – مجلة البصائر، العدد 195، السلسلة الثانية، ص 117،.118.

25 – مجلة البصائر، العدد195، ص118.

26 – نفسه.

27 – نفسه.

28 – مجلة البصائر، العدد195، ص، 118والعدد 262، السنة السادسة، ص296.

29 – دار المعلمين العالمية: هي مؤسسة تربوية قديمة أسست في بغداد عام 1923 حيث كان على من يريد الالتحاق بها دفع رسوم دراسية, كما وتقرر أن لا يقبل فيها إلا الذين يرغبون في إعداد أنفسهم للتعليم في المدارس الثانوية من معلمي المدارس الابتدائية. في سنة 1927 أصبحت (دار المعلمين العالية) معهدا قائما بذاته بمنهج نهاري كامل (علمي وأدبي) ولمدة سنتين دراسيتين مع (قسم داخلي) ملحق بها. وفي عام 1958 م تغير اسم دار المعلمين العالية إلى كلية التربية والحقت في العام نفسه بجامعه بغداد حديثة العهد آنذاك.ينظر: إبراهيم خليل العلاف، الثقافة والسياسة في العراق المعاصر، دار المعلمين العالية 1923/1958م، صفحة من تأريخ التعليم الجامعي، كحلة الحوار المتمدن، العدد2185، 2008-8-2. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=124219

30 – محمد فاضل الجمالي، الشيخ البشير الإبراهيمي كما عرفته، مرجع سابق، ص124.

31 – المصدر نفسه، ص125.

32 – المصدر نفسه، ص125.

33 – المصدر نفسه، ص126.

النشاط الثوري في الجنوب الجزائري من خلال جريدتي: L'écho d'Oran و Oran républicain 1960 - 1962

مولاي حليمة
المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية

الملخص :

اعتمد الاستعمار الفرنسي في سياسته بالجزائر، وبشكل كبير على وسائل الاعلام ،خاصة الصحف الصادرة بالمدن الكبرى كمدينة وهران، والتي كانت موجهة للأوربيين، والجزائريين "الاهالي" على حد سواء .واشهر الصحف المحلية بوهران L'écho d'Oran اليمينية، و Oran républicain اليسارية والتي كان لكل واحدة منها اسلوب في تناول اهم الاحداث التاريخية التي عرفتها البلاد ،من بينها الصحراء الجزائرية وما عرفته من تجارب نووية "اليربوع الازرق"، ومشروع تقسيم الصحراء، واستعمال فنابل النابالم، ومظاهرات الجزائريين ضد تقسيم الصحراء "مظاهرات ورقلة".

: Résumé

la politique du colonisation française en Algérie comptait, et en grande partie sur les médiaset surtout Les journaux locaux dans les grandes villes comme la ville d'Oran, qui a été adressé aux Européens , et Algériens. Et Les plus célèbres journaux locaux à Oran L'écho d'Oran et Oran républicain selon leurs opinions sur les évènements d'Algérie et en particulier le Sahara : les expériences nucléaires(Gerboise bleue)projet colonial de séparation du Sahara ;utilisation des(BombeA) atomique, les manifestations des algériens contre la séparation(les manifestations d'Ouargla).

◄المقدمة:

ان تناول تاريخ الصحراء الجزائرية ابان الاستعمار الفرنسي يتطلب منا الكثير من الجهود والبحث ،والاطلاع لما عرفته المنطقة من احداث منذ احتلالها اذ تحول الجنوب الى معاقل الثوار المجاهدين الذين فشلوا في مقاومة الاحتلال بمنطقة الشمال بغية الاستعداد مرة ثانية للمقاومة خاصة بعد احداث ثورة سكان واحة الزعاطشةببسكرة،وحركة الشريف محمد بن عبد الله بواحات الاغواط وورقلة من جهة اخرى، ويعتبر سقوط واحة الزعاطشة في يد السلطة الفرنسية اثر الحملة العسكرية يوم24-09-1849 بداية الدخول الفرنسي القوي في الصحراء بعد احتلال بسكرة عام 1844. وبعد اخضاع منطقة الزيبان- بوابة الصحراء- سارعت السلطات الفرنسية الى استكمال مشروعها للتوسع نحو الصحراء الجزائرية قبل ان يظهر فيها زعيم ديني وقومي مثل الامير عبد القادر يهدد وجودها، ويمنع توسعها نحو الجنوب. فكانت الوجهة الاولى احتلال منطقة الاغواط سنة1852، وورقلة سنة1853، ومنطقة وادي ريغ سنة1954...اضف الى ذلك انه منذ سنة1854 تم اخضاع منطقة تقرت وجوارها من طرف القوات الفرنسية، وما ان حلت سنة1911 حتى تمكن الفرنسيون من الدخول الى كامل الصحراء[1].

ان احتلال كافة الاراضي الجزائرية كان يعتبره الاحتلال الفرنسي سياسة توسعية محضة، لكن بعد اكتشاف الثروات الطبيعية خاصة حقول النفط منذ1956 بالصحراء بات الامر ضرورة حتمية لابد منها.

كانت السلطات الفرنسية تعتمد على الدعاية لكل انشطتها بالجزائر مسخرة في ذلك وسائل الاعلام المختلفة،سواء تلك الصادرة بباريس او بالجزائر،لكن كان الاعتماد الاكبر على الصحف المحلية التي تصدر بالمدن الجزائرية والتي يطلع عليها الاوروبيون والجزائريون معا، لما تحمله من اخبار واحداث تخدم المصالح الفرنسية مما يجعلنا نبحث عن الدور الذي لعبته كل من L'écho d'Oran وOran Républicain في تناول قضية الصحراء الجزائرية التي لم تعد حينها مسالة محلية بل قضية وطنية ذاع صيتها داخل وخارج الجزائر.

◄ 1 –تعريف L'écho d'Oran:

"صدى وهران" أقدم جميع الصحف في الجزائر حيث عمرت 119 سنة ،و تم تأسيس هذه الجريدة على يد جماعة من أرباب المصالح بوهران و هي أسرة Perrie ، صدر أول عدد منها يوم السبت 12 أكتوبر عام 1844م بعدحصول العائلة على رخصة من الوالي العام، و كان العدد يحمل عنوان L'écho d'Oran في صدر الصفحة ،وعلى يمينه و في إطار مربع وضعت عناوينمكاتبها بوهران – و الجزائر و مرسيليا ،و على يساره بنفس الإطار حددت قيمة الاشتراكات لسنة و لستة أشهر في مقاطعة وهران و في الجزائر و فرنسا ثم في الخارج ،و في أسفل العنوان كتبت بخط رقيق الجملة التالية:

"جريدة الإعلانات القضائية و الإدارية والتجارية"

كانت في بداية الأمر دورية تصدر يوم السبت من كل أسبوع، تسيّرها عائلة Perrie و بالضبط "Adolphe Perrie*" من أكتوبر 1844 إلى 1879 ،ثم تسلمها ابنه بعد وفاته و هو "Paul Perrie" إلى 1937 ،تم خلفه في إدارتها إبنه "Lucien Perrie "إلى 1956 .و كان الحفيد" LafontPerrie "مديرا عاما للجريدة ,و إن أسرة" Perrie "هي من أكبرغلاة المستعمرين

في الجزائر[2].ولأنه لابدّ أن يكون العدد الأول ملفتا للأنظار، أصدرت بيانا افتتاحيا يبرز توجهها[3].

وعن محتوياتها في سنوات الثورة التحريرية فقد عرفت تغييرا، و هذا راجع للتطور الذي عرفته هذه الجريدة، بالإضافة إلى الدعم الفرنسي لها. وقد تتناول أحداث الثورة من خلال التطرق للعمليات التي عرفتها الجزائر ،بالتركيز على منطقة القبائل ،الأوراس،تلمسان،سيدي بلعباس، معسكر. وفي1844بلغ السحب ،80000نسخة،وفي 1938 زاد عن 935000،وفي سنوات الستينات 120000نسخة[4].

◄ 2 –تعريف Oran Republican:

تأسّست هذه الجريدة باشتراك شخصيات أوربية اشتراكية من وهران بحوالي 3000 مساهم في فبراير 1937، قام بإدارتها مجلس إداري يتولى تسييره لجنة مديرة تمثل مختلف الاتجاهات لأولئك المساهمين، ففي ظل حكم الجبهة الشعبية خطرت فكرة تأسيس مجموعة من الجرائد [5].

كان لكل جريدة منهما أيديولوجيتها الخاصة بها،و إن الحديث عنها يفرض علينا الرجوع إلى مصدر تأسيس تلك الجريدتين، و مدى تقيّدهما طيلة سنوات صدورهما بمبادئ مؤسسيهما، فجريدة Oran Républicain كان الهدف من تأسيسها هو إنشاء جريدة تختلف عما هي ملك للكولون، و هذا مند حكم الجبهة الشعبية"[6] "FP)التي تمثل جبهة واحدة و ذات توجه شيوعي يمثل اليسارالذي بدأ بتأسيس الجبهة الشعبية " FP" مند 1934 و تمكن من بسط نفوذه على الجريدة كانت الصحيفة تنادي دائما بالإصلاحات الاقتصادية و تحقيق ذلك على أرض الواقع ،و المطالبة بالعدالة الاجتماعية لذلك كانت ترفض التغني بمحاسن النظام الاستعماري.

إن تأسيس هذه الجريدة ما هو إلا ترويج لحكومة الجبهة الشعبية "FP "و مشروع "بلوم فيوليت " الذي يعد من أهم المشروعات الإصلاحية في الثلاثينات من القرن الماضي،والمؤتمر الإسلامي[7].

أما جريدة L'écho d'Oran فمن المعروف أن مؤسسها هو و أسرته من أكبر الغلاة المستعمرين في الجزائر إذ أن Lucien مثل غيره من المعمرين الذين وجدوا في الجزائر أحلامهم الوردية، والسلطة والنفود والأملاك، فالجزائر لا تعني لمثل هؤلاء سوى نفوذهم وسيطرتهم .فهذا الرجل ما هوإلا أوربي متجذّر، كان من الناشرين للفكر الفرنسي و القضاء على الفكر العربي في الجزائر، و لعل بيان الافتتاح في العدد الأول من جريدته يوضح لنا ذلك إذ ضم هذا البيان شرحا لأهداف الجريدة ،و أبرز خطوط سياستها مشيدا بنصر الجيش الفرنسي باحتلالالجزائر ،و فضل المعمرين في هذا التقدم بالمخاطرة بأموالهم و حياتهم لرفع علم السلم، و علم وطنهم الجديد، كما مدحت الجيش الذي نشرالاستقرار و الأمن ،و الحكومة التي تعمل لازدهار البلاد.وأضافت أن الصحافة وحدها يمكن أن تكون همزة وصل بين فئات الجزائر لتبادل الأفكار ،و تطوير البلاد. و عن السياسة ذكرت أن قيادتها بين يدي السلطة العليا، و لا يحق للجرائدأن تعرقل العمليات الحكومية .فالحكومة هي السلطة العليا في البلاد تعرف دوما الأصلح ،وان ما تقوم به من سياسات ما هو إلا حفاظا على الأمن العام ، و إنها على دراية بمهمتها في نشر أعمال جيش الغرب النبيلة[8].

عرفت تلك الجرائد رواجا وإقبالا عليها إذ ظلت هذه الأخيرة أكثر الجرائد طلبا[9] رغم صدور غيرها في مدن الغرب الأخرى خاصة من الأوربيين ،فقد أصبحت لهم مدرسة و قانونا محليا فوصل سحبها

75.000 نسخة منذ نشأتها. فظلت تنشر أعدادها بانتظام و يوميا عن أخبار العمليات العسكرية و التفتيشية القمعية ضد السكان التي تهدف إلى البحث عن الثوار و كأنهاجريدة عسكرية [10] لكن هناك بعض الأعداد لا يوجد فيها حديث عن تلك العمليات و لو بالتلميح إلى غاية إيقافها في 17 سبتمبر 1963 م.

◄ 3 –السياسة الاستعمارية في الصحراء الجزائرية 1960–1962:

حاولت السلطات الفرنسية الاستعمارية استقطاب سكان الجنوب من خلال مجموعة من الاساليب السيكولوجية التي من شانها التأثير في نفسية العدو، وزعزعة ثقته، واضعاف عزيمته، وارادته مما يسهل عملية اخضاعه[11]. تولى ضباط المكتب الثالث والخامس مهمة النشاط الدعائي والنفسي ضد سكان الصحراء مستغلين في ذلك جميع القنوات التي تمكنهم من الوصول الى مختلف فئات سكان الصحراء.وكان الهدف من ذلك ربطهم عضويا بفرنسا، ثم تجنيدهم للدفاع عن سياستها ،ومشروعها لفصل المنطقة من خلال اتباع سياسة ذات مراحل:تبدا اولا بفصلهم عضويا ووجدانيا عن اخوانهم بالشمال، وفي المرحلة الثانية اقناعهم بتبني الحلول الفرنسية حول مصير المنطقة بتكوين(صحراوي فرنسي لا جنسية فقط بل وجدانا ايضا)، اما المرحلة الثالثة والاخيرة فيوضع هذا الانسان في الخندق ليدافع عن مصالحه جنبا الى جنب مع الفرنسيين في اطار الدفاع الذاتي[12].

ان بلوغ هذا الهدف جعل الاستعمار الفرنسي يقوم بإحداث وتطوير شبكة واسعة لاستقطاب السكان وفق خطة مدروسة ومحكمة، ومحور هذه الشبكة هو ضابط الدعاية و الحرب النفسية الذي يعتبر المحرك الاساسي لهذه الشبكة، وعمودها الفقري والذي هو مطالب بالنجاح في مهمته من خلال ما يتمتع به من مميزات خاصة في سلوكه، وشخصيته، ومواقفه، وسمعته، وعلى مدى معرفته بالرجال. ثم ما يتمتع به من قدرة دعائية يجيد بها استقطاب الجماهير[13].

ان نشاط الدعاية والحرب النفسية بالصحراء اعتمد على شبكة تتكون من فرعين:

*شبكة الاستقطاب والدعاية النفسية بين الشباب "ذكور واناث" تتراوح اعمارهم ما بين 14و20 سنة، سيكون لهم دور- مستقبلا - في تقرير مصير الصحراء مما يخدم مصالح فرنسا، حسب اعتقادهم.

*شبكة الاستقطاب و الدعاية النفسية بين الكبار "رجال ونساء" وبمختلف فئاتهممن الجزائريين "الاهالي"، والأوربيين ، وافراد الجيش وهي الفئة الهامة، ولها وزنها في تقرير المصير[14].

بالإضافة الى هذه الحرب النفسية، تم انشاء مراكز التنشيط الاجتماعي بالشمال بقرار25اكتوبر1955، ثم جرى تعميمها بالصحراء بقرار09 جوان 1959،وبمعدل مركز واحد في كل دائرة لي بمجموع 15 مركز بالعمالتين، ودورها تحسين الاوضاع الاجتماعية والثقافية، الى الرعاية الصحية، والتكوين، والاعتناء بالشباب والرياضة، وترقية المرأة، والاهتمام بالسكن الريفي، والنوادي، والصناعة الحرفية[15].

من جهة اخرى عرفت الصحراء الجزائرية ابان الاستعمار الفرنسي تشكيلات متعددة للجيش الفرنسي ، وتزايد ملحوظ في عدد عناصره شمالا وجنوبا[16].كانت التشكيلات عبارة عن فرق عسكرية برية وجوية على حسب الموقع الجغرافي للصحراء الجزائرية الذي يختلف عن المناطق الساحلية

التي تعرف اهم القواعد العسكرية الفرنسية عبر الموانئ–الجزائر ووهران وعنابة–[17].

ان فرق الجيش الفرنسي بالصحراء تشكلت معظمها من جيش بري كان له دور في المعارك المباشرة، او مهمات التفتيش، داخل القرى والمدن الصحراوية. بالإضافة الى فرق المشاة وكمن دورها في فتح الطرق واصلاح مختلف الاليات العسكرية، ويعد اهم فرع في الجيش البري لأنها مدربة خصيصا للقتال على الارض، وعلى حرب العصابات. كما تلقت تعليما واسعا في مختلف الكليات العسكرية الفرنسية، وبلغ عددها بالصحراء سنة 1962 ، 30الف جندي[18].

كان الجيش البري يتكون من جنود احتياطيين ، وجنود نظاميين تلقوا تعليما مركزا ومستمرا على عكس الاحتياطيين الذين يستدعون في الظروف الطارئة[19].

ان المتمعن في السياسة العسكرية الاستعمارية بالصحراء الجزائرية، يوقن ان المنطقة باتت تعني الكثير للسلطات الفرنسية، واننا امام خطط فرنسية جديدة تتعلق بالصحراء ، ففرنسا تعمل على تطوير قاعدتها النووية مثل باقي الدول المتقدمة آنذاك، وبحاجة الى المزيد من الثروات، وتعيش اخر مراحل التفاوض مع الوفد الجزائري، كلها احداث وظروف سيتمخض عنها مشاريع فرنسية جديدة باستحداث وزارة جديدة خاصة بالصحراء، والقيام بالتجارب النووية بالمنطقة– لازال التاريخ يتحدث عنها لحد اليوم– وما زاد الطين بلة خروجها بمشروع فصل الصحراء عن الجزائر، وهذا ما رفضه سكان الصحراء جملة وتفصيلا.

◄ 4 –التجارب النووية الفرنسية في الصحراء، ومرسوم فصل الصحراء من خلال L'écho d'Oranو Oran républicain 1960 –1962:

ان تطور الأبحاث النووية ، جعل الصحراء الجزائرية تشهد حوالي 17 تجربة نووية مختلفة القوة، والمظهر كانت من بينها اربع تجارب سطحية، و ثلاثة عشر تجربة باطنية، وتم اختيار كل من" الحمودية" في الغرب الصحراوي[20]، لكن البداية كانت من "رقان" حيث ان هذه الاخيرة زاد اهتمام الادارة العسكرية والسياسية الفرنسية بها خصوصا مع تولي "ديغول" الرئاسة في فرنسا، واعلانه بان وقت اجراء التجارب النووية هو الثلاث الاشهر الاولى من سنة1960 [21].وهكذا تم الاعداد لتفجير اولى القنابل النووية " اليربوع الازرق" بعد توزيع المهام بين قيادات المصالح العسكرية في مركز رقان ، وتوفير كل القوى العسكرية للجيش الفرنسي، والامكانيات اللازمة من طرف مديرية التطبيقات العسكريةDAS.واطلق على القنبلة التي انفجرت في سماء الحمودية الاسم المشفر M1 ،وكانت مصنوعة من البلوتونيوم، وقدرتها التفجيرية من60 الى70طن[22].

كشف الباحث الفرنسي برينو باريلو في ندوة تاريخية بنادي المجاهد بالعاصمة أن الاستعمار الفرنسي استعمل حوالي 42 جزائريا "كفئران تجارب" في تجاربها النووية التي قامت بها في صحراء رقان بتاريخ 13 أكتوبر و27 ديسمبر من عام 1960. ووصف الباحث المتخصص ما جرى للجزائريين ب"الإبادة البشعة"، وعرض بالمناسبة صورا لمجاهدين جزائريين تعرضوا للصلب، وكذا صور أخرى تظهر حجم تضرر البيئة من عمليات التفجير النووي، وحتى الآليات العسكرية التي كانت موجودة على بعد كيلومتر من التفجير تعرضت للتلف، ولفت الباحث إلىأن لجوء السلطات الفرنسية إلى الإكثار من ضحاياالتجاربالجزائرييننمحل التجربة وتنويع لباسهم كان بهدفمعرفة مستوى مقاومة البشرللإشعاعات النووية. وأوضح الباحثالمتخصص

برينوباريلو إنّالصحراء الجزائريةفي مجملها متضررةمن الإشعاعات النووية، وأن السكان بها يقبعونمهددين بما تفرزهإشعاعات البلوتونيوم.وكانباريلوأفادمن قبلفي كتابه "ضحايا التفجيرات النووية الفرنسية يتناولون الكلمة"، إنّ فرنسا أجرت خلال احتلالها للجزائر، نحو 17 تجربة نووية في صحراء الجزائر، وذكر وقتئذ إنّ الجيش الفرنسي أجرى في الفترة بين 1960و 1966، أربع منها أجريت فوق الأرض بمنطقة رقان بين 1960و1961، فيما تمت ثلاث عشرةتجربة نوويةأخرى تحت الأرض بالمكان المسمى "عينإيكر" التابعلضاحيةالهقار ما بين 1961و 1966.[23].

يحدث كل هذا والثورة الجزائرية قائمة بكل قوتها، وصيتها وصل انحاء العالم ،وسكان الصحراء كسكان الشمال يحملون السلاح ضد العدو الفرنسي الذي ورغم محاولاته في اخضاع سكان الصحراء الى سلطته، وابعادهم عن جيش التحرير الوطني، الا انهم كانوا يظهرون في كل مرة ارتباطهم بالأرض، والوطن، والعلم، والنشيد، والدليل على ذلك مجموع المعارك التي عرفتها الصحراء بفضل ابنائها ليس منذ اندلاع الثورة التحريرية فحسب بل ومنذ ان وطأت اقدام المستعمر اراضينا الطاهرة، ومن بينها:

معركة جبل امزي 06-07-08 ماي 1960جرت هذه المعركة في ظروف كان يستعد فيها الجيش للعبور إلى المنطقة الثانية لتدعيم القوات الداخلية وقد تقدم هذا العبور العقيد لطفي(مسؤول الولاية استشهد في معركة بشار هو ونائبه فراج وثلة من المجاهدين في مارس 1960) .ووقعت معركة امزي عندما حاول ثلاثة فيالق من المنطقة الثامنة العبور. جرت المعركة مع أحدها و كان على رأس قيادة المنطقة الرائد عبد الغني. وقعت بين قوات العدو 2400 عسكري و بين الفيلق الثاني لجيش التحرير (حوالي 300 جندي)الذي كان يقوده النقيب حميدي استعملت كل الأسلحة التي كانت في حوزة جيش التحريرفي هده المعركة : مدافع الهاون ، بازوكا، رشاشات صغيرة 39و40 ورشاشات جماعية 24و29 و 34MG و 42MG و 52 MX ومتفجرات .

أما الجيش الفرنسي فاستعمل فيالق وفرق من كل أنواع الأسلحة عربات مصفحة ومئات الدبابات حاصرت الجبل من كل جهة و استخدمت فيها المروحيات (تحمل فصيلة كاملة) وطائرات مقاتلة 26B و 28 Bوكذلك قنابل النابلم المشتعلة المحرقة و المحرمة دوليا. غطت ساحة المعركة مساحات شاسعة وفي اليوم الثالث انتشرت قوات جيش التحرير للانسحاب ودارت معارك في مقسم اللحم ومقسم مرزوق وأقام العدو بالجبل بعد الانسحاب أياما يجمع جثث قتلاه وقد انتن الجبل من كثرة القتلى .

ونتيجتها أن العدو تحقق من استحالة القضاء على جيش التحرير ورغم تفوقه في العدد والعدة كان لها أثر إيجابي خارجيا على المفاوضات وعلى الموقف الدولي[24].

ان الصحيفتين المحليتين الفرنسيتين L'écho d'Oran و Oran républicain كل منهما تناولت موضوع الانفجارات النووية بالصحراء الجزائرية حسب توجهاتها السياسية التي سلطنا الضوء عنها سابقا ، اذ كتبت L'écho d'Oran في 03 ماي 1960 ما يثير الضحك، والسخرية: "ديغول امام الكونغرس الامريكي: فرنسا اجبرت على امتلاك النووي، وعلى الدول المالكة ان تقف عن ذلك"[25].

الملفت ان الصحيفة المتطرفة L'écho d'Oran لم تعلم قراءها ما الذي جعل فرنسا تضطر لامتلاك السلاح النووي، خاصة و نحن نتحدث عن فترة الستينات من القرن الماضي ، وهي الفترة التي عرفت فيها حركات التحرر في العالم، وفي

الجزائر دعاية اعلامية واسعة دوليا، وهزت الراي العام العالمي، وكشفت فضائح الاستعمار الفرنسي ، وما يرتكبه من اعمال تخالف الضمير الانساني، وتتنافى مع ميثاق الامم المتحدة لحقوق الانسان.

بل حاولت الجريدة تكرارا، ومرارا اظهار التوافق الذي كان بين سكان الصحراء، وزير الصحراء من خلال وضعها الصور الملتقطة له مع" التوارق" وسعادتهم العارمة بزيارته[26].

اما صحيفةOran républicain اليسارية فكتبت: "فرنسا تدخل واقع النوادي بالقوة النووية"[27] ،اعترافا منها ان فرنسا كانت من بين الدول المهتمة فعلا بالتطور النووي في العالم، وانها من الدول النووية آنذاك، كما اشارت الجريدة الى وعد بصناعة "قنبلةH" قريبا[28].كلها اخبار عن التطور النووي الذي تعرفه فرنسا، مما يجعلنا نبحث عن موقع الجزائر في هذه الصحف ،ومدى تناولها للتجارب النووية في الصحراء الجزائرية من جهة، وتأثيرها السلبي من جهة اخرى.

ومن خلال اطلاعنا على اعداد L'écho d'Oran المتطرفة لشهر فبراير، وما بعده من سنة1960، والمتوفرة بمدينة وهران ،يمكننا ان نؤكد ان لا يوجد اي كلمة تشير الى خطورة هذه التجارب على سكان الصحراء[29].

وفي ما يتعلق عما تناولته Oran Républicain اليسارية، يمكننا ان نلمس بعض الاخبار التي تظهر لنا خطورة ما قام به الاستعمار الفرنسي برقان، فقد اكدت ان جميع الرحلات الجوية المتوجهة الى رقان قد تم الغاؤها، مما يدل ان الوضع في رقان اصبح غير مطمئن بعد تفجيرات "اليربوع الازرق"، ورغم ذلك هناك وعد بتجربة نووية جديدة يوم 16فبراير1960[30].

ان اكتشاف الصحراء الجزائرية من جديد، جعل فرنسا تدخل مرحلة جديدة في مناوراتها، ومراوغاتها مع جبهة التحرير الوطني،لتخرج لنا بمرسوم "ماكس لوجان " الذي صدر في 06 اوت 1957،ومن شانه فصل الصحراء الجزائرية باعتبارها ليست جزءا من الجزائر من جهة، وتأسيس سلطة سياسية مستقلة بالصحراء من جهة اخرى، حيث بدا المشروع بإنشاء(عمالة الساورة) بشار، وعمالة الواحات، وتأسيس وزارتي الجنوب والمستعمرات، ومشروع جمهورية الصحراء. لكن تفاجأت فرنسامن تلك المظاهرات العارمة التي عرفتها كافة المناطق الجزائرية، والتي عرفت باليوم الوطني ضد التقسيم[31]، تحت شعار "الصحراء جزائرية" وذلك بتاريخ05 جويلية 1961 ، "نادت إليها جبهة التحرير الوطني في وقت واحد و في كل مدن الجزائر من العاصمة و المدن الكبرى ،إلى أصغر دشرة و أبعد دوار،و ينفذ الإضراب العام تنفيذا دقيقا و شاملا و تجري المظاهراتالتي يشارك فيها كل المواطنين ، و في نفس الوقت يقوم جيش التحرير بهجمات خاطفة على المراكز العسكرية.

جندت فرنسا قواتها في هذا اليوم، و مع ذلك نجح الإضراب في وهران. إذ كان شاملا ورفعت خلاله الأعلام الجزائرية في جميع السطوح ... ووصل إلى السجون احتجاجا على التقسيم. ولم تتعرض L'écho d'Oran اوOran républicain للحدث لأنها تتفق مع كل الأوربيين أن الصحراء الجزائرية فرنسية.

إن نجاح المظاهرات أدى إلى تنظيم أخرى في 1 نوفمبر 1961 ، و اعترفت الصحف الفرنسية بنجاحها و أنها لم تكن عفوية بل منظمة[32]، و أجبرت " ديغول " بالاعتراف على أن جبهة التحرير

الممثل الشرعي للجزائريين، و بحق تقرير المصير، ما أثار أوربي الجزائر ضده.

كانت المظاهرات بالجزائر استجابة لنداء جبهة التحرير الوطني تكاد تكون يومية، لما كان لها من تأثير ايجابي على الثورة الجزائرية، وعلى معنويات الثوار وهم يستشعرون ذلك الدعم، والثقة التي يضعها فيهم الشعب الجزائري بلا حدود، وكان لها ايضا تأثير سلبي على السلطة الفرنسية في الجزائر، وخارجها. لماتكبدت من خسائر.

ان هذه المظاهرات اخذت نصيبها في اخبار الصحف الفرنسية، سواء الصادرة داخل الجزائر، او خارجها، وحتى العالمية منها، وبما في ذلك L'écho d'Oran وOran républicain ،فكل منهما تناول المظاهرات حسب ايديولوجيته السياسية، لكن اتفقا كليهما على ان الجزائر فرنسية، ولم ينصف القضية الجزائرية الا بعض الصحف الصادرة من فرنسا، او العالمية، واهمها الصحافة العربية ، وصحافة الدول المناهضة للاستعمار.

ان اشهر المظاهرات التي عرفتها الصحراء الجزائرية هي: "مظاهرات ورقلة" ضد "فصل الصحراء" في27 فبراير1962،ورغم ان الصحيفتين لم تتناول الموضوع الا اننا سنسلط الضوء على بعض جوانب هذه المظاهرات التي وقعت في شهر رمضان، واعتبرها المؤرخون انها: اخر مسمار في نعش فرنسا الاستعمارية، حدثت بمكان اسمه سوق الاحد، كرد على ادعاءات فرنسا بان سكان الصحراء لا يودون الانفصال عن فرنسا، وبدأت التعبئة الشعبية يوم 26 فبراير 1962 بقيادة جيش التحرير الوطني، وبتكليف الضابط "محمد شنوفي" لتحريك الاوضاع في المنطقة ، والاتصال بالفدائيين والمسبلين والمجاهدين، للتصدي للمؤامرات الفرنسية، وتجنيد كل الفئات العمرية للتعبير عن الرفض الشعبي المطلق للاستعمار. وشارك بها جميع عروش ورقلة، انطلاقا من القصر العتيق الذي تجمع حوله السكان صباحا منددين بممارسات فرنسا في الصحراء، لكن تأخر وصول الوفدين الاجنبيين اخر انطلاق المظاهرات الى غاية الزوال، فلم يكن امام العدو الا سياسته المعهودة وهي اطلاق النار ضد المدنيين[33].

◄ الخاتمة:

لم تكن الصحراء بمعزل عن الثورة الجزائرية، وذلك منذ اندلاعها، الا ان الموقع الجغرافي لكل منطقة من مناطق الجزائر لها ما يميزها. فكان لكل واحدة منها دورها وتنظيمها حسب تضاريسها، وهذا الذي لم تغفل عنه جبهة التحرير الوطني ولا جيشها،مما جعل لهيب الثورة التحريرية يسود كافة ارجاء الجزائر من الشرق الى الغرب،ومن الشمال الى الجنوب، وهو ما تؤكده المصادر التاريخية الوطنية منها والاجنبية، والتي لها اهمية في تدوين التاريخ الثوري للجزائر، بما في ذلك تاريخ الثورة التحريرية بالجنوب الجزائري، وهذا ما نلمسه في كل من L'écho d'Oran و Oran républicain واللتين يعدان من المصادر المكتوبة التي تبرزان النشاط الثوري بالجزائر، وبالجنوب الجزائري، رغم ارتباط اسميهما بالسلطة الاستعمارية.

ان الاطلاع على اعداد الجريدتين المتوفرة من 1960الى1962، تجعلنا نضع ايدينا على احداث تاريخية عرفتها الصحراء الجزائرية، اهمها الجرائم الاستعمارية التي قام بها الجيش الفرنسي، والتجارب النووية، مما يبرز الاهمية التي تكتسيها المصادر المكتوبة سواء الوطنية او الفرنسية في التأريخ للثورة الجزائرية.

◄ الهوامش:

1 –شافو رضوان: دوافع الاحتلال الفرنسي لمنطقة تقرت – محاضرة القيت في اليوم الوطني 15 حول المقاومة الشعبية ضد التوغل والاستيطان الاستعماري الفرنسي في الجنوب الجزائري- دار الثقافة مفدي زكرياء27-02-2011.

*اودولف بييراحد الملاك الكبار في مدينة وهران وصاحب مطبعة ، اسس جريدة صدى وهران.

2 –الزبير سيف الإسلام :تاريخ الصحافة في الجزائر ط، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع – الجزائر – بدون.ص85.

3 – L'écho d'Oran:12- 10 -1844 n°01

4 – صافر فتيحة : كتابات الجزائريين في الصحافة الاستعمارية الفرنسية –1919 1945 مذكرة ماجستير جامعة وهران.ص29.

5 –نفسه ص30.

6 –نفسه ص29.

FR : Front populaire.

7 BAYAK (de) Jacques- Del Prier, Histoire de front populaire, éd. Lesgrands études contemporaines.p.179

8 –صافر فتيحة: المرجع السابقص31.

9 – نفسه ص31.

10 –الزبير سيف الاسلام:المرجع السابق،ص95.

11 –شريط،لخضر واخرون،: استراتيجية العدو الفرنسي لتصفية الثورة الجزائرية–سلسلة المشاريع الوطنية للبحث،منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر1954 – طبعة خاصة بوزارة المجاهدين.ص299.

12 – المرجع السابق،ص299.

13 – نفسه،ص299.

14 –بن دارة، محمد: السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية ما بين1962-1952 –رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر،1999-1998.ص134.

15 – صديقي بلال: المشاريع الفرنسية في الصحراء الجزائرية–مذكرة ماجستير–2010-2009–جامعة وهران،ص60

16 –حسيتة، عمار: في الاطلس الصحراء، دار افريقيا للنشر،2001،ص5.

17 –درواز الهادي، تمام احمد: صقور الصحراء، دار الهومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2006، ص64.

18 –بن عمر الحاج، موسى: السياسة النفطية الفرنسية في الجزائر1962-1952، جمعية التراث القرارة، غرداية، الجزائر،2004،ص172.

19 –العايب، معمر: الجزائر في الاستراتيجية العسكرية الفرنسية من 1939 الى 1962،المصادر، ع15،م د ح ودح ث ا ن1954، 2007.ص119.

20 –جفال، عمار، واخرون: استعمال الاسلحة المحرمة دوليا طيلة العهد الاستعماري الفرنسي في الجزائر(الاسلحة النووية–نموذجا–)، منشورات م.و.ب.ح.و.ث.ت1962-1954،ص30.

21 – برمكي، محمد: الجيش الفرنسي في الصحراء الجزائرية–1962-1954مذكرة ماجستير–جامعة وهران–2010_2009،ص 72.

22- CNA :dz /AN/2G/04008// Boite040.

23 –الموقع الالكتروني: حماية التراث في ولاية النعامة،

الجزائر عامة.

24- www.hadik.com: htt.

25- L'écho d'Oran :03-05-1960. p1

26- L'écho d'Oran :02-02-1960. p3

27- Oran républicain :15-02-1960. p1

28- Oran républicain :15-02-1960. p1

30- Oran républicain :13-02-1960. p2

31 – ازغيدي،محمد لحسن: مؤتمر الصومام و تطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956 – 1962 ،د ط، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر.1989،ص219-217.

32- L'cho d'Oran :01-11-1961. p1

El Moudjahide du n°02 à n°90.

33-http://www.echouroukonline.com. 13-01-2014.

"فرانتز فانون والثورة الجزائرية"
-من مجال التأثر إلى نطاق الممارسة-

د. قوعيش جمال الدين - الجزائر- 3 -
أستاذ محاضر بالمدرسة الوطنية العليا
للصحافة وعلوم الإعلام/ الجزائر

الملخص

عرفت الثورة الجزائرية شهرة إقليمية ودولية واسعة النطاق، خاصة بعد اعتراف جل الدول كاملة السيادة بمشروعيتها، على غرار مساعدة كبار المؤرخين والمفكرين في العالم، أبرزهم كان فرانتز فانون الذي دعا إلى مساندتها في الكثير من المناسبات الرسمية، بل وقد قام باتصالات مع أبرز روادها عارضا عليهم مساندته المطلقة لها ولمشروعيتها. بل وقد أكدت مقالاته المنشورة في الكثير من الصحف الجزائرية وغير الجزائرية على إيمانه العميق بأهداف هذه الثورة التي غيّرت الخريطة الجيوسياسية آنذاك. لقد انطلق فانون من منطلق التضامن الثوري بين الشعوب المستعمرة من قبل فرنسا على وجه الخصوص، وهي في غالبيتها شعوب إفريقية وآسيوية.

حاول فانون التنظير للثورة الجزائرية في إطار التاريخ المعاصر، ورغم انتمائه للفكر الشيوعي وإيمانه المطلق بالفكر الماركسي، لم يتناسى المبادرة الفردية لهؤلاء الشباب الذين فجّروا أكبر ثورة في شمال إفريقيا في النصف الثاني من القرن الماضي، كما لم ينسى أصوله الإفريقية ودفاعه عن الأقليات السود في العالم أجمع، فهو كغيره من المناهضين للتمييز العنصري والداعين للحوار ما بين الشعوب والأعراق في إطار ثقافة التسامح ونبذ العنف بأشكاله المختلفة، والتحاور مع الرؤساء والحكام في إطار مبادئ العدل والمساواة. لقد دافع فانون عن الشخصية الوطنية الجزائرية بأبعادها الثلاث: العروبة والأمازيغية والإسلام، بل وذهب أبعد من ذلك، عندما دافع عن استقلال الجزائر استقلالا مطلقا، لأنّ الدولة الجزائرية وجدت قبل الوجود الفرنسي، فما الثورة الجزائرية، حسب وجهة نظره، إلاّ امتداد للدولة الجزائرية الأصيلة التي بنيت قبل وجود الأمبراطورية العثمانية بعقود كثيرة. وهو ما جعله في جميع كتاباته الصحفية وغير الصحفية يؤمن بضرورة تحقيق الأهداف الأولى للثورة الجزائرية المتمثلة في إعادة بناء التاريخ من جديد؛ أي بناء الدولة الجزائرية الحديثة.

Résumé

La révolution algérienne à connue une gloire régionale et internationale d'une grande envergure, surtout après la reconnaissance de la plupart des pays d'une souveraineté complète de sa légitimité, comme le soutien des grands historiens et penseurs dans le monde, principalement était Frantz Fanon qui a appelé a son soutien(la révolution) dans plusieurs occasions officielles, même il a lié des contacts avec ses pionniers les plus importants, en leur présentant son soutien absolu pour elle et pour sa légitimité. Plus que ça, ses articles publiés ont confirmés dans divers journaux algériens et non algériens sa profonde croyance en les objectifs de cette révolution qui a changé la carte géostratégique depuis. Fanon est parti depuis la solidarité révolutionnaire entre les peuples colonisés par la France en particulier, et se sont des peuples dans leur majorité africains et asiatiques.

Il a essayé de mettre une théorie pour la révolution algérienne dans le cadre de l'histoire contemporaine, et en dépit de son appartenance à l'idéologie communiste et sa croyance absolue de la pensée marxiste, il n'a pas oublié l'initiative personnelle pour ces jeunes qui ont menés la plus grande révolution dans le nord de l'Afrique en la seconde moitié du siècle dernier, en plus il n'as pas oublié ses origines africaines et sa défense des minorités noires dans le monde entier, parce que lui comme les autres qui sont contre la ségrégation raciale, appelant au dialogue entre les peuples et les races dans le cadre de la culture de la tolérance et le renoncement de la violence sous ses diverses formes, et le dialogue avec les présidents et les leaders dans le cadre des principes de la justice et la légalité. Fanon a défendu la personnalité nationale algérienne avec ses trois dimensions : l'arabisme et l'amazighité et l'islam, il a même aller au-delà, lorsqu'il a défendu l'indépendance de l'Algérie une indépendance absolue, parce que l'Etat algérien a existé avant la présence française, parce l'Etat algérien, suivant son point de vue, n'est qu'une prolongation de l'Etat algérien original qui s'est construit avant la présence de l'Empire ottoman en plusieurs décennies. Ce qui l'a rendu dans tous ses écris journalistiques et non journalistiques croyant en la nécessité de réaliser les premiers objectifs de la révolution algérienne qui sont reconstitution de l'histoire de nouveau ; c'est-à-dire la construction de l'Etat algérien moderne.

Les mots clés : Frantz Fanon, la révolution algérienne, le peuple algérien, l'indépendance nationale, l'histoire commune.

مقدمة

شهد القرن العشرين للميلاد ثورات عديدة عبر أنحاء المعمورة، وقد أسهمت كل منها بنصيبها من الخبرات والدروس، سلبية كانت أو إيجابية، حيث مكّنت الثوار من بناء مجتمعاتهم فيما بعد. كما كان لكل ثورة أيضا سماتها الفريدة التي لا تظهر أبدا مرة ثانية، ولا حتى في نفس البلد، وبالأحرى في غيرها.

وفي الحديث عن الثوار ومنظري الثوار يحضر اسم فرانتز فانون، حيث تكشف لنا قراءة مختلف كتبه حول الثورات في إفريقيا عموما والثورة الجزائرية خصوصا، عن مواقفه وتفكيره خلال مرحلة تكوينه الأولى، وقبل انضمامه للثورة الجزائرية.

ذلك لكي نفهم مدى التأثير الذي أحدثته الثورة الجزائرية في فانون؛ أي في نفسيته وفي تفكيره، لا بد أن نقرأ كتاباته المختلفة، أو حتى نعيد قراءتها حسب تاريخ صدورها أولا بأول، فإنّ مثل هذه القراءة ضرورية لكي نلمس هذا التأثير أولا، ولكي نعرف مداه ثانيا، ولكي نستجلي بعد هذا وذاك المراحل المختلفة التي مرّ بها تفكير فانون منذ 1952م إلى غاية 1961م: أي منذ صدور كتابه الأول إلى صدور كتابه الأخير، مرورا بكتاباته في «المقاومة الجزائرية» وفي «المجاهد» ابتداءا من عام 1957م.

مثل هذه القراءة التي تراعي التسلسل التاريخي، هي قراءة جد ضرورية لتتبع الخط البياني لتفكير فانون الأصيل، خصوصا وأنّ القدر المشترك من العنف في كتاباته قد يجعل الأمر يختلط علينا، فلا نحاول تصنيف ألوان العنف القانوني من جهة، ولا نحاول من جهة أخرى تبيّن المواقف الفكرية التي تختلف، وأحيانا تتناقض من مرحلة لأخرى.

وهكذا فإنّ فانون، بطريقته النموذجية، تجرفه بلاغته وتعطشه الكبير إلى التغيير الثوري، فيلقي بالطفل مع ماء الاستحمام. إنّه في لحظة يطلب «العون» الذي لا غنى عنه من الشعوب الأوروبية.، وفي اللحظة التالية يترك انطباعا بأنّنا لن نتعلم شيئا من أوروبا، وأنّ «مفهومات جديدة» ينبغي أن تصاغ، و»إنسانا جيدا» ينبغي أن يخلق، غير أنّ المفهومات الأساسية قائمة بالفعل، مفهومات هذه الاشتراكية ذاتها التي اختارها فانون، وهي مفهومات نشأت أول ما نشأت في القارة الأوروبية، سواء في مجال النظرية أو التطبيق.

لقد حدد فرانتز فانون خياره بين القطيعة مع الماضي الجزائري وما يترتب عن ذلك من الاستقرار وسط جهاز استعماري مجدد، لكنّه مستمر، وبين الوفاء لأمة جزائرية وقعت مؤقتا في براثن الاضطهاد، فاختار أنّه لا وجود لذاتية جديدة تولدت عن الاستعمار، إنّ الشعب الجزائري لم يقبل بأن يتحول إلى «تعاون». إنّ فرنسيي الجزائر لم يتعايشوا مع الشعب الجزائري، ولكنّهم، بالمقابل، سيطروا عليه، لذلك كان لزاما منذ البداية إشعار الشعب الفرنسي بمدى مطالب أفراد هذا الشعب. إنّ جبهة التحرير لم تتلاعب بالكلمات أو المبادئ، فقد قالت أنّ هدفها هو الاستقلال، وأنّه لا مكان لأيّ تنازل بهذا الهدف.

وفانون، كما سنرى، واضح في إنكار كل ما من شأنه تبرير الاستعمار، كما هو واضح في اعتبار الأمة الجزائرية موجودة من قبل الاحتلال الفرنسي. وهذه هي نفس نظرية الحركة الوطنية الجزائرية قبل الثورة.

▶ 1- فرانتز فانون: النشأة وظروف العصر:

في مدينة فور-دو-فرونس(Fort-de-France) بجزيرة لامارتينيك(La Martinique) كان مولد فرانتز فانون(Frantz Fa-

non)[1925م-1961م] كان مولده. وكان حفيدا لأولئك الرقيق الذين حملوا منذ قرون إلى جزر الأنتيل من أدغال إفريقيا، وكانت هذه الجزيرة تشكّل مع جزر الأنتيل(les Antilles) الصغرى منطقة شملتها السيطرة الفرنسية من القرن 17م، ونظرا إلى أنّ السكان الأصليين لهذه الجزر قد أبيدوا لأنّ الأوروبيين كانوا يرتفعون عن العمل في مزارع قصب السكر، فقد ازدهرت تجارة الرق لتزويد المعمّرين البيض بما يحتاجونه من أيد عاملة.

ظلّ أبناء الأفارقة الذي استقروا بالجزيرة يعانون من الاضطهاد، ويقومون من حين لآخر بثورات تقمع بشدة، ومع قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة وظهور النظريات الاندماجية توقف ذلك التطور، وراح السكان يحلمون بالمساواة المطلقة مع الأوروبيين. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التي ساهم فيها سكان جزيرة لامارتينيك إلى جنب سكان جميع المستعمرات الفرنسية، اتّخذت بعض التدابير بهدف إيجاد تقارب سطحي بين وضعية سكان الجزيرة وسكان «الوطن الأم» (La métropole). وقد أدى ذلكن بالإضافة إلى محاولة «النخبة» المارتنيكية التنكر لماضيها ولزنوجتها، إل نوع من عرقلة الكفاح الشعبي المشروع.

خلال هذه الحقبة من حياة الجزيرة ولد فرانتز فانون، وكان أبوه موظفا بالجمارك، وهذا المنصب يعتبر وضعا امتيازيا بالنسبة للعامل الزراعي.

ومع تردد فانون على المدرسة الفرنسية تعزز نفوره من اللهجة المحلية وانفتحت عيناه على القيم البيضاء، ممثلة في أبطال من أمثال «شارلمان»(Charlemagne)، «جان دارك(Jeanne D'arc) و»لامارتين»(Lamartine)....

نفس الشخصيات التي كانت دروس التاريخ الفرنسي تفرض معرفتها على السكان الوطنيين في جميع أنحاء المستعمرات. وخارج المدرسة كان البيض، وهم بضعة آلاف من بين مائتي ألف، يفرضون سيطرتهم على الجزيرة، فيحتفظون بمزارعهم على الشياع، ويتزوجون فيما بينهم، ويتبادلون العون ويحتكرون أرباح صناعة السكر، ويسيطرون على البنوك ومعظم النشاطات التجارية. لكن على الرغم من وجود ألوان متعددة من التمييز العنصري في جزر الأنتيل التابعة للاستعمار الفرنسي، فقد نشأت ما يمكن أن تسمّى بـ»البورجوازية الزنجية» التي كانت تبحث عن الاندماج والذوبان في المجتمع الفرنسي، أكثر ممّا تفكر في الاستقلال الوطني.

إلى هذه الفئة تنتمي أسرة فانون؛ فقد تمكّن خمسة من بين ثمانية أولاد —من ضمنهم فرانتز- من متابعة دراستهم العليا في الجامعات الفرنسية، وهو أمر له دلالته في الكشف عن الوضع الاجتماعي لأسرة فانون، خصوصا إذا عرفنا أنّ هذه الجزيرة التي تعتبر فرنسية كاملة، كانت تعد عام 1970م ثلاثين بالمائة من الأميين. فكيف كان الحال في الثلاثينات عندما كان فرانتز وإخوته يتابعون دراستهم الابتدائية.

وقد أدى تطور هذه البرجوازية المحلية إلى وجود نوع من شعور التفوق عند الأنتيلي بالنسبة لزنوج المستعمرات الأخرى. كما زاد في تعميق الشعور بالفرق بين زنجيا المارتنيك والزنجي الإفريقي، حيث أنّ الديانات التي حملها أسلاف فانون قد «زالت»، وحلّت محلها الشعائر المسيحية، وكان رجال الدين الكاثوليك في الجزيرة يضعون أنفسهم في خدمة المحتل، ولا يسمحون ببروز أيّ وعي بالشعور القومي. وقد تعزز موقف هذه البرجوازية مع احتفال باريس سنة 1935م بمرور ثلاثمائة سنة على دخول جزر الأنتيل تحت السيطرة الفرنسية. وتمت تلك الاحتفالات تحت شعار «ذكرى الروابط مع المستعمرات القديمة» التي أعطتها فرنسا أحسن خصال عبقريتها. وهكذا

شهدت الجزيرة، وخصوصا بعد الحرب العالمية الأولى استقرار حالة سلبية من القبول بالأمر الواقع، حلت محل ضروب الكفاح التي عرفتها في القرن الماضي. وفعلا، فإنّ القرن التاسع عشر كان عامرا بالاضطرابات التي تكشف عن وجود رغبة عميقة في التحرر من الاستعمار: ففي سنة 1822م جرت اصطدامات دموية وحوادث عنف في جزيرة لامارتينيك، وعندما كانت باريس تتأهب للتوقيع على المرسوم الذي يلغي الرق، انتشرت الاضطرابات في كامل أنحاء الجزيرة[1].

وتصور السكان المحليون أنّ إلغاء الرق في 27 أفريل 1848م قد وضع حدا لمتاعبهم، وأنّهم ربحوا إلى الأبد معركة الكرامة، لكن سرعان ما انكشفت الحقيقة: لم تتغيّر الأوضاع الاقتصادية، وظل الزنجي، رغم تحرره لا يملك من مورد للرزق سوى العمل في مزارع السكر، ونستطيع أن نتصور بسهولة وضعية أولئك العمال المزارعين في القرن الماضي.

ورغم ذلك، لم تنقطع الاضطرابات؛ فقد اندلعت حوادث عام 1870م في جنوب المارتينيك وأضرمت النيران في أربعين مزرعة، وكان ذلك مظهرا من مظاهر الثورة على التطور الجديد الذي حدث في المجال الاقتصادي مع تحول زراعة السكر التقليدية إلى زراعة أحدث ذات معامل ميكانيكية.

إلاّ أنّ ذكريات هذا الكفاح المرير أصبحت باهتة مع صعود موجة المستفيدين من "الاندماج". بل أنّ فئة الموظفين المارتنيكيين(التي تنتمي إليها أسرة فانون) كانت تتحدث عن زنوج إفريقيا بنفس اللهجة التي يتحدث بها الأوروربيون، أو تقريبا. كان الأنتيلي يعتقد أنّه متفوق على الأفريقي، بل كان متأكدا، زيادة على ذلك، من وجود فرق جوهري بين الإفريقي والإنتيلي. وكان التقليد المعمول به في فرنسا، عند تقديم شخص إنتيلي في مجتمع باريسي راق، هو التنصيص على أنّه "إنتيلي من أصل مارتينيكي". وكان الإفريقي في نظر المارتينكيين هو الممثل الحقيقي للعرق الزنجي، وإذا حدث أنّ معمرا طلب مجهودا كبيرا من عامل مارتينيكي، فإنّ هذا كثيرا ما يرد عليه بالقول: "إذا أردت زنجيا فابحث عنه في إفريقيا"، ما يدل على أنّ العبيد والذي يقومون بالأشغال الشاقة يؤتى بهم من هناك...

ذلك هو الوضع الذي كان خلاله فانون يواصل دراسته الابتدائية، وجزءا من دراسته الثانوية. لكن هذا الوضع دخل عليه تغيير مع قيام الحرب العالمية بفعل وجود عدة عوامل، وصفها فرانتز فانون بشيء من الإسهاب في مقال نشر له في مجلة "فكر"(Esprit) الفرنسية سنة 1955م. ونظرا إلى أنّ هذا المقال يتناول بالتحليل حقبة كانت تعتبر حاسمة في توجيه فانون سياسيا وفكريا، فإنّنا نستطيع أن نعتبره لونا من السيرة الذاتية، كتبها فانون للكشف عن تطوره الفكري إلى عام 1955م[2].

وكان اكتشاف الزنوجة لفانون بداية لعهد جديد، ونظرا لكونه ميالا إلى العمل، فهو لم يكتف باتّخاذ موقف نظري عاطفي لتأكيد زنوجته، بل راح يفكر في وسيلة للخروج من الجزيرة والالتحاق بقوات الحلفاء، إذ يجب أن يعطي درسا لهؤلاء البيض العنصريين الذين تجرؤوا على النيل من إحساسه.

وفعلا، فقد التحق بجمهورية الدومينيك(république dominicaine) في نهاية 1943م. لكن هل كان ذلك بدافع وطني أم حضاري، كما يفهم من إشارته لهذه النقطة في كتابه 'بشرة سوداء أقنعة بيضاء'(Peau noire masques blancs)[3]، حيث أكد أنّه التحق بفرنسا الحرة استجابة لنداء الواجب والضمير بوصفه فرنسيا؟ أم هل كان ذلك إشباعا لغرض شخصي وعائلي لتيار محلي شمل أسرته فيما شمل؟ ومنه، راح

فرانتز فانون يتطلّع إلى إفريقيا، باحثا عن أصوله الزنجية، وقد وضع فيها كل آماله، وعزز ذلك التطلّع المشحون بعظام الآمال، تلك المغامرة التي أقدم عليها، حيث كان يتابع دروسا عسكرية في مدينة بجاية بالجزائر تؤهله ضابطا. وباشر مهمته الجديدة في صفوف الجيش الفرنسي إلى أن أصيب بجروح في معارك قرب الحدود السويسرية، وعند نهاية الحرب العالمية الثانية(1939م-1945م) كان فانون موجودا في ألمانيا، ثم غادرها عائدا إلى وطنه الأم(جزيرة لامارتينيك) ليسهم في حملة انتخابية تهدف إلى إنجاح إيمي سيزار(Aimé Césaire [1913م-2008م])[4] ضمن قائمة المرشحين الشيوعيين، لأول مجلس وطني للجمهورية الفرنسية الرابعة.

لكن التطلّع إلى الأصول الإفريقية البعيدة ووضع كل الآمال في هذا التطلّع، يعني البحث عن حل في إطار إفريقي، وذاتية إفريقية-زنجية متميّزة عن الإطار الفرنسي، لكن لصالح أيّة جهة يمكن أن يحل التناقض في تصور فرانتز فانون؟

وفي المحيط العالمي، هاهي بوادر التحرر تظهر في الأفق: ففيتنام تخوض غمار حرب غير متكافئة، لكنّها مع ذلك تهز العملاق الاستعماري. وفي المستعمرات الفرنسية بإفريقيا تظهر سياسة الاندماج على حقيقتها: فكائن المستعمرات لا يمكن أن يرقى إلى مستوى الفرنسي الحق، اعتبارا وحقوقا.

لكن ذلك لم يصرفه تماما عن التوجّه نحو إفريقيا، فقد أنهى دراسته الطبية في نهاية 1951م، وبعد زيارة إلى الوطن الأم، عاد إلى فرنسا حيث اشتغل في مصحة، ثمّ منها بمستشفى للأمراض العقلية بالبليدة عام 1953م، الذي يعتبر أهم مستشفى من نوعه في إفريقيا. وهناك كان يشرف على قسم يوجد به مائة وخمسة وستون أوروبيا وفقط مائتا جزائري، فحاول تطبيق طريقة متميّزة في العلاج الاجتماعي، لكنّه سرعان ما اصطدم بصعوبات كثيرة، لأنّ الأساليب التي جرّبت مع الأوروبيين لا يمكن أن تنجح مع مرضى جزائريين، تختلف بيئتهم الاجتماعية عن البيئة الأوروبية. وشيئا فشيئا، اكتشف فانون أنّ هذا الاختلاف يرجع إلى عوامل وأوضاع سياسية، كما اكتشف عوامل الجنون التي ترجع إلى الوضع السياسي للسكان المحليين؛ أي أصناف المرض العقلي التي تسبب فيها الاستعمار. وليس من المستبعد أن تكون تجربة فانون كطبيب نفساني في الجزائر، وخاصة بعد دراسته لحالات المرض بعد قيام الثورة المسلحة، قد كشفت له عن انسدادا الطريق الفرنسي بالنسبة لحل المشاكل المتولدة عن الاستعمار. وقد استخلص النتيجة من ذلك، فكان انضمامه إلى الثورة الجزائرية بمجرد اندلاعها سنة 1954م[5].

كانت الثورة الجزائرية عندما انضم إليها فانون قد تجاوزت النطاق المحلي، وأصبحت موضوع تعاليق السياسة والدبلوماسية في أنحاء العالم، وفي مقدمته البلدان الإفريقية. وقد ظهر اهتمام الأفارقة بهذه الثورة في أشكال مختلفة، تمثلت أحيانا في قيام بعض المناضلين بالاتّصال بقيادة جيش التحرير يطلبون منها المساعدة حتى يتمكّنوا من الإعداد للثورة المسلّحة في بلادهم. وقد لمس فانون خلال اشتغاله بجريدة 'المجاهد' هذا الجانب في الثورة الجزائرية وهو انفتاحها على إفريقيا. ولا شك أنّ ذلك قد أعاد إلى ذهنه من جديد تلك المشكلة التي كانت واجهته في خضم الحرب العالمية الثانية عندما عرف حقيقة «الخطأ الأبيض الأكبر»، وراح يبحث عن حل بديل في الأصول الإفريقية البعيدة. ومع تطور الكفاح المسلح في الجزائر، وتطور رد الفعل الاستعماري ضده، تأكدت حقيقتان: التضامن الفعلي بين ألوان الاستعمار ومراكزه، وضرورة التضامن بين الشعوب المضطهدة.

وفي الوقت الذي بدأت فيه بعض البلدان الإفريقية تفكر في استلهام التجربة الجزائرية لخوض غمار معركة مسلّحة، كانت الأجهزة الاستعمارية الفرنسية تشتغل لفصم التضامن الطبيعي لإفريقيا السوداء مع الجزائر، وتخيط مخططات الاستعمار الجديد لتحل محل الاستعمار القديم في إفريقيا.

▶ 2 – نظرية فانون حول الثورة وتاريخها:

تترك كتابات فانون انطباعات مختلفة، وبخاصة لأنّ جانبا كبيرا من جهده موجّه لمهاجمة نواقص المثقفين الوصوليين الأفارقة، حيث يقول في كتابه ‹بشرة سوداء، أقنعة بيضاء›: «الأسود هو رجل أسود؛ بمعنى لصالح مجموعة من الانحرافات العاطفية، استقر في عالم أين يجب إخراجه فعلا»[6].

لكنّنا إذا أخذنا أفكار فانون ككل، سيتّضح أنّه يتوقع أن يبرز من بين صفوف المثقفين الأساسية –الذين يرى أغلبهم انتهازيين– عدد يتولون قيادة الثورة. وعلى أيّ حال فلمن كان فانون يكتب؟ إنّه إسم يكتب بالتأكيد للعمال الذين يحتقرهم، ولا لفلاحيه وحثالته الأميين في أغلبهم.

لقد توصّل فانون، وغيره من منظري الثورات المعاصرة[7]، إلى نتائج حاسمة في كثير من المسائل الأساسية للنظرية الثورية، ولا سيما عن دور الطبقات في العالم الحديث، وتقديره للأحزاب الشيوعية. فهو يتحدث عن توسّع المدن والتقدم التكنولوجي والمزايا المادية للشعب العامل. فالمدينة عنده مصدر للفساد والتدهور، حيث يجد أنّ القوة الجماهيرية الثورية المحتملة الوحيدة في المدن هم نفاية المجتمع، حثالة البروليتاريا، العاطلين وغير القابلين للعمل، وكذلك الأقليات السود في الولايات المتحدة(وفي الدول الغربية أيضا في الوقت الحالي). ويأمل فانون أن يتوجّه المناضلون من المدن الإفريقية إلى الريف لتنظيمه، وتحليله يتضمّن المفهوم القائل بأنّ مثقفي المدينة هو الذين سيلعبون الدور القيادي. ونزعة الصفوة المثقفة هذه، أو وصاية المثقفين من غير أبناء الطبقة العاملة، لا يجمعها شيء بمفهوم الحزب الطليعي، والقائم أساسا على الطبقة العاملة.

إنّ فكرة العنف عنصر رئيسي في فكر فانون، وهي مسألة يمكن أن تثور في مراحل مختلفة من النضال الثوري، ولن يجفل ثوري من مثل هذه الضرورة، وبخاصة إذا أدرك أنّه على الشعب العامل أن يكون مستعدا على الدوام لممارسة عنفه بكل الوسائل الضرورية لكي يتغلّب على عنف الطبقة الحاكمة، أو احتمال لجوئها إلى العنف.

غير أنّ العنف لديه ليس مجرد وسيلة لغاية، وإنّما هو تجربة ضرورية في ذاتها، العنف هو التحرر، هو النار المظهرة التي تختبر الثوار وتنقيهم، فممارسة العنف عند فانون هي التي تجعل الفلاح المستعمر(بفتح الميم) الذي طال خضوعه يتغلب على خوفه من العدو، ويكتسب الاستعداد للمشاركة في التغيير الثوري[8].

ومنه، فهو يزدري المؤسسات القائمة، ولا يرى داعيا لأن يعمل الثوار في إطار مثل هذه الأجهزة، ولو لفضحها واستغلالها كمنبر سياسي. وهو يبدي نوعا من العداء تجاه تنظيمات الطبقة العاملة، ولا سيما النقابات، حيث يذكر مثلا في كتابه 'من أجل ثورة إفريقية' : «يبحث المثقفون «المتعاونون مع العدو» على تبرير موقفهم الجديد. العادات، التقاليد، المعتقدات. متبرأ منها في الماضي ومتجاهلة أصبحت معززة ومؤكدة بعنف»[9].

قد تشبه الكثير من أفكار فانون للأفكار التقليدية للفوضويين؛ نحو الحقد على المدينة وعلى المزايا المادية للمجتمع الرأسمالي الحديث، تمجيد الفلاحين وحثالة

البروليتاريا، وعبادة العنف والعفوية. وفي «توافق» مع الفوضويين يترك لنا كل من فانون، دوبريه وماركيوز انطباعا بأنّهم يخشون صفوف البروليتاريا المنظمة، وهم يرفضون في المقام الأول أن يسيطر مثل هذا الانضباط المنظم على السلطة السياسية. فالفوضوية ونزعة الصفوة أكثر جاذبية لمثقفي البرجوازية الصغيرة من العمل المنضبط المنظم الدؤوب لأعداد الملايين، وكسبهم إلى التغيير الثوري. والفوضوية، بالمفهوم اللينيني، هي الثمن الذي تدفعه حركة الطبقة العاملة مقابل خطايا الانتهازية. لكن هنالك أسباب خاصة لانبعث الاتّجاهات الفوضوية مؤخرا في البلاد الرأسمالية الكبرى، وهي اتّجاهات لا تعبر عن نفسها في شكل تنظيمي قوي، وإنّما في مجال عدد من الأفكار العامة التي يعد فانون ودوبريه وماركيز –بشكل ما– معبّرين عنها.

إنّ الفوضوية شكل من أشكال رفض الوضع القائم، لكنّها أيضا تعبير عن وجهة نظر البرجوازية الصغيرة. حيث يؤمن الفوضوي، في بحثه عن «الإنسان الطبيعي» الذي لم تلوثه المدنية، ولم تلوثه الرأسمالية الحديثة بشكل خاص، بأنّه يستطيع أن يجد مثل هذا الإنسان بين الفلاحين وحثالة البروليتاريا، الذي لم يشملهم ماديا الإنتاج الحديث. فمثل هؤلاء «الخارجون» مقيض لهم –في نظر الفوضوي– أن يؤدوا دور المتمردين على المجتمع. وهؤلاء «الخارجون» هم أيضا في نظر فانون الثوريون الطبيعيون الوحيدون[10].

وتبدو النواقص الحالية للرأسمالية بالنسبة للفوضوي تأكيدا لأفكاره، لكن هل يعد هذا كلّه إسهاما في نظرية فانون الثورية؟

يبدو أنّ فانون يرفض حركة الطبقة العاملة المنظمة، ولو كانت تعاليمه بشأن الطبقة العاملة ناشئة عن حرص مخلص وحقيقي للتغلب على أوجه ضعفها، ومساعدة العمال على أن يطرحوا عنهم أوهامهم، ويلقوا بثقلهم مع الثورة، لكن ذلك أمرا مفهوما تماما.

يقول فانون: «من بين الواجبات الأولى للمثقفين، المنضوين تحت تسمية 'الأنتلجنسيا'، وعناصر ديمقراطية لدول مستعمرة(بكسر الميم)، هي أن يساندوا دون تحفظ المطلب الوطني للشعوب المستعمرة(بفتح الميم). يتأسس هذا السلوك على معطيات نظرية هامة: الدفاع عن فكرة الإنسان، المنبوذ في الدول الغربية، رفض المشاركة المؤسساتية في انحطاط وإنكار بعض القيم.» [11]

فالماركسيون لم يترددوا أبدا في انتقاد الأخطاء في صفوف العمال. وعلى سبيل المثال حارب ماركس ولينين الانتهازية على الدوام، وأوضحا مرارا الأضرار الكبيرة التي تسببها الأفكار الإصلاحية للحركة، لكن فانون لا يتوجّه إلى حركة الطبقة العاملة. لأنّه لا يهتم بكسب العمال للثورة، بل بالعكس فهو – على غرار دوبريه وماركيوز– يرفض البروليتاريا ويدعو الطلاب والمثقفين والفلاحين إلى أن يفعلوا نفس الشيء. وليس العمال في نظره أناسا مضللين ينبغي مساعدتهم، بالعكس إنّهم يصورونهم عمليا كأعداء يقفون في الجانب الآخر من المتاريس. وحتى قراءة كتاب فانون(«من أجل ثورة إفريقية») تكشف عن افتقار واضح للاتصال المباشر بحركة الطبقة العاملة ومعرفتها. وهذا أمر لا يثير الدهشة لأنّه قرر أنّ الطبقة العاملة لم تعد قوة ثورية رئيسية[12].

ورغم رفضه لمشاركة الطبقة العاملة،إلاّ أنّه لم يرفض كل فصائلها الأكثر انضباطا ونضالية، لأنّه يدرك بثقة وثبات، أنّ الطبقة البروليتارية تحاول تحقيق، بوسائلها المتواضعة، الفهم الاشتراكي وروح النضال والوحدة.

▶ 3- فانون ومستقبل الثورة الجزائرية:

من الأمور الرئيسية في فكر فانون آراءه عن دور الطبقات في الثورة الإفريقية. ولقد كان له فضل محاولة تحليل القوى الطبقية في إفريقيا عموما والجزائر خصوصا[13]، لأنّه ولقد كان له فضل محاولة تحليل القوى الطبقية لأنّه بدون هذا التحليل لا يمكن أن تتوفر إمكانية فهم طبيعة النضال الذي يواجه إفريقيا والجزائر على حد سواء، ويزيد من هذا الفضل قيامه بهذه المحاولة في وقت كان يسود فيه بين عدد من القادة الأفارقة إنكار وجود الطبقات الاجتماعية أصلا في هذه القارة.

لكن فانون يحذر من أنّ البرجوازية الإفريقية الفتية مستغرقة في الحصول على الثروة حتى لا تقدّر الخطر الذي يمثله هذا الوضع. ومن هذه الزاوية فإنّ إفريقيا في الواقع بالغة التعقيد. فحتى قبل عصر استعمار القرن العشرين لم تكن في أغلب بلاد إفريقيا الاستوائية تلك التقسيمات الطبقية الواضحة القاطعة التي كانت قائمة مثلا في آسيا، حيث تطورت النظم الإقطاعية لفترات طويلة. لقد جرّ الاتصال بأوروبا وتجارة الرقيق الخراب على إفريقيا، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتقدم من الإقطاع إلى الرأسمالية، وتحقق تقدما تكنولوجيا هائلا، كانت أوروبا تدفع إفريقيا إلى أسفل، وتلقي بمجتمعها في الركود المؤقت. وعلى دماء العبيد الأفارقة وعظامهم ازدهرت الرأسمالية الأوروربية، وبخاصة رأسمالية بريطانيا وفرنسا. وانبعثت في أوروبا مدن جديدة، فتحققت الاختراعات، وأقيمت المصانع، وأقيمت المصانع، وتمكّنت أوروبا من أن ترسي أساس انتقالها إلى التطور الصناعي الحديث. ولكن في نهاية القرن 19م كان على القارة السمراء —وهي أصلا شعوبها تعاني التخلف الاقتصادي– أن تتلقى ضربة جديدة، فقبل أن تستعيد أنفاسها من أربعمائة عام من العبودية هبت عليها العاصفة الأمبريالية، ومن جيدي شل تطورها العادي، وفرضت تشويهات جديدة على اقتصادها[14].

ذهب الباحث الجزائري محمد الميلي، في كتابه 'فرانز فانون والثورة الجزائرية' إلى القول أنّ اعتناق فانون لمبادئ الثورة الجزائرية وأهدافها، كان عاملا أساسيا في تعقيد المهمة أمام كل باحث في شخصية فانون وفكره الثوري. وزاد في تعقيد هذه المهمة مجموعة من العوامل والتأثيرات يمكن إجمالها في ما يلي:

أولا: معظم الذين كتبوا عن فانون لم يكونوا مطّلعين على تاريخ الحركات الوطنية في الجزائر وعن اتّجاهاتها الفكرية، وقد أدى ذلك إلى الغفلة عن ربط ثورة نوفمبر بالجذور الفكرية التي تستند إليها، ممّا أدى إلى عدم العناية باكتشاف الخط الفكري للثورة الجزائرية.

ثانيا: كانت الثورة المسلحة في نوفمبر 1954م مفاجأة للجميع، وكان رد الفعل الفرنسي إزاءها هو إنكار أن تكون منبثقة من الداخل، لأنّ الاعتراف بمصدرها الداخلي؛ أي الاعتراف بالواقع، من شأنه أن ينسف كل الأرضية التي يستند إلى الاستعمار. وكان من نتائج هذا العامل أن دفع بالنقاش في اتّجاهات ابتعدت عن الطريق الأسلم، وهو طريق البحث في ماضي الحركات الوطنية الجزائرية الذي كان من شأنه أن ينير ثورة نوفمبر ويكشف عن حتميتها.

ثالثا: كثير من الذين بحثوا في فكر فانون، ركّزوا على كتاباته التي ظهرت في ظل الثورة الجزائرية، وبالتالي غفلوا عن إجراء مقارنة علمية وشاملة بين ما كتبه قبل انضمامه للثورة الجزائرية، وبين ما

كتبه بعد انضمامه لجبهة التحرير الوطني. وعليه، اعتبرت كتاباته خلال حرب التحرير، في نظر غالبية الباحثين والمؤرخين، البداية وهي النهاية التي توصل فكر فانون[15].

وتجب الإشارة إلى قضية هامة وأساسية، تتمثل في مدى تأثير الثورة الجزائرية في فكر فانون، بهدف فهم لماذا أثر فانون في هذه الثورة؟ فمادام أنّه تأثر بها وهضم الكثير من أفكار ومبادئ الحركة الوطنية الجزائرية، بل وأصبح بالفعل مواطنا جزائريا، وبالتالي سيصبح جزءا من هذه الثورة، مثل كثيرين من الجزائريين الذين أثروا في توجيهها وصياغة مواقفها المتباينة.

في هذه الحالة، يكون من الصعب، بل من المستحيل عمليا، «انتزاع» فانون من وسط التأثيرات التي تفاعل معها واعتبار كتاباته شيئا منفصلا، والاكتفاء بالكشف فقط عن مدى تأثيره هو في ثورة نوفمبر.

إنّ التركيز على هذه النقطة بالذات؛ أي سريان التأثير من فانون إلى الثورة الجزائرية دون محاولة الكشف عن الاتّجاه المقابل، يظل غير مفهوم عند الكثير من الجزائريين الذي عاشوا ثورتهم فكرا وممارسة.

وربما مرد ذلك الأمر يعود إلى أنّ أولى هذه العوامل هي أنّ فانون الكاتب والمفكر كان معروفا في أوساط اليسار الفرنسي قبل قيام الثورة الجزائرية، فكتابه 'بشرة سوداء، أقنعة بيضاء' صدر في باريس عام 1952م، وقدم له فرانسيس جونسون الذي كان من بين مريدي سارت آنذاك. وإذا كانت بعض أوساط اليسار الفرنسي محتكة في ذلك التاريخ ومن قبل ذلك التاريخ بالحركة الوطنية الجزائرية، فقد كانت تقتصر نشاطها على الدفاع عن المطالب السياسية لتلك الحركة دون أن تحاول الكشف عن جذورها ومحركاتها العميقة.

اشتهر فرانتز فانون، خاصة بعد ظهور كتابه الأول سنة 1952م، نظرا للنقاش الكبير الذي صاحبه، والواقع أنّ كتابات فانون كلّها من النوع الذي يثير النقاش الحاد والمثمر. ذلك أنّه يتفاعل مع ما يكتب بشدة، يتعلق بالفكرة التي يشرح؛ أي المبدأ الذي يعرض بعنف وبصفة كلية، ويكره ويعادي بعنف كذلك وبصفة كلية. فمثلا عندما يذكر في كتابه 'سوسيولوجيا الثورة'(Sociologie d'une révolution) ما رآه في المعامل والمزارع يدور من نقاشات بين الأوروربيين والجزائريين، حيث قال: «الرجال الجزائريون، في غالبيتهم، يتعرضون لانتقادات من طرف زملائهم الأوروربيين، أو بشكل رسمي أسيادهم. لا يوجد عامل أوروبي الذي، في إطار العلاقات الشخصية المتداخلة في الورشة، في المعمل او في المكتب، لا بد له من أن يطرح للجزائري أسئلة حول الطقوس: « أزوجتك محجبة؟ لماذا لا تقرر أن تعيش على النمط الأوروبي؟ لماذا لا تأتي بزوجتك إلى السينما، المقابلة، المقهى؟»[16] فهو هنا يتّخذ موقفا معاديا للبيض(الأوربيين) السارين من النمط المعيشي لأصحاب الأرض(الجزائريين)، واصفينهم بالرجعية والتخلّف، فلا مكان للموقف المتباين عند فانون، فهو عندما يعيش موقفا عنيفا مثل هذا ينفعل معه بجميع عواطفه، وكان هذا الانفعال الكلي ينعكس حتى على قراءته عندما يتلو للآخرين ما كتبه، فقراءته أبعد ما تكون عن الأسلوب «المنفصل» الذي يوحي بأنّ العلاقة بين القارئ وما يقرأ علاقة «موضوعية»، فكان حماسه لكتاباته ينفجر مع كل معنى وكل فكرة، بل وكل كلمة. كان يريد أن ينقل انفعاله إلى الكلمة، كان يريد من الكلمة أن تضمن نقل هذا الانفعال إلى القارئ. ومن هنا، كان ذلك الشعور الذي يلمسه القارئ لفكر فانون، بأنّ العلاقة بينه وبين ما يكتب تكاد تكون علاقة حسية.

فقد سجّل الذين كتبوا عنه تأثره بهيغل أو

ماركس، وبفرويد أو سارتر، أو حتى ميرلو بونتي، إلى آخر المدارس والتيارات الفكرية الغربية التي تأثر بها، رغم ما بينها من اختلاف. فلا شك أنّ وجود أصول غربية واضحة في كتابات فانون تساعد على «تقبّله» من طرف الفكر الغربي وتشحذ الاهتمام به، رغم ما فيه من عنف وثورية.

ولا يختلف إثنان في كون «أعنف» كتابات فانون صدرت في صحافة الثورة الجزائرية، خلال حرب التحرير، ضد اليسار الفرنسي، فقد كتب في 1957م مثلا، ثلاث مقالات حادة اللهجة بعنوان «المثقفون والديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية».

يقول مثلا في كتابه ‹سوسيولوجيا الثورة›: كل هذا الدم البريء الذي ينسكب في كل شرايين الأرض الوطنية قام بنهضة إنسانية جديدة ولا أحد ينكر ذلك. بعد أنّ تأكدت ‹لا تمد أبدا للعرب أبدا مليونا من أبنائها›، تعلن فرنسا اليوم أنّها لن تتخلى عن الصحراء أبدا ومصادرها. مثل هذه الحجج لا قيمة لها عند الجزائري. فهو يجيب بالفعل أنّ غنى دولة لا يشكّل عذرا لاضطهاده»[17].

نلاحظ أنّ فانون رغم أنّه ازداد بجزيرة لامارتينيك وترعرع في ربوعها، إلاّ أنّه اعتنق الثورة بكل تبايناتها، رغم عدم تشبعه بالثقافة العربية الاسلامية، كان مؤمنا بقضية الشعب الجزائري قبل قيام ثورته ومعتنقا لمبادئ ومشروع المجتمع.

وإذا كانت الجزائر وشعبها عرفا حياة سياسية نشيطة فيما بين الحربين العالميتين، فالفضل يعود إلى الاحتكاك بمثقفين ذو توجّهات غربية، وقد يكون فانون أحسن ممثل لهم.

كما أنّ فكر فانون سجّل تطورا مدهشا في ظرف أقل من عشر سنوات، ففي سنة 1952م ظهر كتابه الأول ‹بشرة سوداء، أقنعة بيضاء›، وفي سنة 1961م نشر كتابه الأخير ‹معذبو الأرض›(Les damnés de la terre) وهي سنة وفاته(أما كتابه 'من أجل ثورة إفريقيا'، الذي ظهر بعد وفاته، فهو مجموعة مقالات كتبها فيما بين ذلك، وظهر معظمها في صحيفة 'المجاهد'). ص.42 خلال هذه الفترة تطور فكر فانون من تمرد على الزنجة في نطاق الإقرار –بل والتبنّي– للإطار الفرنسي، إلى ثورة عميقة في نطاق حرب التحرير الجزائرية والتمسّك بمبدأ استقلال الجزائر، والإدانة الكاملة للاستعمار الفرنسي، إلى نوع من الأممية على مستوى العالم الثالث.

إنّ كتاب 'معذبو الأرض' الذي ظهر في فترة حاسمة بالنسبة لتاريخ العالم الثالث، فقد شهدت الستينات تحقيق استقلال الجزائر، الذي كان بمفرده معجزة هزت الدنيا وشغلت الناس. وفي الوقت نفسه تميّزت الستينات بتحسس العالم الثالث للمشاكل الاقتصادية التي لم يكن بوسع الاستقلال السياسي الشكلي أن يحلّها.

لقد جاء كتاب 'معذبو الأرض' في فترة مناسبة إذن، لأنّه استطاع من خلال التجربة التي حصلها مؤلفه في ظل الثورة الجزائرية أن يطرح قضايا تعميق الثورة، والمظاهر السلبية للاستقلالات الشكلية، وأن يكشف النهب الاستعماري لثروات العالم الثالث، وأن يفعل ذلك بما عرف عنه من لهجة حادة وأسلوب يعمل كالمبضع. ونظرا لحاجة العالم الثالث إلى عمل فكري ثوري يصدر عن صفوفه، فقد أولى 'معذبو الأرض' ذلك الاعتبار الخارق. بينما إهمال تسليط الضوء على مدى تأثير الثورة الجزائرية في فانون، فهو يرجع إلى عامل أساسي يرتبط بطبيعة الثورة الجزائرية وطابع صراعها مع الاستعمار.

فمن الأسس النظرية التي استنفذت إليها الثورة الجزائرية، هو الوجود المتميّز للشخصية الوطنية

الجزائرية، ووجود الدولة الجزائرية المستقلة، السابق على الاحتلال الفرنسي؛ أي قبل 1830م. ولذلك ما انفكت الثورة الجزائرية تؤكد في الكتابات الصادرة عنها خلال حرب التحرير، إنّ نوفمبر 1954م امتداد ووصل وتجديد لما كان عليه الأمر من قبل 1830م: وذلك يعني الإلغاء الكامل لفترة الاحتلال الاستعماري.

لكن الفكر الغربي لا يستطيع أن يلغي الاستعمار دفعة واحدة من تاريخه، بل هو يحاول تبرير الاستعمار بالترويج لفكرة «حتمية الاستعمار» من جهة، ولفكرة «إيجابية الاستعمار» من جهة أخرى. و»حتمية الاستعمار» الناتجة عن «قابلية المتخلفين للاستعمار» (وهي فكرة جازت على كثير من أبناء الدول المتخلّفة ورددها أثناء الاستعمار كما لو كانوا عثروا على كنز في حين أنّ أصولها الاستعمارية والعنصرية في الفكر الغربي واضحة)– هذه الفكرة تبرر الاستعمار أو مظالمه الأولى. وفكرة «إيجابية الاستعمار» تهدف إلى تبرير استمراره، أو بعبارة أدق إلى تبرير مقاومته لحركات التحرير واضطهاده للشعوب الطامعة لنيل الاستقلال.

وعلى هذا الأساس نجد أنّ الذين سلموا – من مثلي الفكر الغربي– بوجود الشخصية الوطنية الجزائرية خلال حب التحرير، حاولوا أن يجعلوا تكوينها حديثا ومرتبطا في الوقت نفسه بالوجود الاستعماري. ولم نجد فيما أطلعنا عليه من كتابات أنّ باحثا غربيا في تاريخ الجزائر الحديث حاول أن يتعرّف على مدى الدور الذي قامت به في التهيئة لمقاومة الاستعمار، تيارات وطنية نبعت من داخل المجتمع، بعيدة عن أيّ تأثير خارجي.

فعلا لقد جلب الاستقلال للرجال المستعمرين جب الضرر المعنوي والكرامة الخالصة، لكن لم يسمح لهم الوقت بعد لتكوين مجتمع وإنجاز وتأكيد القيم. ومنه، فقد كان فانون يأمل مستقبلا زاهرا للثورة الجزائرية، التي ردد أكثر من مناسبة أنّها ستدوي في العالم الثالث والعالم أجمع، وذلك بتحقيق أبرز أهدافها المتمثلة في تكريس مبدأ تكافؤ الفرص بين أفراد الشعب الجزائري في ظل عدالة اجتماعية وأخوة شاملة بين أفراد المجتمع الذي يتقاسمون هموم الوطن الواحد في ظل التاريخ والمصير المشتركين.

◄ خاتمة

حاول فرانتز فانون الإجابة عن سؤال كبير وهو كيف بإمكاننا أن نصنع ثورة؟ وهو السؤال الذي سيطر على جل تفكيره منذ اعتناقه لمبادئ الثورة الجزائرية، آملا في أن يشهد تغييرا ثوريا حقيقيا. وهكذا حاول فانون لعب دور حاسم في التنظير للثورة الجزائرية نموذج للثورات في الدول الآفروآسيوية. وهنا تظهر عفويته في تكوين الطليعة السياسية والنضال الجماهيري

لقد آمن فانون أنّ الثورة الجزائرية لم تكن فقط قد نجحت في إدخال هذا التعديل الجذري على نظرية اليسار الفرنسي، الذي كان عضوا فيه، ولكنّها كانت قد نجحت في بلورة بعض المفاهيم وخطط المستقبل.

بمعنى آخر، إنّ الثورة الجزائرية في تحليلها لدور الجزائر في مواجهة الاستعمار والأمبريالية، وفي تعبئتها لطاقات الشعب خلال حرب التحرير، لم تكن تقتصر على التذكير بالجانب التاريخي من قضيتها، الذي يتمثل في الوجود السابق على الاستعمار وفي استمرار الشخصية الجزائرية، بل كانت في ذات الوقت تلفت النظر إلى مدارات الصراع بالنسبة للمستقبل.

تأثر فانون بحركية الثورة الجزائرية أيّما تأثر، فأدرك مدار الصراع وعرف أنّ كفاح الشعب الجزائري يعرض للخطر مصالح استراتيجية وسياسية اقتصادية ضخمة، وأنّ على هذه الثورة أن تواجه نظاما لا

يتردد في تعبئة جميع قواه من أجل القضاء عليها.

كما تيقّن واعتنق فكرة أنّ الشعب الجزائري ليست أمامه أيّ طريق لاسترجاع حقوقه إلاّ طريق الكفاح المسلّح الذي يجب أن ينتهي بالقضاء على النظام الاستعماري.

رأينا ذلك التحول في فكر فانون، وهو تحول ثوري، وهو ناتج عن تأثير الثورة الجزائرية فيه، عندما عايش معاركها وأصدائها المدوية. فكان قد تعرّف أثناءها على جوانب كثيرة من القضية الجزائرية، وأتيح له أن يشاهد عن كتب ما تعرّضت له الثقافة الوطنية الجزائرية من مسح وتشويه، وأن يلحظ في نفس الوقت الدور الذي لعبته هذه الثقافة في تحريك الثورة المسلّحة.

بل راح يردد في كتاباته دائما، بأنّ الانغماس في الماضي هو شرط الحرية ومنبعها، وأنّ النهاية الطبيعية لإرادة الحرية هذه هي التحرير الكامل للتراب الوطني.

▶الهوامش والإحالات

1- الميلي محمد، فرانز فانون والثورة الجزائرية، دار الثقافة، بيروت، ط.2، 1980، ص.ص. 11-10.

2- المرجع السابق، ص.ص. 13-12.

3- وهو كتاب ألّفه فرانتز فانون سنة 1952م، حيث حاول فهم علاقة الأسود والأبيض بكل قيمته الإشراقية؛ ذلك أنّ العنصرية، على الرغم من الفظاعات التي ملأت بها العالم، تبقى مسألة مطروحة في المستقبل أيضا.

4- إيمي سيزار(Aimé Césaire) كاتب إفريقي شارك في الحركة الفكرية والأدبية الإفريقية وساعد في تحرير إفريقيا من الاستعمار الأوروبي.. وقد أسس هو وجماعة من الشعراء الأفارقة ما عرف بالأدب الأسود.. حاول سيزار أن يرد الاعتبار للإنسان الأسود، لأنّه كان من أكثر الأشخاص تضررا حيث تعرضوا للاضطهاد والعبودية معتمدا في ذلك على أساس فلسفي، وهو أنّ الإنسان الأسود لعب دورا هاما في الثقافة الأوروبية. حيث قال الشعر في الفترة الواقعة ما بين 1930م-1950م التي تعد واحدة من أخصب الأزمنة التي عرفته الشعر الحديث في الغرب بعد سيطرة الرواية. وهو شاعر خصيب الخيال، غزير الإنتاج وقد تميّزت أعماله الشعرية والمسرحية بالحنين الدائم إلى أرض إفريقيا. صدر لإيمي سيزار ثمانية دواوين شعر هي: دفتر العودة إلى الوطن(1930)، الأسلحة الخارقة(1948)، شمس مقطوعة العنق(1948)، جسد هالك(1960)، الأغلال(1961)، ساقية(1976)، بيان (1961)، أنا الطارق(1982)، كما صدرت له أربع مسرحيات هي: مأساة الملك كريستوف (1963)، الكلاب تصمت!(1947)، موسم في الكونغو(1966)، العاصفة(1968)...

5- المرجع السابق، ص.ص. 21-17.

6- Fanon Frantz, Peau noire, masques blancs, les éditions du seuil, Paris, 1952, p.30.

7- ونحن نقصد من عاصروه أمثال دوبريه وماركيوز.

8- ووديس جاك، نظريات حديثة حول الثورة، ج.1 الثورة والطبقات. مدخل لقراءة نظريات فانون، دوبريه وماركيوز، تعريب: محمد مستجير مصطفى، دار الفارابي، بيروت، 1978، ص.ص.39-37.

9- Fanon Frantz, Pour la révolution africaine, écrits politiques, Editions la découverte, Paris, 2001, p.54.

10- المرجع السابق، ص.ص. 47-40.

11- Fanon Frantz, Pour la révolution africaine, écrits politiques, Op. Cit.,p.87.

12- ووديس جاك، نظريات حديثة حول الثورة، ج.1 الثورة والطبقات. مدخل لقراءة نظريات فانون، دوبريه وماركيوز، ص. 48.

13- إنّ أغلب كتابات فرانتز فانون، خاصة في جريدة 'المجاهد'، خلال حرب التحرير، أظهرت اعتناق فانون لمبادئ الثورة الجزائرية، حيث أبدى فيها موقفا واضحا ومساندا لها، رغم بعض المواقف المتذبذبة للحزب الشيوعي الذي كان عضوا فيه،، فقد أبدى، في أكثر من مناسبة، إدانته لليسار الفرنسي قبل الثورة وأثناءها.

14- ووديس جاك، نظريات حديثة حول الثورة، ج.2 فانون والثورة في إفريقيا، تعريب: محمد مستجير مصطفى دار الفارابي، بيروت، 1978، ص.ص.28-23.

15- الميلي محمد، فرانز فانون والثورة الجزائرية، ص.32.

16- Fanon Frantz, Sociologie d'une révolution, petite collection Maspero, N° 28, première édition, Paris, 1959,p.22.

17- Fanon Frantz, Sociologie d'une révolution, Op. Cit. p.13.

العلاقات المباشرة بين الجزائر والولايات المتحدة في الستينات

ترجمة أ.د علي تابليت. معهد الترجمة.
جامعة الجزائر - 1 -

مدخل :

هذا البحث YahelSharabi ; Direct Relations BetweenAlgeria and the United tates in 1960s, in The Maghreb Review, vol.36,I, 2011 ; 22-39. يصف الطريقة الضمنية لسياسة الولايات المتحدة حول الجزائر، ويدرس كيف تأثرت العلاقات الجزائرية–الأمريكية بالنزاع في الشرق الأوسط في الستينات. كما يدرس البحث مرحلة هامة في تطور الجزائر إلى دولة مستقلة.. وخلال هذه الفترة ، فإن الدولة الفتية أجبرت على إيجاد جواب لثلاث تحديات آنية التي كانت تواجهها. التحدي الأول يتضمن شكل الصورة الوطنية للجزائر. التحدي الثاني كان الاختيار الأمثل لإقامة نظامها السياسي وسياستها الاجتماعية والاقتصادية مابعد الاستقلال، التحدي الثالث أن تثبت موقعها كأكبر دولة وكعامل دبلوماسي تهيمن في العلاقات مع الولايات المتحدة، وإن كان مثل هذا النشاط غير ظاهر خارجيا.أصبحت الجزائر مستقلة في جويلية 1962 بعد 132 سنة من الاحتلال الفرنسي. استيقظ الشعور الوطني الجزائري بأناة ، ولم يتسارع إلا في فترة الخمسينات أثناء يقظته في «شغب» ماي 1945 في مدينة سطيف، ومن الاستقلال وعلى امتداد الستينات، فإنه كان على الجزائر أن تتعامل مع تحدي إقامة نظام سياسي سيادي مع العديد من النماذج مثل جيرانها، المغرب وتونس، فالجزائر كانت ملزمة برفع تحدي إعادة بناء مجتمع ممزق من اللاجئين وبناء نظام اقتصادي جديد، ذلك أن اقتصادها كان مرتبطا بالنموذج الفرنسي لسنوات عديدة، وعليه، فإن السؤال المطروح على الجزائر ما إذا ربطت علاقات دبلوماسية مع قيادة الغرب ، الولايات المتحدة، كمحاولة لبناء اقتصادي منعش حيث يحدث استردادا.والسؤال النهائي المطروح: كيف تأثرت علاقات الجزائر مع الولايات المتحدة بسبب موقفها لأجل بلدان الكتلة الشرقية خلال الحرب الباردة؟

◄ بدايات الستينات: قبل استقلال الجزائر

انتقد السيناتور J.F. Kennedy خلال الحملة الانتخابية الرئاسية للولايات المتحدة بشدة الأحداث الجارية في الجزائر. وفي جوان 1960، وبينما كان كينيدي في قافلة الحملة التقى بمسؤول إسرائيلي إداري في واشنطن Yo'cov Herzog، إذ كتب الأخير أنه في حديثهما أظهر كينيدي أنه على علم تام بمشاكل المنطقة وأنه تحادث مع النشطاء الإسرائيليين في إفريقيا بوجه عام، وأشار هيرزوق أنه : في العديد من المرات، وبطلب من السفير الفرنسي في واشنطن Elefant تحدثت مع كينيدي حول القضية الجزائرية ... وبعد مدة وصل ديغول إلى السلطة وقلت لكينيدي بما أن الشعب الفرنسي سمح ببعض الوقت لديغول لحل المشكلة، فإني أسمح لنفسي أن أقترح أنه عليه أيضا أن يتجنب البيانات العمومية التي قد تجعل الأمور معقدة لديغول، وأجاب انه يتكلم وكأنه السبب، وعلى ضوء جهود ديغول، وأنه ليس من المناسب أن يقوم بإصدار بيانات إضافية (يعني كينيدي).[1]

بعد أداء كينيدي اليمين كرئيس أمريكي الخامس والثلاثون في جانفي 1961، فإن طريقة انتقاده لفرنسا اصبحت السياسة الرسمية للولايات المتحدة للمنطقة، وذلك من أجل مصلحة دعم فرنسا في الانفصال عن الجزائر، والتي ستصبح دولة مستقلة، والتي قد تحمى من السقوط في ايدي الاتحاد السوفياتي . وكان التفكير إذ ذاك أن الجزائر ستصبح رأس الجسر للنفوذ الأمريكي في البلدان المغاربية وكذلك القارة الإفريقية بكاملها. [2]

انعقد المؤتمر الجهوي بين 31 جويلية و3 أوت 1961، بنيقوسيا لرؤساء بعثات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط بحضور كبار صناع السياسة من كتابة الدولة للخارجية، والمديرين المحليين لكتابة الدولة للدفاع ووفود عن وسائل الإعلام ومصالح الدعاية، إذ بلغ عدد الحاضرين 150 شخصا من 21 بعثة أمريكية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ، وكان الهدف الوحيد للمؤتمر توضيح الأهداف السياسية الخارجية للإدارة الأمريكية الجديدة الموضحة من نائب كاتب الدولة للخارجية Chester Bowless وأوضح باولس في البداية تحديد الجيشان الأخير في النظام العالمي والذي أدى إلى تغييرات في السياسة الخارجية الأمريكية.

ويعود التغيير الأول إلى بروز الوطنية في آسيا وإفريقيا ، والثاني النزوع نحو الحضور الكبير للصين والرقابة في آسيا ، والثالث الإنجازات العلمية المؤثرة للاتحاد السوفياتي، والتي أصبحت نقطة بؤر للعالم الثالث ، والجاذبة للبلدان السائرة في طريق النمو , والتغيير الرابع التطور الجديد، للأسلحة الضخمة من الأسلحة النووية التي لا تصدق.[3]

وبعد شرح هذه التطورات المثيرة ، واصل باولس تعريفه بالخطوط العريضة للسياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. والأهداف هي كالتالي:

1 إقامة جيش فعال وقوي كبديل لمبدأ الثأر الضخم.

2 إعطاء أهمية كبرى للقضايا السياسية في مختلف مناطق كل بلد.

3 اجتناب ما يؤدي إلى الضغط على المواقع المضادة للسياسة الخارجية الأمريكية للدول الصديقة، إذ ستدعم الولايات المتحدة مبدأ تقرير المصير ولو أن هذا يعني السير ضد حلفاء الكتلة الغربية للولايات المتحدة.

4 جعل برامج المساعدات الأمريكية للدول

النامية طويلة الأجل مع التأكيد على هدفها لرفع مستوى الحياة في البلدان المتلقية بدلا من الحرب على الشيوعية.[4]

دعمت السياسة الخارجية الأمريكية بين 1958 و 1960، المبدأ أن القضية الجزائرية هي قضية فرنسا وعليها أن تحلها بنفسها، ومهما يكن، فإنه عندما دخل كينيدي البيت الأبيض ، فإن السياسة الخارجية الأمريكية لم تكن مثل متفرج.وكان رأي كيندي أنه على الولايات المتحدة أن تجد حلا مع فرنسا، إذ شرح بعض الباحثين أنه لوحظ فرق في ميزة الإدارتين ، فبينما كانت إدارة آيزنهاور تعمل من أجل الاتصال، والتي لم تنجح فيها، فإن إدارة كينيدي عملت واستهلت ولم تتردد أن تبتكر.[5] فالتغيير ساعد على الضغط على فرنسا وعجل في حل النزاع الجزائري.

حصل اللقاء الأول في تونس، بين مساعد كاتب الدولة للخارجية لإفريقيا William Menenine ومسؤولي الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية برئاسة إثنان من المسؤولين الجزائيين ، وهما أحمد يزيد، وزير الإعلام [6] وسعد دحلب، وزير الشؤون الخارجية ، ووزير الشؤون الخارجية التونسي، الصادق لمقدم ، الذي كان حاضرا. وقد ورد في الصحافة الفرنسية أن ذلك اللقاء كان يوما مشهودا، ومما ورد فيها: «خطوة كبيرة نحو الاعتراف بالحكومة الجزائرية من حكومة الولايات المتحدة.»[7] وبعد عدة أيام أعرب مسؤولو الإدارة الفرنسية عن اهتمامهم ، وتخوفوا من أن تقارير الصحافة حول اتصالات الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية – الأمريكية خلقت انطباعا من أن الولايات المتحدة قد اعترفت بالحكومة المؤقتة كناطق رسمي للجزائريين، بل أبعد من ذلك، كحكومة جزائرية. حتى قبل أن تقوم الحكومة الفرنسية بذلك.[8] وعليه أصدر كاتب الدولة للخارجية Dean Rusk شخصيا بيان جاء فيه «لاتغيير لأي نوع ... تطور في سياسة الولايات المتحدة تجاه[9] GPRA ومن ثم ، تركت الولايات المتحدة حل القضية الجزائرية لفرنسا، وذلك استجابة لطلب ديغول، وقد اتخذت الخطوات الدبلوماسية في وقت واحد مما جعل فرنسا تشرع في إجراءاتها السياسية الخاصة(بمنح) السيادة للجزائر.

ساعدت الولايات المتحدة الثوار بتقديم الطعام والمنح الدراسية من خلال مؤسسة فورد Ford في حين جرت محادثات داخل كتابة الدولة للخارجية حول إرسال خبراء لمساعدة الحكومة الجزائرية المؤقتة في هيكلة اقتصادها، من جهة، فإن كتابة الدولة للخارجية لم تكن ترغب أن يعمل الخبراء الأمريكيون في المجال الاقتصادي الجزائري، بينما كانت المحادثات تجري بين ممثلي فرنسا وجبهة التحرير الوطني أثناء توقيف النار التي لازالت قائمة.

ومن جهة أخرى، اعتبرت كتابة الدولة للخارجية إرسال المساعدة والاقتصاديين عن طريق مؤسسة فورد شيء جيد، وهي الخطوة الصحيحة التي يمكن أن تساهم بشكل كبير دون تحول الجزائر نحو الكتلة الشرقية ونفوذ مصر عندما تنال استقلالها. اضف إلى ذلك، أنهم كانوا واعون بالحقيقة أنه منذ نهاية 1959، فإن شركة النفط لخدمة المدن الإفريقيةThe AfricanCities Service Petroleum Corporationهي شركة أمريكية لها فرع للتنقيب عن النفط في الجزائر، وذلك بترخيص من فرنسا وتمويل أمريكي الذي يضم ضمانة إضافية يقدر تقديرها إجماليا بقيمة $9,750,000 [10] علاوة على ذلك، تشير الأرقام أنه بعد إعلان الاستقلال كان هناك قرابة مليوني لاجئ جزائري وأن الجيش الأمريكي قدم 40.000 خيمة للمتشردين [11] وأنه لمن المهم الإشارة أنه لكل عمل أو مبادرة تؤخذ من الولايات المتحدة لفائدة الجزائر، فإنها تعلم فرنسا، بل وحتى أنها تطلب إذنها، ونفس الشيء

خلال السنوات القليلة الأولى من استقلال الجزائر، وتتأكد الولايات المتحدة من أخبار فرنسا على كل المستويات عن كل عمل تقوم به في الجزائر[12]

أخيرا، وفي منتصف فيفري 1962، أعلنت الولايات المتحدة عن تجديد المحادثات بين جبهة التحرير الوطني وممثلي الحكومة الفرنسية وهنأت كلا الطرفين، إنها لشجاعة كبرى للشعب في كل مكان من العالم، وللذين يؤمنون بالحل السلمي للنزاعات. فالولايات المتحدة، التي تدعم دائما حلا سلميا حول النزاع الجزائري، إذ ترحب بشكل كبير بهذا الاتفاق، الذي أصبح ممكنا بواسطة الدبلوماسية والاعتدال الواضح من كل المعنيين.[13] وفي نفس الوقت، فإن الوزير الجزائري للاقتصاد ، بشير بومعزة، أعلن أن «الولايات المتحدة في المقدمة وتدعم الإصلاحات الفلاحية».[14]

◄ بداية العلاقات الدبلوماسية

أقيمت سفارة الولايات المتحدة بالجزائر في 29 سبتمبر 1962، وقدم السفير الأمريكيWilliam J, Porter، اعتماده وأكدها بن بلة في 29 نوفمبر 1962،وخلال تولي بورتر لمنصبه تكونت طبيعة العلاقات الجزائرية–الأمريكية، وذلك في محاولة للحفاظ على العلاقات المتذبذبة بين البلدين.[15]

وفي الرابع والعشرون من جويلية من عام 1963، قبل الرئيس كينيدي أوراق اعتماد الشريف قلال ، أول سفير جزائري إلى واشنطن، ويعد قلال، أحد مساعدي بن بلة، وهو من مواليد 18 أوت 1932 بقسنطينة ودرس في بريطانيا، وعمل ممثلا لجبهة التحرير الوطني في نيو دلهي من 1957 إلى 1962. جمع مساعدة مالية ودعما سياسيا للثورة الجزائرية. وفي جانفي 1962، عين قلال ممثلا لجبهة التحرير الوطني في بريطانيا العظمى إلى غاية يوم استقلال الجزائر في 5 جويلية 1962. [16]وكتب في رسالة اعتماده كسفير جزائري إلى الولايات المتحدة، مايلي: «لا يمكن لدولتين مثل الولايات المتحدة والجزائر إنكار أحدهما الآخر ومن الطبيعي وانطلاقا من مصلحتهما المشتركة أن يتقاربا أكثر، وهما يقيمان علاقات سياسية، واقتصادية وثقافية مع بعضهما البعض وأنهما ينضمان أكثر فأكثر مبادلات مثمرة بينهما ولفائدة السلام العالمي والتفاهم» [17]

إضافة إلى أوراق اعتماده، سلم قلال رسالة شخصية إلى الرئيس كينيدي من الرئيس بن بلة والتي ورد فيها:» إنها رغبتي الشديدة في كسب علاقات اجتماعية والصداقة المتاحة بين البلدين.» [18]

عين بن بلة عبد العزيز بوتفليقة، الذي كان يبلغ عمره آنذاك 28 سنة، بحيث كان بن بلة يتولى المنصب بنفسه من 14 أفريل 1963، عند اغتيال محمد خميستي بالجزائر.[19]من جهة، اعتبر بورتر أنه من الضروري تعيين بوتفليقة كوزير للخارجية، وهو ما يؤدي إلى استقرار نظامي في العلاقات الجزائرية مع الجماعة الأوروبية. ومن جهة أخرى، لم يعتبر بورتر بوتفليقة شخصيا كشخصية إيجابية في الغرب، وعليه، وطبقا لمبدئه الإيديولوجي ، فإن هدف الجزائر كان إقامة مجتمع اشتراكي حيث التعريب والإسلام يشكلان أساس البلاد. وكما يراه، فإن الإصلاح الزراعي كان ضروريا، وأن الحكومة الجزائرية عليها أن تنفذ هذه السياسة.[20] وبعد خمسة أيام من اغتيال الرئيس كينيدي، أجرى كاتب الدولة للخارجية Rusk Dean محادثة مع وزير خارجية الجزائر، ولاحظ راسك خلال اللقاء أن الرئيس الأخير كينيدي له اهتمام خاص بالجزائر وذلك من الوقت الذي كان فيه سيناتور. اعلن بوتفليقة رسميا عن عميق أسى بن بلة والشعب الجزائري عن الوفاة المبكر للرئيس كينيدي، الذي عمل على إيجاد روابط الصداقة والود بين البلدين، ودارت محادثاتهما حول العلاقات الجزائرية–المغربية وكذا الجزائرية الكوبية والروابط

الجزائرية–الأمريكية. أشار بوتفليقة ان الجزائر وفية لكل تعهداتها القائمة بين البلدين ، إضافة إلى ذلك، عبرت الحكومة الجزائرية عن أملها أن العلاقات الجزائرية–الأمريكية يجب أن تستمر في ظل إدارة الرئيس [21] Lyndon Baines Johnson .

أعرب راسك عن تفهمه للصعوبات التي تواجه الجزائر بلد مستقل، واكد لبوتفليقة أن الولايات المتحدة ستعمل كل ما في وسعها لمساعدة الجزائر في كل القضايا التي تتصل بالجزائر وبجارتيها، وصرح انه من الضروري أن تعيش الجزائر في سلام مع المغرب وتونس من أجل المغرب العربي، أما عن علاقة الجزائر بكوبا ، فقد سأل كاتب الدولة للخارجية أن بن بلة قيد تعاطفه المفتوح للحركة الثورية الكوبية برئاسة كاسترو، وأشار راسك إلى عاملين يهمان معارضة الولايات المتحدة لنظام كاسترو. العامل الأول أن العلاقات العسكرية الكوبية مع الاتحاد السوفياتي خلال الفترة التي كانت فيها الولايات المتحدة مصممة على إبقاء التفوق العسكري على الاتحاد السوفياتي. العامل الثاني التدخل الدولي المباشر لكاسترو ضد المصالح الأمريكية في أمريكا اللاتينية . وعلى سبيل المثال، فإن الولايات المتحدة شجبت المساعدة العسكرية الكبيرة المقدمة من كاسترو إلى فنزويلا. واضاف راسك أنه يود أن» يحث الجزائر ألا تلتحق اليوم بشبكة كوبا» [22]

مورس الضغط الأمريكي على الجزائر بسبب سياستها الوطيدة مع بلدان الكتلة السوفياتية، خاصة الاتحاد السوفياتي، يوغسلافيا والصين الشيوعية، وبسبب هذا الضغط الشديد والتقرير السنوي عن السياسة الأمريكية في الجزائر إلى الكونجرس من قبل السفارة الأمريكية بالجزائر، أعلنت السفارة الجزائرية بواشنطن أن هذا الضغط كان في اتجاه متناقض مع البيانات الرسمية لكتابة الدولة للخارجية التي اعترفت بالسياسة المتضاربة للجزائر، فهذه البيانات ، من وجهة نظر الجزائر، هي جزء من الإيديولوجية التي تخدم المصالح الأمريكية في الحرب الباردة، فقادة الولايات المتحدة اعتبروا الجزائر كبلد يزعج سياسة الخارجية الأمريكية ومصالح الغرب في إفريقيا.

اعترفت الجزائر بأن المساعدة الأمريكية جد مفيدة في تحسين قوتها المالية والسياسية وأنها ترحب دائما بذلك، كما أعلنت الجزائر أنها ترغب في العمل على أساس علاقات ودية مع أي بلد مادامت السيادة الوطنية محترمة. اعتبرت الجزائر التقرير السنوي الأمريكي للكونجرس حول العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية بين البلدين كشيء يمكن أن يؤدي إلى إلحاق ضرر بعلاقاتهما السلمية والودية : الجزائر ، ثم الجزائر سيدة مصيرها وقدرها، وليست لها رغبة بأن تصبح جزء من الحرب الباردة أو تخلق ظروف التي تؤدي إلى خطر استقلالها الباهض».[23]

وفي منتصف جوان 1964، عقد لقاء بين قلال وراسك، ودار حول جولة بن بلة للاتحاد السوفياتي في بداية ماي من نفس السنة ، بعدها تحادثا حول الوضعية الداخلية للجزائر، وتناولا طبيعة العلاقات الجزائرية–الأمريكية، وصرح قلال «أنه لسوء الحظ أن العلاقات الجزائرية —الأمريكية لم تحسن الوضعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تلت حرب استقلال الجزائر، فالبرامج كانت طموحة لكنها لم تنفذ في الميدان ولم تساعد الجزائر في التصور. أشار قلال إلى نموذج تطوير النظام التربوي، مقارنا الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، واسترسل قائلا أن الولايات المتحدة أدعت أن الجزائر لم تشيد أي برامج تطوير التربية، وأنها تدور في حلقة مفرغة والتي لم يسمح لها بتنفيذ الأهداف الأمريكية وأنها لا تطور برامجها لتنمية التربية بدون مساعدة خارجية. ومهما كان، فإنه خلال هذه الفترة ، فإن الاتحاد السوفياتي اختارالطلبة الجزائريين المتفوقين لتحقيق هذه الخطط، ومع نصف سنة، وافق على بداية تضمين الخطة

للتعليم.[25] وهكذا فإن الولايات المتحدة لم تتخذ مبادرة عملية، فإن الاتحاد السوفياتي وصل إلى عين المكان وشرع في التطبيق فيما كانت تخططه الولايات المتحدة.

أعرب قلال عن عميق أسف قادة الجزائر، وخصوصا بن بلة، ان التمرد البربري في منطقة القبائل كان من تحريك وتشجيع وكالة المخابرات المركزية، وأشار قلال أنه كان هنالك لقاء بين أعوان وكالة المخابرات المركزية والمعارضة الجزائرية في زوريخ خلال أوت 1962.لبن بلة أن يشك بأن الولايات المتحدة أصبحت مناهضة للجزائر ولا تستجيب لحل مشاكلها في حين طلبت الولايات المتحدة وسائل الإعلام الجزائرية التوقف عن معاداة أمريكا، وهكذا أصبحت الجزائر لاتثق في الولايات المتحدة ولا ترى أن واشنطن تساعد بشكل واف في حل مشاكل الجزائر. ومن ثم ، فإن بن بلة غير مقتنع بالعلاقات بين البلدين. طلب راسك من أن تهجم الجزائر على CIA يجب أن يتوقف لأن ادعاءاتهم باطلة . زيادة عن ذلك، فالجزائر في حاجة أن تقاوم انتقادات السياسة الأمريكية حول كوريا وفيتنام التي أساءت للعلاقات بين البلدين.[26]

من ناحية ثانية، قررت إدارة كينيدي ألا تتخذ أي خطوات ملموسة ومباشرة الحكومة الجزائرية مادام هدفها يسبب بعض التوازن في الجبهة الدبلوماسية من خلال التأكيد على الأعمال الإيجابية التي انجزتها الولايات المتحدة في الجزائر عبر برامجها للمساعدة. ويفضي التفكير في الإدارة الأمريكية ، إلى دراسة دقيقة للعلاقات بين البلدين، والتي تؤدي هذه الدراسة على المدى البعيد، أن الجزائر ستصبح معتدلة فورا في دعمها لكوبا والاتحاد السوفياتي .ومع ذلك، فإن الجزائر تفضل الاشتراكية لبناء مجتمعها، وفي التطبيق الواقعي في علاقاتها الدولية، فإنها تساير سياسة إيجابية في عدم التدخل، كما تفعل معظم بلدان العالم الثالث.

◄ تأثيرات الاشتراكية

تبادلت الجزائر وكوبا في بداية 1963، السفيرين، وهو ما أدى إلى لقاءات عديدة وهامة بين المسؤولين الجزائريين والكوبيين. [28] وفي بداية 1963، حل بالجزائر الوزير الكوبي للصناعة ErnestoChe Guevara لمحادثات، واستغرقت زيارته ثلاثة أسابيع زار خلالها منطقتي قسنطينة ووهران وكذا مؤسسات اشتراكية جزائرية، وعقد لقاءات مع العديد من وزراء الحكومة. وفي حديث له مع بن بلة في 18 جويلية 1963،قارن شي غيفارا تحرير كوبا بالثورة الجزائرية. إضافة إلى ذلك تناقش مع المسؤولين القضايا الاقتصادية والاجتماعية ذات التأثير على البلدين.[29] وفي نهاية السنة، وعند اندلاع حرب الحدود مع المغرب، قدمت كوبا دعما ضخما للجزائر وأرسلت لها 22 دبابة بعتادها وطاقمها المقيم في قاعدة بلدة Badiyo جنوب سيدي بلعباس. اكد شيغيفارة لبن بلة أنه فتش كل من الخردوات والملاك(بكسر الميم) في كوبا متأكدا على أنها جاهزة الاستعمال لحرب الصحراء عند الحاجة. [30]

عقد لقاء آخر مهم في منتصف أفريل 1964، خلال زيارة بن بلة إلى الاتحاد السوفياتي للقاء Nikita SergeyvichKhrushev الأمين العام للحزب الشيوعي، واستقبلت الزيارة بتغطية إعلامية واسعة، وتحادث الزعيمان حول التزامهما بمواصلة العلاقات الودية والتعاون الموجود بين البلدين في حين لم تلتزم الجزائرفي حد ذاتها حصريا مع الاتحاد السوفياتي أو الصين، وبرغم ذلك، واصل بن بلة رحلته إلى بلدان أخرى للكتلة الشرقية والتقى بالمسؤولين في بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا، بعدها زار مصر.[31] كانت الجزائر تتجنب دائما اتخاذ موقف أحادي مع أي بلد من بلدان الكتلة الشيوعية، لأنها تلقت أسلحة كبيرة ومساعدة اقتصادية من كل من

الصين والاتحاد السوفياتي ، وكذا من البلدان الأخرى في فلك الكتلة السوفياتية.[32] واعتقد الأمريكيون أن المصلحة السوفياتية في الجزائر ناتجة أولا وفي المقام الأول عن التوتر في العلاقات بين الصين الشيوعية والاتحاد السوفياتي.[33] زعيم آخر من الكتلة الشيوعية الذي زار الجزائر هو الرئيس اليوغسلافي الذي حل بالجزائر في أفريل1965، وبقي في الجزائر عدة ايام إلى ما بعد الزيارة الرسمية. وفي استقبال بن بلة الرسمي لتيتو ، فإن الأخير تحدث ضد العدوان الأمريكي في فيتنام الشمالية، وطلب انسحاب السفير الأمريكي من حفل الاستقبال، وبرغم هذه الحادثة، فإن الزيارة مرت بدون عائق. استقبل تيتومعظم الوزراء الجزائريين ، بما فيهم نائب الرئيس ووزير الدفاع، هواري بومدين. نضم تيتو دورته من أجل تعزيز الموقف اليوغسلافي كبلد أساسي على المستويين: المستوى الأول، تجاه العالم الثالث، في محاولة منه لإظهار ان يوغسلافيا كانت البلد الذي ساعد البلدان الأخرى في حروبها للتحرر من نير القوى الكبرى، وسعى التأكيد على أنه ليس الصين الشيوعية ولا الاتحاد السوفياتي هما اللذان قاما بدعم العالم الثالث. والمستوى الثاني يتعلق بالنضال الداخلي في الإطار الشيوعي. وكان هدف تيتو ان يبلور التفاصيل الأخيرة لمؤتمر باندونغ الثاني، المبرمج في نهاية 1965، بالجزائر.[34] وبرغم ذلك، فإن بعضا من المسؤولين في موسكو كانوا غير واثقين من أن القائد الجديد لثورة الجزائر، هواري بومدين يعمل على تركيز شخصه بعد الإطاحة بالرئيس بن بلة في 1965.حقا ان بن بلة لم يذهب بعيدا وإلى حد كاف في تحديد الاشتراكية، ولم يكن سعيدا في تأسيس إصلاحات في الجزائر ضمن روح الاشتراكية، وعلى الرغم من الإطاحة برمز احمد بن بلة، الذي وصف خروتشيف سياسته في نفس اليوم بانها نموذج لسياسة لينين، والذي تلقى ميدالية من الاتحاد السوفياتي، وهو غير معقول تماما.[35] وفوق ذلك، هناك تقارير من السفارة الأمريكية بالجزائر التي أرسلت نبأ في ذلك الشهر قبل الإطاحة بن بلة من قبل بومدين، والذي كان في ذلك الوقت نائب رئيس الجزائر. استكمل بن بلة زيارته إلى الاتحاد السوفياتي ببيان أنه كان راضيا بنتائج الزيارة. وخلال 11- 17 ماي 1965، التقى بومدين بكبار العسكريين ورهط من السياسيين ، ووقع اتفاق تقني عسكري بين البلدين, وهو ما يعني أن هناك من المسؤولين في الاتحاد السوفياتي الذين أدركوا ان اهتمامات بومدين كانت السيطرة على الحكومة.، وانه لمن المستحيل التأكد من انه كان هنالك مسؤول سامي في الاتحاد السوفياتي على علم بنية بومدين في تنفيذ انقلاب بالجزائر ، إلا بوثائق أرشيفية وحدها. ومهما كان ، فإن أحد الدلائل أن هناك شخص ما اعترف بإعداد المؤامرة بدقة من بومدين في رحلته السياسية الأولى خارج إفريقيا منذ توليه السلطة في 19 جوان 1965، إنها زيارة إلى الاتحاد السوفياتي. [36] ومع ذلك، وفي البداية، فإن الاتحاد السوفياتي لم يعرف كيف يتعامل مع الثوري الجديد. وبعد زيارة بومدين الأولى إلى موسكو، فإنه اكتسب عطف قادة الكرملين، الذين عبروا عن ثقتهم في قدرته على قيادة الجزائر. [37]

ومع نهاية 1964، بدأت الولايات المتحدة تهاجم حكومة بن بلة بسبب سياسته المضادة للغرب، وطبقا للتقرير السنوي للكونجرس لعام 1965، فإن الولايات المتحدة أضافت بعدا جديدا إلى سياستها حول النظام الجزائري، إذ اعتبرت واشنطن بن بلة كزنيم قرر توقيف النشاط الأمريكي في بلده، في حين سمح لبلده أن يصبح تحت النفوذ السوفياتي الراغب في السيطرة على العالم الثالث، ولا يمكن للولايات المتحدة أن تتجاهل العلاقة الوطيدة للجزائر مع الكتلة السوفياتية، مشكلة علاقات دافئة وفاتحة لأبوابها لكل زعيم شيوعي يرفض في الغرب، ثم أنه

لا يمكن للولايات المتحدة أن تتجاهل الواقع أنه ليس هناك العديد من التقنيين من الكتلة السوفياتية في الجزائر، كما أشار إلى ذلك بورتر:»أصبحت مدينة الجزائر عاصمة عالمية ضد الامبريالية ، وفي أحوال كثيرة جبهة الحركات بكل الأوصاف .... فالجزائر قاعدة تدمير في إفريقيا والممون الرئيسي بالأسلحة للحركات الثائرة.» [38]

كما أن الملاحظين الدبلوماسيين الأمريكيين كانوا على دراية بسياسة الجزائر المشجعة للقوى الثورية في الكونغو واجزاء أخرى من القارة الإفريقية يساعدونها بأسلحة سوفياتية ، في حين يبدو ذلك واضحا وصريحا أنه ضد الغرب والأهداف الأمريكية في الشرق الأوسط وإفريقيا ، وتورطها في الكونغو، وفيتنام والقضية الفلسطينية. [39]

ومع ذلك، فإن السفارة الأمريكية بالجزائر أوصت إدارة جونسون بواشنطن بمواصلة علاقاتها السياسية مع الجزائر، مشيرة أن هناك نافذة فرصة باقية مفتوحة للنفوذ الأمريكي في المنطقة، وهذا برغم الفرصة المحدودة لسياسة الجزائر المؤثرة. وبرغم المخططات الاقتصادية الشمولية القائمة، من قبل الشركات الأمريكية وأفراد آخرون في الجزائر فإن هذه المخططات لم تنال تقديرا من مجموعات الدنيا والإدارة الجزائرية.

ومن وجهة نظر السفارة الأمريكية بالجزائر، فإن الوضع في الجزائر سيكون أسوأ، وحسب الطريقة الأمريكية فإن مشكلة العلاقات مع الجزائر ما هي إلا حادثة معزولة في التعاون الكلي للولايات المتحدة مع بلدان العالم الثالث، وهذا ما يجعل الأمريكيين « نحافظ على قدمنا في الباب بالجزائر ما هو في الواقع إلا وسيلة مساعدة لتلطيف الضرر المحدث في مكان آخر.»[40]

وفيما يخص المظهر الخارجي، فإن العلاقات الاقتصادية والعسكرية بين الجزائر والاتحاد السوفياتي توسعت، غير أن الجزائر لازالت تعتمد اقتصاديا على الغرب، خاصة بلدان أوروبا الغربية وكذا الولايات المتحدة. إن حد الاعتماد الأقصى الذي يمكن للاتحاد السوفياتي أن يقدمه للجزائر كمساعدة اقتصادية وعسكرية كان لايتجاوز المبلغ السنوي 250 مليون دولار. وفي التغاير، فإن فرنسا تقدم مساعدة اقتصادية مباشرة للجزائر بما مقداره بين 150 و250 مليون دولار في السنة لتوفير القوت ضد المجاعة، وأنه لمن المفيد أيضا الإشارة أن الجزائر تتمتع بدخل 100 مليون دولار من المقاولين الأمريكيين الذين يستثمرون في شركة نفط الصحراء Sahara OilCompany وشركات الغاز الجزائري. استثمرت بريطانيا العظمى 70 مليون دولار في شركات النفط القائمة، إضافة إلى ذلك، استثمر الغرب 85 مليون دولار في الاستثمارات الأجنبية الواسعة، علاوة على ذلك، تمتعت الجزائر بدخل سنوي قدره 1 بليون دولار من التجارة في السوق المشتركة ، فالسوق الغربية 85% من الدخل الكلي للجزائر لسنة 1964، ولا ذكر ل 500.000 جزائري يعتمدون على فرنسا والعاملين في فرنسا .[41] وفي حديث لوزير خارجية الجزائر مع راسك صرح في بداية 1965: « أن الولايات المتحدة قدمت لنا الخبز، لكننا نحن في حاجة إلى العمل.» [42]

تأثرت العلاقات الجزائرية – الأمريكية إلى حد كبير بفعل حرب فيتنام، إذ أصبح الوضع في فيتنام أكثر سوء وقساوة في اخذ الثأر الأمريكي ضد الفيت كونغ، كلما زادت الجزائر من دعمها للثوار الفيتناميين ضد الجيش الأمريكي.ومهما يكن، فإن الجزائر أعلنت أسبوع تضامن مع فيتنام، لكن عمليا، فإن المنظمات الحكومية لم تعط اهتماما كبيرا للوضعية في فيتنام. [43]

وبرغم أن القضايا الخاصة بالجزائر في بداية 1966 هي النضال السياسي الداخلي والوضعية الاقتصادية وعلاقات الجزائر مع فرنسا، والعالم العربي وإفريقيا.[44]

ولهذا السبب، فإن المسألة الفيتنامية اتفقت عليها الجزائر والولايات المتحدة أو لم تتفق، وانما ركزت على علاقات التنمية المؤدية إلى القضايا الاقتصادية والتقنية، وربما القضايا السياسية كذلك.[45] وبرغم هذا التفهم، فإنه اعتنق مصطلحات ومفاهيم خلال دورته في غرب الجزائر أيام 25- 27 ماي 1966 مثل» الاشتراكية العربية» و»الثورة العسكرية الموحدة».[46]

علاوة على ذلك، أنه في 6 جوان 1966، كان هناك لقاء بين بومدين ومساعد كاتب الدولة للولايات المتحدة Joseph Palmerالذي وصل في زيارة إلى لمغرب، وكان من الحاضرين وزير خارجية الجزائر وسفير أمريكا بالجزائر John D.Jerengan(الذي اعتمد من سنة 65 إلى 67، وكان قبلها سفير في بغداد . وهو من مواليد 1911 ومات 1980) وفي اللقاء الموالي بين بومدين والسفير أو حيا إلى Palmer أن الجزائر قد قدمت طلبا لمعونة اقتصادية من المصرف الدولي ، والذي لم يرد كعادته على مساعدة البلدان التي اختارت الطريق الاشتراكي. واستمرت المحادثات حول الاقتصاد وقامت الشركات الأمريكية بمحاولات للاستثمار في الجزائر، غير ان هذه الشركات قابلتها صعوبات جمة من الشركات الوطنية التابعة للحكومة الجزائرية، كما تطرقا إلى المشاكل الجزائرية مع جارتها في المغرب وبقية إفريقيا. وقد لخص بومدين المحادثات بإعلان بالمر أن السفير Jerengan أخبرني أن جيراننا متخوفون ، وجوابي أن» الجزائر لا تطالب بشيء وعليه فإن جيراننا لا مبرر لهم من القلق. فهذا النظام لا يريد سوى حل مشاكل الجزائر الداخلية ولا مصلحة لنا في غرز أنوفنا في شؤون بلدان أخرى» [47]

خرجا الطرفان برأي عن اللقاء الذي جمعهما بتفهم أن هناك اختلاف في الرأي بينهما، ولو على اتساع صعوبة العلاقات حول مبادرة جزائرية، وأضحى باديا وباختصار بعد ذلك، وذلك عندما طلبت الجزائر من السفارة الأمريكية بغلق مراكزها الثقافية في المدن الكبرى للبلاد. أراد بومدين أن يضع حدا للنفوذ الأمريكي على الطبقات الاجتماعية العليا من طبقة المواطنين البرجوازية.

علاوة على ذلك، أنه في 19 أوت 1966، طلبت الجزائر من الولايات المتحدة أن تغلق مركزها الثقافي في قسنطينة قبل حلول غرة سبتمبر من تلك السنة. احتج السفير الأمريكي لدى بوتفليقة وبدون جدوى، تم غلقه، وبعد أسابيع عرف المركز الثقافي بوهران نفس المصير، ومعظم نشاطات هذه المراكز هي تعليم اللغة الإنجليزية (لقد كنت أذهب باستمرار إلى المركز الثقافي بالعاصمة ، وشاركت في حرق المكتبة وذلك بتحريض من الحركة الطلابية، واذكر ان إحدى الجرائد نشرت لي صورة في الصفحة الأولى من الجريدة ، ولو حصل هذا اليوم لما فعلته؟؟)بالإضافة إلى نشاطات اجتماعية لصالح السكان المحليين.[48]

حاولت الولايات المتحدة أن تحقق بعض الإجراءات الاستثنائية لإعادة تأهيل العلاقات الجزائرية- الأمريكية الباردة بعد أن أدركت أن الجزائر لم تكن تسعى إلى أي مساعدة عسكرية غربية وبرغم أنه في نهاية 1966، رفضت واشنطن أن تقدم لهم مساعدة عسكرية ، وعلى أي حال، فإن الحكومة الأمريكية شرعت في عدة إجراءات لإعادة ترتيب الثقة.

عرضت الولايات المتحدة على الجزائر أن توافق على زيارة الأسطول السادس، وحدد الأميرال Frederick Ashworth 1912-2005

الميقات المضروب ليومي 11-10 أو 17-16 ديسمبر 1966، وأرسل طائرة لنقل كبار الضيوف الجزائريين في طائرة الأسطول، ولم يكن هناك أدنى شك أن مثل هذه الزيارة ستعطي قوة انطلاق للبحرية الجزائرية وربما تشجع أفضل العلاقات البحرية مع الولايات المتحدة . لم تحقق الزيارة الموالية رفض كيس من الجزائريين، أن الجزائريين كانوا تحت الضغط السوفياتي. [49]

◄ الوضع في الشرق الأوسط

في 10 أكتوبر 1966، أكمل قلال ولاية منصبه واستبدل بمحمد الصديق بن يحي ، المولود في 30 جانفي 1932، الذي كان عضو في ج.ت.و.، إلى أندونيسيا في 1956-55، وعضو في مجلس الدفاع للجزائر ، كما شارك في وفد الجزائر لمحادثات اسلام مع فرنسا من 1960 إلى 1962. وبعد الاستقلال، عين سفير لدى الاتحاد السوفياتي من 1963 إلى 1966.[50] وفي بداية 1967، التقى السفير الأمريكي أمحمد يزيد، المعارض لبن بلة ولاحظ السفير في حديثهما أن العلاقات الجزائرية- الأمريكية قد بلغت نقطت الغليان. إذ أصبحت وسائل الاعلام الجزائرية جد عدائية، والتي دعت إلى عنف ضدالأهداف الأمريكية في الجزائر، كما شجبت الولايات المتحدة وتدخلها في فيتنام، وفي نفس الوقت، تمدح الشيوعية والكتلة السوفياتية . طالب السفير الأمريكي من بوتفليقة تصحيح التقارير المضللة في الإعلام الجزائري. [51]غير أنه لم يشر لهذه القضية. [52] ولهذا أشار السفير في تقريره السنوي إلى كتابة الدولة للخارجية المستلم في 21 أفريل 1967، إلى العلاقات الجزائرية- الأمريكية على أنها لم تتحسن على مدار السنة الماضية، ولا يبدو في الأفق أنها ستتحسن في القريب العاجل، أضف إلى ذلك، أن رجال الأعمال الأمريكيين في الجزائر يواجهون صعوبات ولا يبدو أنهم يفلحون في تدبير أمورهم. [53]

بعد حرب 6 أيام بين إسرائيل وجيرانها دعمت الولايات المتحدة سياسة إسرائيل، وصعدت الجزائر في علاقاتها الرسمية مع واشنطن خلال حرب 6 جزان 1967. وبعد أربعة أيام الأخيرة غادر السفير الأمريكي الجزائر، وقلص عدد موظفي السفارة إلى خمسة أشخاص، وابتداء من ديسمبر 1967، شرعت الولايات المتحدة مرة أخرى في العمل داخل السفارة السويسرية كفرع من مكتب المصالح الأمريكية وعلى مستوى منخفض جدا، اعتمادا على اتفاق يتصل بالقطاعين الاقتصادي والثقافي فقط، ومن سبتمبر 1967 إلى نوفمبر 1969، كان Lewis Hoffackerمكلفا بمكتب الولايات المتحدة الخاص بالمصالح الأمريكية في الجزائر، ومن ديسمبر 1969 إلى إعادة فتح السفارة الأمريكية في جويلية 1974، ترأس مكتب البعثة William L. Eagleton,Jr ومع نهاية 1967، كانت هناك محادثات على مستوى كتابة الدولة للخارجية بين رئيس دائرة الشرق الأدنى وأمريكا اللاتينية، وممثل الولايات المتحدة في السفارة السويسرية. ودار الحديث حول العلاقات الجزائرية- الأمريكية بالنظر إلى النزاع بين العالم العربي وإسرائيل، كما يرونه، فالجزائر والعالم العربي قطعوا العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة، متهمين الولايات المتحدة بدعم إسرائيل ومساعدتها عسكريا. بينما تحاول الولايات المتحدة في نفس الوقت أن تطبع علاقاتها مع العالم العربي أما الجزائر فتعهدت بتقديم المجهود الحربي للعالم العربي ضد إسرائيل، وفضلا عن ذلك، اقتنعت الجزائر أن الحل الوحيد للقضية الفلسطينية هو إيجاد دولة فلسطينية- يهودية واحدة بحيث يتساوى كل من الفلسطينيين واليهود بحقوق متساوية . حاولت الجزائر أن ان تقنع العالم العربي للقيام بحرب تؤدي إلى قهر إسرائيل ومساندوها. وفيما يتعلق بانتصار

إسرائيل أعلنت الجزائر أن الجزائر والعالم العربي قد حاولا على الأقل، فيما يخص التعاون العسكري بين مصر والجزائر، فإن الجزائر أرسلت تعزيزات إلى قناة السويس فكان الضباط المصريون يعاملون جنودهم كعبيد، في حين تعامل الضباط الجزائريون مع جنودهم كبشر، وعليه فإن الجنود الجزائريين لن يوافقوا قط العمل في ظل قيادة الضباط المصريين. (55)

لم يحصل أن تحسنت العلاقات الجزائرية – الأمريكية بين 1969-68 إلا في عام 1974، لم تسعى الجزائر لإعادة علاقاتها مع الولايات المتحدة أثناء تلقي نظام بومدين المساعدة الأمريكية المكونة من الطعام والمساعدة الإنسانية ، وبرغم، أن واشنطن لازالت تعلق بعض الأهمية للجزائر، لسببين رئيسيين، أولهما أن أي تنمية في الجزائر لها تأثير مباشر على كامل بلدان المغرب التي تحافظ عليها الولايات المتحدة بعلاقات دبلوماسية على نطاق واسع. ثانيهما، كجزء من أجزاء العديد من مصالحها في الشرق الأوسط، فإن الولايات المتحدة تعلق أهمية كبرى للجزائر وإلى دلالة النفوذ السوفياتي والمساعدة التي تزداد ارتفاعا في العالم العربي. (56)

وهذا حسب تعليق الملاحظين الدبلوماسيين لإسرائيل:» أن الولايات المتحدة تعمل في الجزائر بهدف توازن التوغل السوفياتي والرغبة في منع وضع يجعل الاتحاد السوفياتي يحتل الوضع لوحده في هذا البلد الهام، ويقدر الأمريكيون أن الفرنسيين يشاركون في هذه الرغبة ما داموا واقفين ولهم مقدرة على ذلك. (57)

◄ الخلاصة

يصف هذا البحث الطريقة الضمنية للسياسة الخارجية الأمريكية تجاه الجزائر ويدرس كيف تأثرت العلاقات الجزائرية- الأمريكية بالنزاع العربي- الإسرائيلي في الشرق الأوسط على مراحل تفوق ثلاث فترات كبرى.

تمتد الفترة الأولى من بداية النزاع بين فرنسا والجزائر في نوفمبر 1954، وإلى نهاية حرب قناة السويس، وحملة سيناء في أكتوبر- نوفمبر 1956، وخلال هذه الفترة، تبنت إدارة آيزنهاور الطريقة الفرنسية نحو الجزائر، إذ أقنعت فرنسا حلفاءها الغربيين أن النزاع مع الجزائر هو تهديد للغرب بكامله، وأن نزاعهم يجب اعتباره كجزء من الحرب الباردة ، فحرب القناة وضعت حدا لآمال الفرنسيين أن حلفاءها في الغرب ، الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة عليهما الوقوف إلى جانب فرنسا ضد أي تهديد لسيادتها الإقليمية.

وفي الفترة الثانية، من نوفمبر 1956 إلى جانفي 1961، انسحبت إدارة آيزنهاور من المستنقع الفرنسي- الجزائري وبدأت تراجع النزاع للكفاح بين المستعمرين والمستعمر ولو أنها لم تصمت رسميا إطلاقا، وكما سبقت الإشارة فإن التغيير جاء بكل ما في الكلمة من معنى . كان ذلك في عام 1960 في الحملة الرئاسية أن كينيدي انتقد بصوت عال الأعمال الفرنسية في الجزائر ، وأثناء وصوله السلطة في جانفي 1961، زاد الضغط المتعلق على الضغط الفرنسي في الجزائر واصبح يصرح به كينيدي علانية.

ساهم تدويل النزاع الجزائري- الفرنسي إلى حد كبير في تبصر فرنسا إلى الوضعية الحاليةوإلى القرار الخاص بخروجها من المأزق الذي خلقته لنفسها والذي كان الطريق الوحيد للانسحاب من الجزائر.

وتبدأ الفترة الثالثة في جويلية 1962، مع استقلال الجزائر، واستمرت إلى نهاية حرب ستة أيام. وخلال هذه المدة ، فإن الاتصالات الرسمية بين الولايات المتحدة والجزائر كانت تجري يوميا،

وابتدأت بتعيين قنصل أمريكي في الجزائر ، ومع ذلك، ظلت العلاقات فاترة، ومركزة بالخصوص على المسائل الاقتصادية بما في ذلك نتاج نفط الغاز في الدولة المستقلة حديثا. وبرغم ذلك، بقيت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين لأنها كانت مهمة لكلاهما. وعليه تعاملت الولايات المتحدة مع الجزائر لأنها اعتبرتها في البداية راس جسر لتوغل الليبرالية وروح الديمقراطية إلى إفريقيا الوسطى ، حتى تحول دون توسع المصلحة السوفياتية في البلدان المغربية وإفريقيا خاصة على امتداد الحرب الباردة. حافظت الجزائر على علاقاتها الودية مع واشنطن في محاولة منها لرفع العزلة السياسية الطويلة بسبب أنها اتبعت في سياستها الداخلية والدولية النظام الاشتراكي.

انضمت الجزائر المستقلة رسميا إلى الجامعة العربية في 1962، لانجذابها لعبد الناصر ، الرئيس المصري، وإلى إيد يولوجيته السياسية ، لهذا فإن الجزائر أخذت موقفا حادا ضد إسرائيل في كل ما يتعلق بالنزاع العربي- الإسرائيلي، وهو ما أثر مباشرة على العلاقات الجزائرية – الأمريكية ، متحدية الرأسمالية الغربية آخذة موقفا عدائيا ضد ممثليها في المقام الأول، الولايات المتحدة، وفي الميدان العالمي الدولي وكذا إسرائيل، الحليف الأمريكي، وفي المجال الإقليمي للشرق الأوسط والبلدان المغربية.

توحي الخلاصات المتوصل إليها أنه برغم أن الولايات المتحدة والجزائر لهما علاقات دبلوماسية من بداية الستينات، إلى أن ذلك عائد إلى مصالح البلدين على التوالي. وخلال نهاية الستينات فإن المشاركة الكبرى للبلدين في النزاع العربي – الإسرائيلي في الشرق الأوسط (الذي كان مظهرا من مظاهر الحرب الباردة) وضع حدا للعلاقات بين الجزائر والولايات المتحدة.

وبالرغم من وجود علاقات دبلوماسية رسمية بينهما ، فإنهما قلصا هذه العلاقات إلى أدنى متطلبات مباشرة بعد حرب ستة أيام في جوان 1967، إذ أعلنت الجزائر عن قطع علاقاتها الدبلوماسية الرسمية بين البلدين بسبب إرسال الدعم العسكري والمالي لإسرائيل. ومن تلك السنة فما فوق، تصرفت بسياسية متشددة ضد الغرب، وأمريكا وإسرائيل.

وبرغم أن حرب ستة أيام، حرب استنزاف (جوان 1968 – أوت 1970) وحرب يوم التكفيرYom- Kipper(عند اليهود.المترجم) في أكتوبر 1973، أدى إلى نزعبين البلدان العربية، مثل مصر، والأردن في الاعتراف بدولة إسرائيل، وأصبحت الجزائر متشددة ورافضة الاعتراف بوجود إسرائيل، وأصرت على وجوب دولة فلسطينية بدلا من ذلك، وعلاوة على ذلك، فإن الجزائر لم تساند محادثات كامب دافيد Camp David واتفقا السلام بين مصر وإسرائيل، حتى استعادت العلاقات الدبلوماسية على مستوى السفيرين بين الجزائر والولايات المتحدة في 1974.

◄ الهوامش :

1 Ya'cov Herzog to Avraham Herman. ' president Kennedy and the Middle East', in 'Top Secret : Reports on Conversations with American Administration Officials' (in Hebrew), Jerusalem, 8 February 1961, Israel State Archives (ISA) Ministry of FoeignAffairs Archives (FM), 652510/.

2 Alexander,M.S, Evans, M, and Keiger, J.F.V eds, The Algerian War and the French Army, 1954-62 (Translation to Hebrew, Tel Aviv : YediothAhronoth, 2004), pp.59, 2012- ; seealso J.F. Kennedy,s opinion on the issue of the countries of the Maghreb and the war in Algeria as describedin the introduction to Lorna Hahn's book, NorthAfrica : Nationalism to Nationhood (Washington, DC : Public AffairsPress, 1960), p.v.

3 ,Embassy in Nicosia to the US State Department, »American Diplomats » Conference in Nicosia' (in Hebrew) Jerusalem, TopSecret reports', 10 August 1961, ISA/FM 37533/.

4 Ibid

5 A. Harman, Ambassador, to AriehLevavi (in Hebrew) ,Jerusalem, 7 December 1961, ISA/FM 37533/.

6 For further information on M'Hammed Yazid, seeMicheal M. Laskier, Israel and the Maghreb fromStatehood to Oslo (Gainesville : UniversityPress of Florida, 2004), pp. 224, 233, 236- ; David C Gordon, The Passing of French Algeria (New York and Toronto : Oxford Universi tyPress,1966),93.

7 National Archives and recordsAdministration (NA) Department of State, General Files, General Record Group of the Department of State (RG) : 59, Box No. 1258, File 611.51s/1. 1561. Incomingtelegram, From Paris, To : Secretary of State, 4 April 1961.

8 NA, Department of State, General Files, RG : 59, No. 1258, File ; 611.51s/1.1561. Incomingtelegram, From Paris, To Secretary of State , 10 April, 1961.

9 NA, Department of State, Central Files, RG : -9, Box No : 1258, File : 611.51s/1.1561 : ForeignServiveDespatch, From William J. Porter, Algiers, To : Department of State, Washington, 6 November 1961 ; Yvonne Levy,'Evolution de la politique américaineà l'égard du G.P.R.A. La Dépeche d'Algérie, 24 October 1961.

10 NA, Department of State, Central Files, RG, 59, Box No. 1258, File : 611.51 s/1.1561. United States GovernmentMemorandum, From : South/American Forces Network (S*AFN) Edwin M. Adams, To : Robert A. Van Valkenburgh, DF/PE, 16 November 1961 ; Memorandum of Conversation, Secret-Noform,

ALG-US. Secret, From : AF.HenryJ. Tasca, To : The Secretary. 24 May 1965.

16 Ibid.

17 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No. 3815, File : POL. ALG-US, PresentedCredentials to the President, From, SherifGuellal, To Mr President, 24 July 1963.

18 NA, Department of State , Central Files, RG : 59, Box No, 3815, File : POL. ALG-US, From Ahmed Ben Bella, To Mr President, John F. Kennedy (in Arabic and French, translatedinto English) , 24 July 1963.

19 Abd-el-Aziz Bouteflika wasborn in Morocco in 1935 and joined the FLN in 1956. As a young man heservedunder Command of Boumediennewhile Ben Bella was in a French prison. He belonged to the Ben Bella group when Ben Bella took over from Ben Khedda. In the summer of 1962, when Ben Bell wasforminghisgovernment ,heappointed Bouteflika as Minister of Youth, Sport and Culture. Despitehis position, Ben Bella made a great deal of use out of hisdiplomaticskills for special missions for Algeria'sforeign relations,primarlyinvolvingAlgeria's intervention and assistance to the African countries of Mali, Ghana, Senegal and Congo as part of the cooperationbetween France and Algeria.

20 NA, Department of State, Central Fromunknown Sources, To : Secretary of State , 16 January 1962 ; Assistant Secretary , From Bureau of AfricaAffairs (AF), To : Office of the underSecretary of State for PoliticalAffairs (M) Mr chee, 2 January 1962. » Subject : Expert American Economist to AdviseProvisional Algerian Government »

11 Unknown Sources, « Variousdetailsfrom Mr. Mualem Allen » (in Hebrew) ,Jerusalem, no exact date, 1962, ISA/FM 37865/.

12 NA .Department of State , Central FILES .RG :59 , Box No. 1258,File : 611 .51S/11561-, United States GovernmentMemor andum,Confidential ,From : Office OfNorthernAfricanAffairs (AFN) William Witman II, To : (AF) Mr . Fredericks, 23 May 1962 . Subject : 'Discusstion of Algeria in Paris

13 NA .Department of State . Central Files ,RG : 59,Box No. 1258,File : 611.51s/1- 1561. Outgouingtelegram ,FromDepartment of State . To Amembassy , Paris, Amconsul, Algiers, 15 February 1962.

14 David M. Sasson, IsraeliEmbassy, Washington, To : Middle East Desk, « Algeria » (in Hebrew), Jerusalem, 12 December 1962ISA/FM 652516/ ; Washington Post, 9December 1962.

15 NA, Department of State, Assistant Secretary, Central Files, RG : 58, Box No. 1884, File : POL. 17

Central Files, RG : 59, BoxNo. 1884, File ; POL. 1 Affairs and relations ALG-US, Memorandum of Conversation, Secret ,From : Department of State, To : Unknown Sources, 31 August 1964.

27 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No. 1258, File : 611. 51 S/662, United States GovernmentMemorandum, Confidential, From : AF-Mr. Tasoa, To AFN—WILLIAM Witman II, 25 October 1963, Subject : 'US Action towardAlgeria' ; Secret , From : Department of State, To : AmembassyAlgiers, 1 November 1962, Subject ; 'Long Term- US policytowardAlgeria' ; Secret, From ; AmembassyAlgiers, To : Department of State, 11 December 1962. Subject : 'Factors to beconsidered in formulation of Long-TermUSpolicytowardAlgeria : Embassy Comment on SpecificQuestions posed by Department'.

28 NA, Department of State, Central Files, RG :59, Box No. 3810,File : POL. 12- ALG, joint weeka No. 6, Confidential, From :AmembassyAlgiers,To:Department of State, 12 February 1963 ; Joint Weeka No. 8 Confidential, From :AmembassyAlgiers, To : department of State, 20 February 1963.

29 NA, Department of State, Central files, RG : 59, Box No 3810, File : POL. 12- ALG, Joint Weeka No. 29n Confidential ,From : Files, RG : 59, Box No. «3811, File : POL. 6 ALG, Confidential, From :AmembassyAlgiers, To : Department of State, 12 September 1963.

21 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No, 3811, File : POL. 7 ALG, Memorandum of Conversation, Confidential, From : The Secretary, To : AmembassyAlgiers, 27 November 1963.

22 Ibid.

23 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No. 1884, File ; POL-PoliticalAffairs and Relations Alg-US, statement, From : Embassy of Algeria, Washington DC, To : Unknown Sources, 5 April 1964 ; Department of State, Central Files, RG : 59, Box No.1878, File : POL. 23- Politico-Economic Reports ALG. Secret, From : AmembassyAlgiers, To :Department of State, 14 March 1964. Subject : Politico-EconomicAssessment-Algeria'.

24 NA, Department of State , Central Files, RG : 59, box No ? 1884, File : POL-PoliticalAffairs and Relations ALG-US, Memorandum of Conversation, Secret, From : Department of State. To : Unknown Sources, 16 June 1964. Subject : 'US-Algerian Relations'.

25 Ibid.

26 Ibid, NA, Department of State,

AmembassyAlgiers, To : Department of State. 25 July 1963.

30 Ahmed Ben Bella, 'Che Guevara, Cuba, and the Algerian Revolution'. The Militant 62 (4),2Februray 1998 ; http//hartford-hwp.com/archives/40/O58.html 30July 2005.

31 NA, Department of State , Central Files, RG : 59 , Box No, 1878, File : POL. 21- Joint WeekaNo . 28, Confidential, From : AmembassyAlgiers, To : Department of State, 7 May 1964.

32 Y. Tagar, Middle East Desk To Hanan Bar- On, Embassy, Wasgington (in Hebrew), Jerusalem, Secret, 21 June 1964, ISA/FM 654031/.

33 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No, 1884, File : POL. 1 ALG_US, Secret ,From : (AF) – J. Wayne Fredericks, To : Office Of Under Secretary of State (U) – The Under Secretary, (N) – Governor Harriman, 15 May 1964.

34 NA, Department of State, Central File s, RG : 59, Box No, 1877, File : POL. 21- ALG, Joint Weeka No. 15, Confidential, From : AmembassyAlgiers, TO : Department of State , 19 April 1965, Joint Weeka No .16 Confidential, From : AmembassyAlgiers, To : Department of State, 22 April 1965, Joint Weeka No. 17, Confidential ,From : AmembassyAlgiers, To : Department of State, 29 April 1965.

35 The Minister, Ankara, to Middle East Desk, 'Algerian Socialism' (in Hebrew), Jerusalem, 6 March 1968, ISA/FM 41637/.

36 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No. 1877, File : POL. 21- ALG, Joint Weeka No. 19, Confidential ,From : AmembassyAlgiers, To : Department of State , 13 May 1965, Joint Weeka No. 46, Confidential ,From/ AmembassyAlgiers, To ; Department of State, 9 December 1965.

37 The Minister, Ankara to Middle east Desk,' Algerian Socialism' (in Hebrew), Jerusalem, 6 March 1968, ISA/FM 41637/.

38 NA, Department of State, Central Files, RG ! 59, Box No. 1878, File : POL. 23- Politico-Economic Reports ALG, Secret, From : William J. Porter, AmembassyAlgiers, To :Department of State, Paris, Rabat, Cairo, Moscow, Oran, Constantine, April 9, 1ç65. Subject :' Politico-EconomicAssessment – March 1964_ March 1965'.

39 NA, Department of State , Central Files,RG : 59, Box No. 1878, File : POL. I ALGUS, Secret, From : John F. Root, Counselor of AmembassyAlgiers, To : Department of State, 4 February 1965, Subject : 'National Policy Paper for Algeria'.

40 NA, department of State, Central Files, RH : 59, Box No. 1878, File

First SecretaryAmembassyAlgiers, To : Department of State, May 6, 1966 ; EL-Moudjahid, 23 April 1966.

47 NA, Department of State, Central Files , RG : 59 Boc No. 1884, File/ POL. I ALG-US ? Subject : Memorandum of Conversation betweenPresidentBoumedienne and ForeignMinister Bouteflika During Assistant secretaryPalmer'svisit to Algiers", Confidential , From : John D. jerengan, AmembassyAlgiers, To : Department of State, 10 June 1966 ; Memorandum of Conversation, Confidential, President Houari Boumedienne, Honorable Joseph Palmer II.Ambassador John D. Jerengan, 6 June 1966 ; Memorandum of Conversation, Limited OfficialUse, Abdelaziz Bouteflika, Minister of ForeignAffairs, Assistant Secretary Joseph Palmer., 2nd (II) , Ambassador John D. Gerengan, 7 June 1966.

48 NA, Department of State, Central Files, RG : 58, Box No. 1877, File : POLI ALG, Joint Weeka No. 82. Confidential, From : AmembassyAlgiers, To : Department of State, 2 September 1966, Joint Weeka No. 84, Confidential, From : AmembassyAlgiers, To : Department of State, 16 September 1966.

49 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No. 1884, File : POL- PoliticalAffairs and Relations ALG-US, Confidential, From : AmembassyAlgiers, To : Department of State, 8 November 1966. Subject : 'Suggestedvisit by AlgeriansfromSixth Fleet.' Confidential .From John D. Jerengan, AmembassyAlgiers, To : Department of State, 11 November 1966.

50 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No. 1884, File ; POL. 17 ALG-US, Confidential, From : John D. Jerengan, AmembassyAlgiers, To : Department of State, 11 October 1966.

51 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No. 1783, File : POL. 1 ALG-US, Confidential, From : John D. Jerengan, AmembassyAlgiers, To : Department of State, 6 January 1967.

52 Department of State, Central Files , RG : 59, Box No. 1782, File : Political AFF and REL., ALG-US, From : John D. jerengan, AmembassyAlgiers, To : Department of State, 1 February 1967.

53 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No. 1783, File : POL I ALG-US, Secret, From : John D. Jerengan, AmembassyAlgiers, To : Department of State, 21 April 1967, Subject : 'US Policy Assessment-April 1967'.

54 NA, Department of State, Central Files, RG : 59, Box No. 1783, File : POLInALG-US, Secret, From : Lewis Hoffacker, AmembassyAlgiers, To : Department of State, 1 April 1968, Subject : 'US Policy Assessment for Algeria- 1April 1968.'

NA, Department of State, Central 55-Files , RG : 59, Box No. 1782, File : Political AFF and REL., ALG-US, Confidential, From : Unknown Source, To : Unknown Source, Unknown date, 1967. Subject : 'US- Algeria Relations : '.Algeria, Israel and the Arab World

56- NA, Department of State, Central Files, RG ; 59, Box No. 1783, File : POL 1 ALG- US, Secret, From : Lewis Hoffacker, AmembassyAlgiers, To : Department of State, 7 April 1960, Subject : 'US- Policy Assessment for Algeria ---1969.'

Y. H. Ben –Aharon, Washington—57 to the ResearchDepartment, ' Algeria-United States' (in Hebrew), Jerusalem, Confidential, 4 March 1969, ISA/FM .6555/16

عرض أطروحة دكتوراه :

إستراتيجية الثّورة الجزائرية في التّصدي للمصالح الإدارية المتخصصة

1955م - 1962م

إعداد أ. أمير يوسف
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر

شكّل هذا العنوان موضوع أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، أعدّتها الأستاذة بية نجاة ، وهي استاذة دائمة بالمدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة .نوقشت الأطروحة بالمدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة بتاريخ 27 أفريل 2015م تحت إشراف الدّكتور سعيدي مزيان ، ونالت درجة مشرّف جدّا . أرادت الباحثة من خلالها إماطة اللثام عن جانب مهم من تاريخ الجزائر المعاصر،وبخاصة تاريخ الثورة التحريرية الجزائرية ، وإعادة بناء الواقع التاريخي انطلاقا من المصادر الأساسية التي تمثل فيها الوثائق الارشيفية اللبنة الرئيسية لهذة الدراسة، حيث لا تزال مسألة كتابة تاريخ الثّورة التّحريريّة الجزائريّة بحاجة إلى مزيد من البحث والتّمحيص والتقصّي عن الحقائق، قصد رصدها في إطارها الزّمنيّ والمكانيّ، والقيام بالاستنباطات العلمية للوصول إلى مقاربة تاريخية موضوعية .

تهدف هذه الدّراسة إلى تشريح الاستعمار الفرنسي و الكشف عن أساليبه وأشكاله، من خلال استراتيجيته في التعاطي مع الثورة الجزائرية، وفضح التزييف والمغالطات التّي لحقت بتاريخنا من طرف الكتاب الفرنسيين وأعوانهم من خلال موضوع استراتيجية الثورة الجزائرية في التصدي للمصالح الإدارية المتخصصة ما بين 1955م إلى 1962م (Sections Administratives Spécialisées).

◄ أهمية موضوع الدراسة

إنّ أغلب أرشيف الثّورة التحريريّة تمّ تحويله إلى فرنسا من قِبل السّلطات الاستعماريّة، بحجّة أنّ هذا الأرشيف كلّه ملك للدّولة الفرنسية، ومن هذا الأساس جاء السّبق والتنوع من قِبل الأقلام الفرنسيّة في تدوين وكتابة تاريخ الثورة التحريرية، إضافة إلى محاولة تكريس نزعة المدرسة التّاريخية الفرنسية في احتواء التاريخ الوطني و توجيه كتابته.

وللأسف فإنّنا لا نكاد نجد دراسات تاريخية وطنية مهتمة بالاستعمار من خلال تشريح مفصل لآلياته وأساليبه وآثاره، وما هو موجود منها انطلقت نظرة أغلبها للتاريخ على أنّه أحداث مستجدة وسجل بطولات، هذه النظرة الضيقة للتاريخ جعلت تاريخ بعض الشعوب فارغا من محتواه الحقيقي دون أن

يحقق حاجات المتطلع لمعرفة تجارب ومعاناة الشعوب في أبسط مظاهرها وأدق تفاصيلها.

وأمام النجاحات التي حققتها الثورة، صعّدت فرنسا من أساليبها لقمعها في إطار المواجهة الشّاملة، ومن ضمن التّنظيمات الفرنسيّة التي وُضعت من أجل ذلك، إنشاء جهاز إداري خطير أسمته "المصالح الإداريّة المتخصّصة" (S.A.S) وذلك في الفترة الممتدة ما بين 1955م 1962-م، بداية بسياسة الحاكم العام جاك سوستيل ونهاية باستراتيجية رئيس الجمهورية الخامسة الجنرال ديغول في قمع الثورة الجزائرية .

ويعتبر هذا الجهاز من بين المصالح الحسّاسة والخطيرة في آن واحد ضد الثّورة التحريريّة، وذلك لاعتماده في عمله على خلق حاجز بين الثّورة التّحريريّة و الشّعب، والتّجسيد العملي الحرب النّفسيّة السّيكولوجيّة التي تعتبر من أفتك الأسلحة التي يمكن أن تَقضي على الثّورة التّحريرية، بالإضافة إلى عدة آليات أخرى، كالتّعليم، والإعانات الصّحيّة المزعومة، وجملة من الخدمات الاجتماعية . فكان لِزاما على قادة الثورة مواجهة عمل هذه المصالح، و فتح جبهة أخرى في صراعها مع الإدارة الاستعمارية بالموازاة مع المواجهة العسكريّة.

ويجب الاشارة إلى أنّ هذه الدّراسة اعتمدت بشكل كبير على الوثائق الأساسية، وتأتي الوثائق المحفوظة على مستوى مركز ارشيف ما وراء البحار "بأكس أون بروفانس" (Aix en Provence) بمرسيليا سلسلةK وسلسلة F80، و الوثائق الأرشيفية الموجودة على مستوى مركز الأرشيف الوطني ببئر خادم، و أرشيف ولاية الجزائر في مقدّمة المصادر، وهي تعد من اهم الوثائق التي اعتمدت عليها الدّراسة، أفادت بشكل كبير في توضيح الأوضاع الدّاخلية للجزائر قبل وأثناء الثورة، ومن ثمّ الوقوف على خلفية بعض الأحداث المهمّة وردّ فعل السلطات الاستعمارية من الثورة التحريرية .

وقد اعتمدت الباحثة على عدة مناهج في الدّراسة، وذلك راجع إلى طبيعة الدّراسة وجملة المادّة التّوثيقية المتوفرة، فالمنهج التّاريخيّ الوصفي من أجل تتبّع الأحداث التّاريخيّة وسردها، ودراستها برؤية علميّة بعيدة عن التّأويل والسّرد المخّل بطبيعة الوقائع التّاريخيّة.

كما أنّ المنهج التّحليليّ النّقديّ المنتهج في الدّراسة سمح بإبراز درجة الوعي التاريخيّ والأهليّة العلميّة، التي يجب أن يتحلّى بها الباحث المؤرّخ، فِقوام الأمر كلّه هو تحليل الأحداث واستجلاء أبعادها وتفكيك خباياها، خاصّة وأنّ المسألة تتعلّق بسياسة استعماريّة شاملة هدّامة.

◄ فصول الأطروحة

اشتملت الدّراسة على مقدّمة، تمهيد وخمسة فصول رئيسية، وخاتمة، بالإضافة إلى الملاحق الوظيفيّة التّي تعدّ من متمّمات البحث، والتّي من شأنها أن تزيدَ من توضيح بعض الأفكار وتعزيز الطّروحات التي جاءت بها الدّراسة.

جاء الفصل التّمهيديّ بعنوان "الشّأن الأهلي لدى الإدارة الفرنسية) 1830م1954-م("، تناولت فيه إشكاليتين: الاولى حول السّياسة الأهليّة في العهد العسكريّ من1830م إلى1870م، ودور المكاتب العربيّة في تجسيد السياسة الاستعمارية. أمّا الإشكالية الثّانية فكانت حول السّياسة الأهليّة الفرنسيّة على عهد نظام الحكم المدنيّ الفرنسيّ، بالجزائر وهذا خلال الفترة الممتدّة ما بين 1871م و 1954م.

أمّا الفصل الأوّل فجاء بعنوان "نشأة ومهامّ المصالح الإداريّة المتخصّصة (SAS)"، تناول ظروف اندلا ع الثّورة التّحريريّة، ثمّ سياسة النّظام الاستعماريّ

الأوّليّة في مواجهة الثّورة التّحريريّة، التي انبثقت من خلالها إستراتيجيّة الحاكم العامّ "جاك سوستال"، أهمّ ما ميّزها هو إعادة إحياء نظام السّياسيّة الفرنسيّة القديم، المتمثّل في المكاتب العربيّة تحت اسم مُغاير، وهو المصالح الإداريّة المتخصّصة، وهذا بغرض استمالة الشّعب الجزائريّ ليتخلّى عن ثورته.

أما الفصل الثّاني استعرض فيه المهامّ الإداريّة والعسكريّة وعزلها عن الثّورة التّحريريّة للمصالح الإداريّة المتخصّصة من ناحيتين، من خلال كلّ ما يتعلّق بالجانب الإداريّ لهذه المصالح، والتطرق الى المهامّ العسكريّة وعلاقتها بالثّورة التّحريريّة.

وجاء الفصل الثّالث، ليتناول المهامّ الاقتصاديّة والاجتماعيّة و السّيكولوجيّة للمصالح الإدارية المتخصّصة. في حين خصّص الفصلين الرابع والخامس لدراسة استراتيجية الثورة في مواجهة الإدارة الاستعمارية، فكان الفصل الرابع بعنوان " الثورة التحريرية في مواجهة المصالح الإدارية المتخصصة(SAS)عسكريا و سياسيا"، درست من خلاله التنظيم الاداري الذي استحدته الثورة لرصد وتتبع كل حركات المصالح الادارية المتخصصة، وكذا دور المحافظ السياسي في رصد وإفشال مخططات هذه المصالح الإدارية، بالإضافة إلى دراسة هيكلة فئة الشباب، وكيفية توعية وتعبئة المرأة الجزائرية في العمل الثوري.

كما تطرقت إلى أساليب المواجهة للثورة التحريرية في المجال العسكري، اقتصرت في ذلك على دراسة أساليب القضاء على العناصر العاملة بالمصالح الإدارية المتخصصة (الحركى والقومية)، وكذا دراسة الجوسسة المضادة للثورة التحريرية داخل المصالح الإدارية المتخصصة.

أمّا الفصل الخامس فخصّص لدراسة أساليب الثّورة التّحريرية في مواجهة المصالح الإدارية المتخصصة (SAS) اجتماعيا و اقتصاديا وإعلاميا.

◄ أهمّ نتائج الدّراسة:

خلصت الدّراسة إلى أنّ اندلاع الثّورة التّحريريّة الجزائريّة، دفع السّلطات الاستعماريّة الفرنسيّة للبحث عن أسلوب سياسيّ يرافق الأسلوب العسكري بما فرضه الوضع الجديد للجزائر، وهو إخراج ورقة (الإصلاحات) لمواجهة العمل المسلّح ومحاولة عزل وخنق الثّورة في المهد، حيث تبنّت الحكومات الفرنسية المتعاقبة سياسة (الإصلاحات) ما من شأنه أن يشغل الجزائريين عن الثّورة.

رغم كلّ هذه المخطّطات، المتمثّلة في مجموعة من المشاريع، كمشروعي سوستيال و ديغول (الإصلاحيين)، التّي استخدمتها فرنسا من أجل إطفاء فتيل الثّورة وإخماد نارها، بالإضافة إلى الأسلاك الشائكة المكهربة، إلاّ أنّها فشلت وهذا جرّاء الحملة الواسعة للتّوعية وتعبئة الجماهير الشّعبيّة.

تفوّقت العبقريّة الجزائريّة في مختلف المجالات الحيويّة خاصّة في مجال الدّعاية المضادّة، إلى جانب المرفقات الحيويّة التي ركّزت عليها المصالح الإداريّة المتخصّصة، لاستمالة الشّعب الجزائريّ كالتّعليم والصّحة وخلق مناصب عمل،كلّ ذلك عملت مصالح الثّورة التّحريريّة على سدّ ثغراته، من خلال إنجاز مشاريع اجتماعية، كوضع مصالح مختصّة مهمّتها تنظيم التّموين، إلى جانب خلق مراكز شبه صحيّة للشّعب، و حتّى مشكلة التّمدرس تمكّنت الثّورة من إيجاد حلّ لها إلى حدٍّ ما.

أثبتت الدّراسة أنّ المصالح الإداريّة المتخصصة هي من أقوى الدّعائم الاستعماريّة، ضمن السّياسة الاستعماريّة أو المشروع الاستعماريّ الفرنسيّ بشكل أوسع، حيث خدمت مساعي إخضاع الجزائر أرضا

وشعبا، واستعانت بعدّة مراسيم وقوانين، لإضفاء الشّرعيّة وتبرير كلّ مخططاتها الاقتصادية والسّياسية والدّينية والثقافية والاجتماعية.

كانت أوّل عقبة وقفت أمامها هي كيفية إخضاع الشّعب الجزائريّ واستمالته لصالحها فقامت بإنشاء ما كان يسمّى بالمكاتب العربيّة بغرض القضاء على أيّ مقاومة ضدّها، وبعد مئة وواحد وعشرين سنة قامت ذات الإدارة بتجديد هذا النّظام، ولكن هذه المرّة تحت اسم مغاير وهو المصالح الإدارية المتخصصة(SAS)، لفصل الشّعب عن الثّورة التّحريريّة و وأدها، هذا ما لم يتأتّ لها حسب ما جاء في فصول هذه الدراسة، وخير دليل على ذلك نصّ إتفاقيّة إيفيان، الذّي جاء فيه اعتراف الإدارة الفرنسيّة ودولتها بمنح الاستقلال التّامّ والكامل للجزائر في الخامس جويلية 1962م، بعد سبعة سنوات ونصف من الكفاح.

وبنظرة عامة نجد أنّ القناعة الأكيدة للشّعب الجزائري وقادة الثّورة بعدل واستحقاق القضيّة الوطنيّة، يجعلنا نسلّم بفشل نهائيّ للسّياسة الاستعماريّة الفرنسيّة بالجزائر سيما بعد إلتحام الشّعب الجزائريّ بالثّورة التّحريريّة رجالاً ونساءً أطفالاً وشيوخاً، والذي يدلّ على أنّ الثّورة حقّقت غايتها في التّصدّي لمشاريع الاستعمار الفرنسيّ.

الغلاف الخارجي لأطروحة الدكتراه

عرض أطروحة دكتوراه :

إسهام المرأة في الحياة العلمية بالمشرق الإسلامي خلال القرنيين 6 - 7 هـ / 13-14 م :

إعداد أ. أمير يوسف
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر

تناول موضوع البحث الذي أعدته الطالبة فراج وسيلة الدور الذي أدته المرأة في الحياة العلمية بالمشرق الإسلامي أواخر العصر العباسي وبداية عصر المماليك .

تطرقت إلى دور المرأة في أقطار المشرق الإسلامي وما أدته من نشاط علمي ومواقف سياسية واجتماعية وفكرية ، حيث نبغت منهن المحدثات والفقيهات والشاعرات والمقرءات في كل من مصر والعراق والجزيرة وبلاد الشام وفارس ، وتناولت بالدراسة المراكز العلمية التي درست فيها والمناهج المتبعة في التدريس وما مدى تأثيرها بمجتمعهاأما اشكالية البحث تمثلت في: كيف وأين تعلمت المرأة بالمشرق الاسلامي ؟ هل كان التعلم متاحا لكل النساء أم كان مقتصرا على طائفة دون أخرى ؟ في ما تمثل النشاط العلمي للمرأة بالمشرق الاسلامي ؟وهل كانت المرأة تسافر طلبا للعلم ؟ كيف أثرت المرأة على المجتمع في المشرق الإسلامي ؟ هل كان لها انتاجا علميا ؟ من هن النساء العالمات اللواتي ظهرن في المشرق الإسلامي؟.

وقد قسمت الأطروحة إلى أربع فصول ومقدمة وخاتمة وملاحق

تناولت في الفصل الأول الأوضاع السياسية والعسكرية والعلمية بالمشرق الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن 6هـ/12م ، أما الفصل الثاني فدرست فيه تعليم المرأة في المشرق الإسلامي خلال القرن 7-8هـ حيث تعلمت بمنازل العلماء أشهرها بيت الفخر بن البخاري وبيت الحافظ شمس الدين الذهبي ببلاد الشام وبيت شرف الدين الدمياطي بمصر كما تعلمت بالجوامع كالجامع الاموي بدمشق وجامع الأزهر بمصر والحرم المكي والمدني كما درست بالأربطة والزوايا ، أما النظام الدراسي فكانت المرأة تتعلم بداية في الكتاتيب القراءة والحساب ثم تنتقل للتعلم بالجوامع والأربطة وكانت هذه المراكز تعلم النحو و اللغة و علم الحديث وعلوم القرآن ثم تتحصل على اجازة وهي شهادة تثبت اجازتهن للتعليم وبلوغهن درجة التدريس.

أما الفصل الثالث تناولت فيه مظاهر الحركة العلمية النسوية بالمشرق الإسلامي حيث قامت النساء بالمشرق بجهود كبيرة في خدمة العلم ونشره وذلك ببناء المراكز العلمية حيث بنت حوالي 63 مركزا علميا خاصة المدارس منها 28 مدرسة و23 رباط كما ساهمت ببناء الجوامع ومن أمثلة المدارس التي بنتها، المدرسة الحجازية بنتها سارة بنت الناصر محمد بن قلاوون سنة 761هـ بمصر والمدرسة الناصرية

بنتها أيضا بمصر طغاي زوجة السلطان الملك الناصر قلاوون سنة 749هـ والمدرسة السابقيةباليمنبنتها مريم بنت العفيف زوجة السلطان الملك المظفر سنة 713هـ.

أما الفصل الرابع فكان عن مظاهر تأثير المرأة في الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الفكرية أما عن الحياة السياسية هناك الكثير من النساء بدر منهن موقف سياسي كتوجيه الدولة و تعيين الولاة ورد المظالم نذكر منهن ملكة مصر شجرة الذر زوجة نجم الدين أيوب فعند وفاة زوجها سنة 647هـ تولت ترتيب أمور الدولة وإدارة شؤون الجيش وساهمت في الحروب الصليبية وغازية خاتون بنت الملك الكامل دبرت الملك لولدها المنصور بعد وفاة زوجها . وخوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان توفي سنة774هـ كان لا يصدر أمر من أمور الدولة إلا بمشاركتها و مراجعتها .

أما عن الحياة الاقتصادية و الاجتماعية قدمت المرأة أموالا خصصت لبناء المراكز العلمية وخاصة المدارس ومراكز إيواء النساء كما خصصت أموالا لمساعدة النساء الفقراء و الأرامل و الأيتام .

اما عن تأثيرها في الحياة العلمية فقد خرجت نساء المشرق طلاب أصبحوا بعد ذلك علماء و حفاظ مشاهير أمثال لسان الدين بن خطيب و العز بن جماعة وابن صاحب الدمشقي وصلاح الدين الصفدي ويوسف المزي وغيرهم .

أما عن إنتاجها العلمي فقد بلغ عدد مصنفات النساء 39 مصنفا منها كتاب شرح الأزهار

في فقه الأئمة الأخيار4 مجلدات لدهماء بنت يحي وكتاب الجوهر في علم الكلام وكتاب الجواب الوجيز على صاحب التجويز لصفية بنت المرتضى الحسينية توفيت سنة 771هـ وغيرها وختمت الفصل بذكر أشر عالمات المشرق.

وقد توصلت من خلال هذا البحث :

أن النساء اللاتي كان لهن الحظ في التعلم هن اللاتي انتمين إلى أسر علمية او سياسية فكن يترددن لطلب العلم في الجوامع و الأربطة والخوانق ومنازل العلماء ، وكان الاهتمام الغالب في طلب العلم على علم الحديث .أما المناهج التعليمية فتمثلت في الشرح والسماع والإملاء والمناقشة والعرض ثم الحصول على إجازة ، وقد ساهمت المرأة في نشر العلم وتشجيعه من خلال بناء المراكز العلمية ، حيث بنت حوالي 63 مركزا علميا منها 28 مدرسة و23 رباط ، وقد لوحظ أن النساء لم تدرس ولم تدرس بالمدارس رغم اسهامها ببنائها ، حيث كانت خاصة بالرجال فقط مما يدل أن حرية المرأة كانت محدودة .

وكان للنساء دور كبير في تدريس الحديث وانتسبن الى أقطار اسلامية منها البغداديات و الدمشقيات و المصريات والمقدسيات و المكيات و البعلبكيات و الأصبهانيات كان لهن جهود عظيمة في تدريس الحديث وكان الرجال يشدون الرحال للاستفادة منهن .

ومن بين نشاطها التدريس وتنظيم مجالس علمية في شكل حلقات خاصة علم الحديث ، حيث بلغ عدد النساء العالمات 540 عالمة معظمهن تخصصن في علم الحديث ب488 عالمة والباقي اهتممن بالفقه وعلوم القرآن والشعر والأدب .

ومن أشهر النساء العالمات ست الوزراء بنت منجا توفيت سنة 717هـ/1317م وعائشة بنت ابراهيم بن صديق توفيت 741هـ/1340م وزينب بنت كمال توفيت سنة 739هـ/1339م وفاطمة بنت عباس البغدادية توفيت 713هـ/1313م وكريمة بنت حبقبق توفيت 641هـ/1243م وغيرهن وقد تخرج على يدهن الكثير من الطلاب الذين تحصلوا على اجازات منهن وأصبحوا بدورهم علماء ، أمثال

الصفدي والذهبي وابن حجر وابن كثير وغيرهم .

كما شاركت المرأة بدعم الحياة الاجتماعية والاقتصادية وشاركت في الحكم إلى جانب الرجل ودبرت شؤون الدولة وكان لها دور في الحروب الصليبية ، وقد لوحظ ان التأليف عند النساء كان قليل ومعظم ما عثر عبارة عن مشيخات أما الكتب التي ذكرت فهي مفقودة بسبب الظروف السياسية التي مر بها المشرق الإسلامي .

ومما يؤاخذ على هذا العصر الحد من دور المرأة ومنعها من الدراسة بالمدارس النظامية رغم اسهامها في بنائها مع عدم الحرص على نسخ ونشر كتبها لذا فإن أهم اسهامات المرأة فهو نقلها للعلم خاصة علم الحديث فلهن الفضل الكبير في تعلمه و تعليمه ونشره كما أنها مارست التعليم وأصدرت الإجازات التي هي بمثابة الشهادة العلمية بالمفهوم الحالي .

مع كل هذه الإسهامات فإن المرأة لم تهمل وظيفتها الأولى كأم فربت أولادها وشجعتهم على طلب العلم ونشره الى جانب طلابها الذين استفادوا منها فالمرأة حقيقة نصف المجتمع فعلى الباحثين أن يهتموا بدور المرأة في الحياة العلمية خلال العصر الإسلامي ويبرزون أهميته في خدمة العلم .

إسهام المرأة في الحياة العلمية
بالمشرق الإسلامي
خلال القرنين 7-8هـ/ 13-14م

الغلاف الخارجي لأطروحة الدكتراه

La République Algérienne Démocratique et Populaire
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche scientifique

Ecole normale Supérieure de
Bouzareah– Alger

KADHAYA TARIKHIYA

Revue trimestrielle académique indexée publiant des études Historiques

Éditée par LEHC – ENS de Bouzaréah– Alger

Troisième numéro :Troisième numéro : Dhû El Kiida 1437 AH/ Septembre 2016

ISSN 2507-718X